



مَنْهجُ القرآنِ الكريمِ

في تربية العقل علي التفكير



تأليف

د. فهد بن عبد الله التويجري



منهج القرآن الكريم
في تربية العقل على التفكير

تأليف
د. فهد بن عبدالله التويجري

أصل هذا الكتاب رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الدكتوراه
من جامعة أم درمان بالسودان

ح فهد بن عبدالله التويجري ، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

التويجري ، فهد بن عبدالله بن حمد
منهج القرآن الكريم في تربية العقل على التفكير. / فهد بن عبدالله بن حمد التويجري .- الرياض ، ١٤٤١هـ
٤٥٤ ص ؛ ..سم

ردمك: ٦-٤٩١٦-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- الآداب الاسلامية ٢- القرآن - مباحث عامة أ.العنوان
ديوي ٢٢٩,١ ١٤٤١/١٢٦٢٢

رقم الإيداع: ١٤٤١/١٢٦٢٢
ردمك: ٦-٤٩١٦-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م

للحصول على نسخ من الكتاب أو لطباعته يرجى التواصل على أحد العناوين التالية :

هاتف / واتساب: ٠٠٩٦٦٥٠٩٦٨٧٥٤٤

بريد إلكتروني: honouringallah@gmail.com

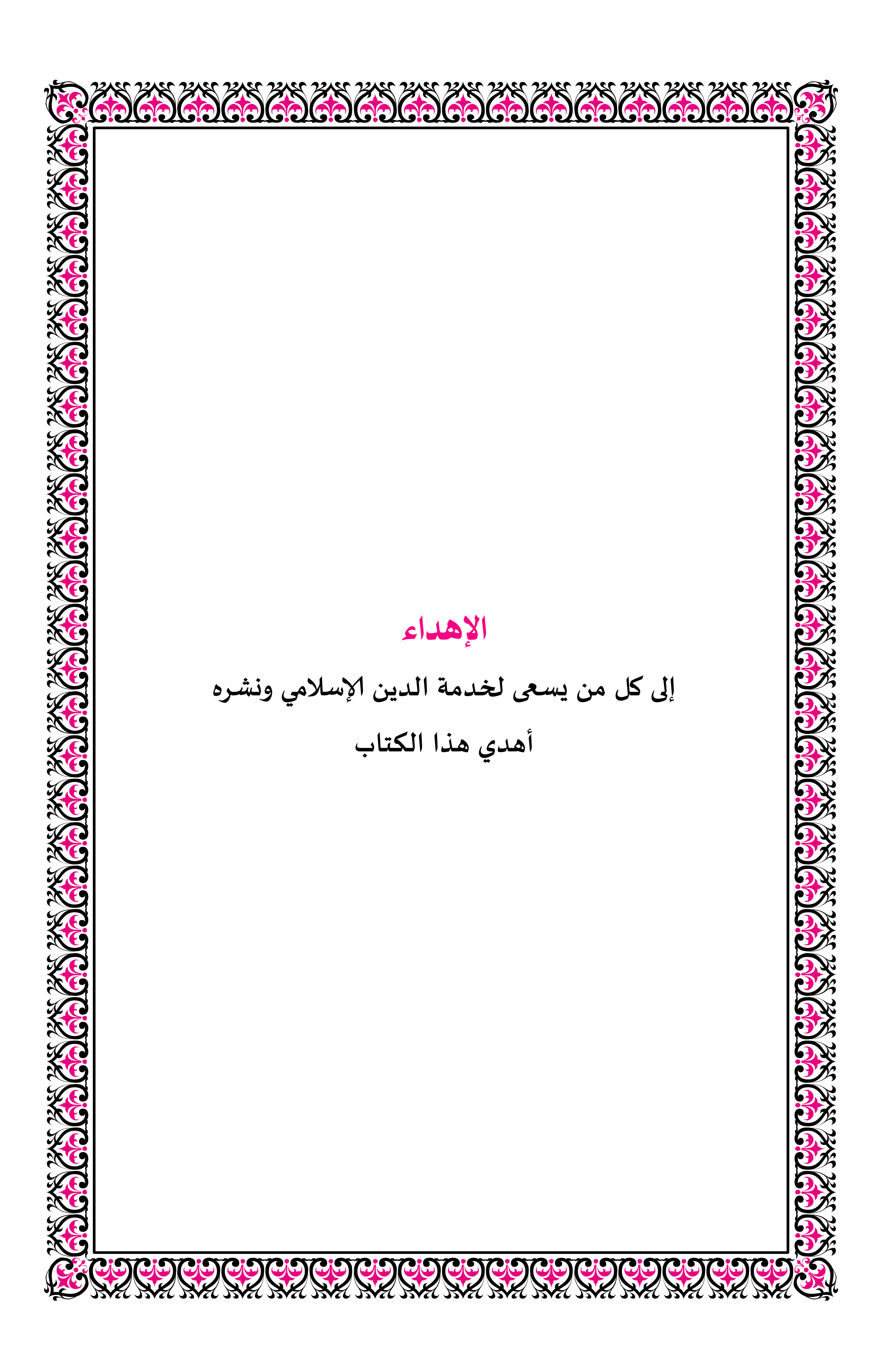
تويتر: honouringallah @



قال تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾

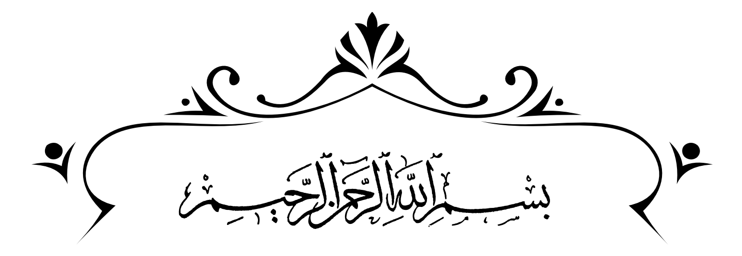
[فصلت: ٥٣]



الإهداء

إلى كل من يسعى لخدمة الدين الإسلامي ونشره

أهدي هذا الكتاب



تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي، والصلاة والسلام علىٰ محمد بن عبدالله وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه... أما بعد.

فربُّ العزة والجلال أنزل علينا خير كتاب وأكمله، ألا وهو القرآن الكريم، فما من خير إلا ودلنا عليه، وما من شر إلا وحذرنا منه، وما من شيء من أمور الدين أو الدنيا أو الآخرة إلا ورد ذكره في القرآن الكريم، إما تفصيلًا وإما أجمالًا، يقول رب العزة والجلال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ويقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩].

ومن نعم الله العظيمة بعد نعمة الإسلام نعمة العقل، والمتدبر للقرآن الكريم والسنة المطهرة يجد أن العقل هو مناط التكليف، وبه تُقام أمور الدنيا والدين، ومن خلاله تتحقق مصالح الدنيا والدين، ولقد ميّز رب العزة والجلال الإنسان عن سائر المخلوقات الأرضية بالعقل، فمن عطّل عقله أصبح أضل من الأنعام كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، ولذلك فإن إعمال العقل في التفكير النافع حياة للإنسان.

والتفكير من العبادات القلبية التي أُمر العباد بتنميتها من خلال النظر في آيات الله

الكونية والشرعية، ومن خلال التفكر في الآفاق والأنفس، قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

وفي الكتاب حاولت أن أُبيّن مفهوم العقل في القرآن الكريم، ومكانه في جسم الإنسان، ومكانته كما ورد في القرآن الكريم.

وقد كان المرجع الأول لهذا الكتاب هو القرآن الكريم وكتب التفسير، مع بعض الكتب القديمة والحديثة والتي تحدثت عن التربية والتفكير، مع كتب أخرىٰ منوعة تخدم الكتاب.

وتتبُّع منهج القرآن في تربية العقل علىٰ التفكير مما تفنىٰ الأعمار فيها قبل أن يستكملها الباحثون، لكون كتاب الله مما لا تنقضي عجائبه، لكنها إشارات تغني عن العبارات، علمًا بأن كل فصل - بل كل مبحث - يمكن أن يكون كتابًا مستقلًا.

فما بقي إلا أن أقدم جهدي وأبذل وسعي، علىٰ قلة البضاعة وضعف الصناعة، مستلهمًا التوفيق والسداد من رب الأرض والسماء، القائل في كتابه العزيز: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾ [الطلاق: ٢]، والقائل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق: ٤]، والقائل: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: ٢٨٢].



فصل تمهيدي

❑ الإطار العام للكتاب:

من الأمور التي ورد ذكرها في القرآن الكريم واهتم بها: موضوع التفكير، هذا الموضوع الذي أهمله بعض المسلمين، دولًا وجماعاتٍ وأفرادًا، فأصبح البعض كالإمعة، يسير حيث سار الناس، لا يفكر إلىٰ أين يسير، ولا يُفكر ماذا يعمل، ولماذا يعمل، وكيف يعمل، بل وصل الحد ببعض المسلمين إلىٰ أن يُسلِّم عقله لغيره ليفكر عنه، أو يفكر بعقل غيره، ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث مبينًا منهج القرآن الكريم في تربية العقل علىٰ التفكير، في محاولة لإثارة هذا الموضوع الذي أغفله بعض المسلمين في هذا الزمن، فعطلوا عقولهم عن التفكير.

❑ أهمية الكتاب:

يتناول الكتاب موضوع «منهج القرآن الكريم في تربية العقل علىٰ التفكير»، وتتبين أهمية هذا الكتاب في أمور عدة منها ما يلي:

١- عناية القرآن الكريم بالتربية عمومًا، وبتربية العقل علىٰ التفكير خصوصًا.

٢- عناية القرآن الكريم بالعقل الذي هو أداة التفكير، ومناط التكليف.

٣- الأهمية الكبرىٰ لموضوع التفكير، والذي أُغفل من البعض في هذا الزمن.

دعوة القرآن الكريم إلىٰ التفكير، واعتباره عبادة يؤجر العبد عليها، حيث جُمعت مع عبادة الذكر في آية واحدة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا

وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١].

٤- أن الإنسان امتاز بالتفكير وتفرد به عن بقية المخلوقات الأرضية.

٥- أن التفكير من نعم الله العظيمة التي وهبها الله تعالىٰ للإنسان ليتعرف عليه ويعظمه ويعبده، وليعمر الأرض ويقيم البناء الحضاري علىٰ هدي القرآن الكريم، والسنة المطهرة.

٦- أن للتفكير أهمية كبرىٰ في حياتنا الخاصة والعامة، الدينية والدنيوية.

٧- أن التفكير السليم المنتج مهارة تكتسب بالتعلم، وعادة يصنعها التدرب، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

٨- الرغبة في تأصيل هذا الموضوع التربوي المهم.

❑ الهدف من الكتاب:

يتمثل الهدف من الكتاب في محاولة الكشف عن منهج القرآن الكريم في تربية العقل علىٰ التفكير بشكل عام.

ويتفرع عن هذا الهدف الرئيس الأهداف الفرعية التالية:

١- بيان عناية القرآن الكريم بالتفكير.

٢- بيان أساليب القرآن في الدعوة إلىٰ التفكير.

٣- بيان الأمور التي حث القرآن الكريم علىٰ التفكير فيها.

٤- بيان الأمور التي نُهي العقل عن التفكير فيها.

٥- بيان عوائق التفكير السليم.

تعريف مفردات عنوان الكتاب:

❑ تعريف القرآن الكريم:

«كلام الله تعالىٰ المعجز، ووحيه المنزل علىٰ رسوله وخاتم أنبيائه محمدٍ ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس»(١).

هذا من أشهر التعاريف للقرآن الكريم، ولي تحفظ علىٰ قولهم «المتعبد بتلاوته»، فربنا جل جلاله لم يتعبدنا بتلاوته فقط، بل تعبدنا كذلك بتدبره وحفظه، والعمل به، وتحكيمه، والاستشفاء به.

وعلىٰ كل حال فما أجمل ما قاله «مناع القطان» عند تعريفه للقرآن الكريم حين قال: «والقرآن الكريم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص، بحيث يكون تعريفه حدًا حقيقيًا، والحد الحقيقي له هو استحضاره معهودًا في الذهن أو مشاهدًا بالحس كأن تشير إليه مكتوبًا في المصحف أو مقروءًا باللسان، فتقول: هو ما بين هاتين الدفتين، أو تقول: هو ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢] إلىٰ قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ٦]»(٢).

❑ تعريف التربية:

«هي إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلىٰ حد التمام»(٣).

«ويمكن تعريف التربية: بأنها نشاطٌ قصدي، يتم عن طريق توجيه أفراد إنسانيين

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ١١).

(٢) مباحث في علوم القرآن (ص).

(٣) المفردات في غريب القرآن (١/ ١٨٤).

لنمو أفراد إنسانيين. فهي وسيلة مدبرة، يقصد بها الكبار من أفراد النوع الإنساني إعداد الناشئة جسميًا وعقليًا ونفسيًا لغرض خاص يجعلونه نصب أعينهم»(١).

«والتربية الإسلامية تسعىٰ لإيجاد الشخصية الكاملة المتوازنة، فلأنها تربيةٌ وسطيةٌ فهي تعنىٰ بتنمية كافة جوانب الإنسان الجسمية والعقلية والخلقية والروحية، إنها تهتم بتنمية ما يهم الإنسان في دنياه وما يعنيه في آخرته»(٢).

❑ تعريف العقل:

«ما يقابل الغريزة التي لا اختيار لها، ومنه الإنسان حيوان عاقل وما يكون به التفكير والاستدلال، وتركيب التصورات والتصديقات، وما به يتميز الحسن من القبيح، والخير من الشر، والحق من الباطل»(٣).

«والعقل هو الحابس عن ذميم القول والفعل»(٤).

❑ تعريف التفكير:

هو «إعمال الإنسان لإمكاناته العقلية في المحصول الثقافي المتوفر لديه، بغية إيجاد بدائل، أو حل مشكلات، أو كشف العلاقات والنسب بين الأشياء»(٥). والتفكير عملية تجري داخل الإنسان، لا ترىٰ بالعين المجردة، ولا يمكن ملاحظتها بصورة مباشرة.

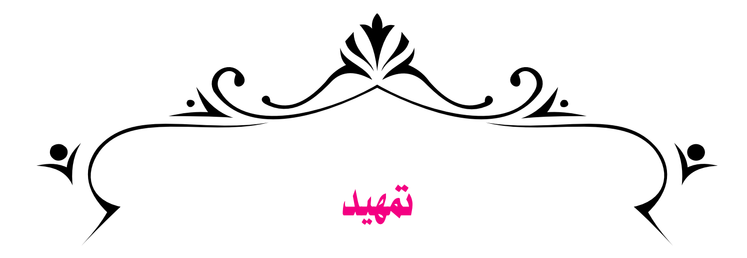
---

(١) فلسفة التربية واتجاهاتها - د/ مسلم محمد أحمد سوار - ص ٢٧.
(٢) فلسفة التربية واتجاهاتها - د/ مسلم محمد أحمد سوار - ص ٣٠٨.
(٣) المعجم الوسيط (٢/ ٦١٧).
(٤) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٦٩).
(٥) مجلة البيان - العدد ٩٦ - ص ٨٨.

الفصل الأول
التربية والتفكير في القرآن الكريم

وفيه أربعة مباحث:

- **المبحث الأول**: التربية في القرآن الكريم.
- **المبحث الثاني**: العقل في القرآن الكريم.
- **المبحث الثالث**: مكان العقل من جسم الإنسان.
- **المبحث الرابع**: حث القرآن الكريم العقل علىٰ التفكير.



تمهيد

المتأمل في كتاب الله يجد العناية التامة بالتربية المتكاملة من جميع جوانبها، الروحية والعقلية والبدنية، ومن جوانب التربية العقلية العناية بتربية العقل علىٰ التفكير، كما بين القرآن عناية الإسلام بالعقل، وبين مكانته ومكانه من جسم الإنسان، وفي هذا الفصل:

- بيان لمكانة التربية في القرآن الكريم.
- ومكانة العقل في القرآن.
- ومكان العقل من جسم الإنسان.
- وحث القرآن للعقل علىٰ التفكير.



المبحث الأول
التربية في القرآن الكريم

التربية في القرآن الكريم تربية شاملة متكاملة؛ لأنها مستمدة من الوحي، الذي نزل به جبريل عليه السلام من عند الله، علىٰ نبينا محمد ﷺ، والمتتبع لنصوص القرآن الكريم يجد عنايةً كبيرةً بالتربية الشاملة المتكاملة الروحية والعقلية والبدنية، وفي القرآن الكريم ترد كلمة التزكية، ومن معاني التزكية: التربية.

❑ أمور تُبيّن عناية القرآن الكريم بالتربية:

١- أن من أهداف بعثة النبي محمد ﷺ التربية، وفي هذا بيان لعلو منزلة التربية في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، والمراد بالتزكية التربية بمفهومها الشامل.

يقول السعدي في تفسيره: «معنىٰ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بالتربية علىٰ الأعمال الصالحة والتبري من الأعمال الردية التي لا تزكو النفوس معها»[(١)].

٢- أن الله تعالىٰ أقسم في القرآن الكريم بأن صلاح العبد وفلاحه منوط بتربية نفسه، فقال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن

(١) تفسير السعدي (١/ ٦٦).

تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤ – ١٥].

٣- أن الأنبياء عليهم السلام يدعون إلىٰ تربية النفوس، كما قال موسىٰ عليه السلام لفرعون في قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٥ – ١٩].

٤- أن تربية النفوس سبب للفوز بالدرجات العلىٰ في الجنة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٥ – ٧٦][١].

❑ أساليب القرآن الكريم في التربية:

يستخدم القرآن الكريم في التربية أساليب عدة منها:

١- **التربية بالقدوة:** والقدوة هو الّذي يَعمل غيرُه مثل عمله[٢]، ولذلك نجد القرآن الكريم يحث نبينا محمد ﷺ ومن معه من أمته، علىٰ الاقتداء برسل الله وأنبيائه عليهم أفضل الصلاة والتسليم، كما قال تعالىٰ بعد أن ذكر جملة من الرسل والأنبياء، ومن أضيف إليهم من الآباء والذرية ومن شابههم في أفعالهم وأقوالهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٩٠].

«فبالعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا، وبالهدىٰ الذي هديناهم، والتوفيق الذي وفقناهم، اقتده يا محمد، أي فاعمل وخذ به واسلكه، فإنه عمل لله فيه رضا ومنهاج من سلكه اهتدىٰ»[٣].

---

(١) معالم في السلوك وتزكية النفوس، المؤلف د/ عبد العزيز العبد اللطيف، ص ٥٦ – ٥٧ بتصرف.

(٢) تفسير التحرير والتنوير (٧/ ٣٥٦).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٢٦٥).

وقال تعالىٰ: في الحث علىٰ الاقتداء بالنبي ﷺ خاصة: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]، «أي قدوة صالحة»(١).

ومن الآيات التي تأمر بالاقتداء بالنبي ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وكما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالىٰ حاثًا علىٰ الاقتداء برسول الله إبراهيم عليه السلام، ومن معه من المؤمنين في موالاة المؤمنين والبراءة من المشركين: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٤].

ومما يبين أهمية القدوة قول عمرو بن عُتبة لمعلّم ولده: «ليكن أوَّل إصلاحِك لولدي إصلاحُك لنفسك، فإنّ عيونهم معقودةٌ بعينك، فالحَسنُ عندهم ما صَنعْت، والقبيح عندهم ما تركت»(٢).

٢- **التربية بالترغيب وبالترهيب:** و«الترغيب هو إغراء وتحبيب الإنسان القيام بأعمال يجني من ورائها الخير الكثير... والترهيب هو وعيد وتهديد الإنسان بالعقوبة من الوقوع بالأعمال المحرمة والمكروهة المشينة»(٣).

---

(١) فتح القدير (٤/ ٢٧٠).

(٢) العقد الفريد (٢/ ٢٥٥)، المؤلف: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي.

(٣) أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، ص ٧٢، المؤلف: عبد الرحمن البابطين.

ولذلك نجد أن نصوص القرآن الكريم تأتي أحيانًا بالترغيب مقرونًا مع الترهيب، وأحيانًا يأتي الترغيب منفردًا عن الترهيب والعكس كذلك، ومن الأمثلة علىٰ ورود الترغيب مع الترهيب قوله تعالىٰ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٩٨]، ففي هذه الآية بيان أن الله شديد العقاب لمن انتهك حرماته وتجاوز حدوده، وهذا من باب الترهيب، وأنه - سبحانه - واسع المغفرة والرحمة لمن أطاعه وتاب إليه توبة صادقة وهذا من باب الترغيب.

وجمع ﷻ بين الترهيب والترغيب، حتىٰ يكون المؤمن بين الرجاء والخوف، فلا يقنط من رحمة الله ولا يجترئ علىٰ ارتكاب ما يغضبه - سبحانه -.

«ليكن هذان العلمان موجودين في قلوبكم، علىٰ وجه الجزم واليقين: تعلمون أن الله شديد العقاب العاجل والآجل علىٰ من عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه. فيثمر لكم هذا العلم، الخوف من عقابه، والرجاء لمغفرته وثوابه، وتعملون علىٰ ما يقتضيه الخوف والرجاء»(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ [غافر: ٣]، و«جمع جل وعلا في هذه الآية الكريمة، بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين، هما جلب النفع ودفع الضر، وهذا المعنىٰ الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالىٰ: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله تعالىٰ في

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٢٤٥).

آخر الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٦٥﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقوله في الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧﴾ [الأعراف: ١٦٧][1].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: ٢٠].

«فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائمًا بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلىٰ رحمة ربه ومغفرته، وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلىٰ ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها»[2].

٣- **التربية بالقصة**: وأحسن القصص هي القصص القرآنية كما قال تعالىٰ: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ [يوسف: ٣].

«وللقصص والأبحاث التاريخية أهميةٌ كبرىٰ في المجال التربوي، ولكن الشأن ليس في إيراد القصة كيفما اتفق، وإنما الشأن في معرفة الطريقة التربوية التي يجب أن يتم نسيج القصة علىٰ أساسها، وللقرآن منهج دقيق في ذلك يمكن أن يلخّص فيما يلي:

- **أولًا**: لا يسوق القرآن من القصة إلا ما يتعلق بالغرض الذي سيقت القصة من أجله، كي تظل الصلة متينة بينها وبين المناسبة الداعية إلىٰ ذكرها، بحيث تبعث القصة فيها الأهمية وتمدها بالحركة والحياة.

---

(١) أضواء البيان (٦/ ٣٧٢).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٤٣٢).

- **ثانيًا:** «إقحام النصائح والعظات في ثنايا القصة»(١).

ولقد وردت قصص كثيرة في القرآن الكريم، وجاءت سورة كاملة باسم سورة القصص، والقصص محببة للنفوس البشرية، فالكل يرغبها، الصغير والكبير، والذكر والأنثىٰ، وكم للقصة من أثر في نفوس أصحاب العقول كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]، ولذلك من يحسن استخدامها يؤثر علىٰ من يريد التأثير عليه، ولذلك فمن أساليب التربية استخدام القصة، ولقد ورد في القرآن الكريم قصص كثيرة غالبها للرسل والأنبياء، إضافة إلىٰ قصص أخرىٰ، حتىٰ بلغت ثلث القرآن الكريم تقريبًا، ومن أكثر القصص ورودًا قصة موسىٰ عليه السلام مع فرعون وقومه، ولقد وردت في سور متعددة، كما وردت قصة يوسف عليه السلام كاملة في سورة واحدة.

٤- التربية بالموعظة الحسنة: والموعظة الحسنة هي «الخطابات المقنعة، والعبارات النافعة»(٢). والوعظ: «الأمر بفعل الخير وترك الشرّ، بطريقة فيها تخويف وترقيق يحملان علىٰ الامتثال»(٣).

والموعظة الحسنة تدخل إلىٰ القلوب برفق، وتؤثر في المشاعر بلطف، بدون زجر أو عتاب في غير في غير محله، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهلٍ أو حسن نية؛ لأن الرفق في الموعظة كثيرًا ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخيرٍ من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

---

(١) منهج تربوي فريد في القرآن، د/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص ٥١ - ٥٤.

(٢) روح المعاني (١٤/ ٢٥٤).

(٣) تفسير التحرير والتنوير(٥/ ١٠٨).

وقد وردت آياتٌ قرآنيةٌ تبين أهمية الموعظة الحسنة في التربية، والقرآن مليءٌ بالمواعظ والتوجيهات الكريمة، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: ١٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل: ٩٠].

«ولأسلوب الموعظة الحسنة نتائج تربويةٌ كثيرةٌ، تساعد علىٰ تهيئة وإعداد الإنسان المسلم الصالح، الذي يعتبر أساس المجتمع المسلم والأمة الإسلامية»[(١)].

٥- **التربية بضرب الأمثال**: وهذا الأسلوب من الأساليب المهمة، والفاعلة والمؤثرة في التربية.

وضرب الأمثال أوقع في النفوس، وأبلغ في الوعظ، وأقوىٰ في الزجر، وأقوم في الإقناع، وتقريب الأشياء إلىٰ فهم ومعرفة الإنسان، فهي تساعد علىٰ فهم الأشياء غير المحسوسة بمقارنتها بالأشياء المحسوسة والمعروفة، ولها أثر في أخذ العظة والعبرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣]، فأصحاب العقول المفكرة تستفيد من ضرب الأمثال، فتُعدّل سلوكًا سلبيًا، أو تبني سلوكًا إيجابيًا، أو توجد قناعةً، أو تغير مسارًا، كما أن القرآن الكريم يحث علىٰ التفكير في الأمثال، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: ٢١].

---

(١) أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، ص ٢٦.

«ويستخدم ضرب الأمثال في تقريب المعنىٰ لعقل السامع، لكي يستطيع فهم المراد من ذلك المثل... ويستخدم أسلوب ضرب الأمثال لإثارة رغبة الإنسان، وحثه علىٰ عمل من الأعمال التي يثاب بفعلها»[١].

(١) أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، ص ٥٤.



المبحث الثاني
العقل في القرآن الكريم

«العقل هو أشرف ما في الإنسان، وهو موضع الحكمة، ومعدن العلم، ومنهل التدبير، ومناط الأمر والنهي، والحركة والتحكم.

وهو الذي يقود الجسم، ويضبط الجوارح، ويمده بالإحساس والحيوية، ويعينه علىٰ التمييز بين النفع والضرر، والتفريق بين الحسن والخبيث، وإدراك ما لا يدرك بالبصر، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك: ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

والعقل - علىٰ لطافته من حيث الخَلق - أقوىٰ قوة علىٰ سطح الأرض، وأنفع قوة، وأخطر قوة، ولا قيمة للإنسان إلا برجاحة عقله؛ لأنه الميزان الحساس الذي يفرق بين الخير والشر، ويختار لصاحبه الأحسن من كل شيء والأفضل من كل خُلق»(١).

أما العقل الذي يفكّر ويستخلص من تفكيره زبدة الرأي والرويّة، فالقرآن الكريم يعبر عنه بكلمات متعددة، تشترك في المعنىٰ أحيانًا وينفرد بعضها بمعناه، علىٰ حسب السياق في أحيان أخرىٰ، فهو الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر

---

(١) أحمد عطية السعودي، الاستلهام الإبداعي، مجلة البيان، عدد ١٤٢، أكتوبر ١٩٩٩، ص ١١٠.

والعلم، وسائر هذه الملكات الذهنية التي تتفق أحيانًا في المدلول، ولكنها لا تستفاد من كلمة واحدة تغني عن سائر الكلمات الأخرىٰ.

«ووردت تعاريف كثيرة للعقل، لكن البحث في أفعال العقل وثمراته أهم من البحث في معناه، أو في حقيقته وكنهه، فإن البحث في ذلك مما تتعذر معه المنفعة»[(١)].

وممن أشار إلىٰ اختلاف الناس في تعريف العقل وبيان حقيقته وكنهه ابن الجوزي في كتابه الأذكياء حيث قال: «اعلم أن التحقيق في هذا أن يقال هنا الاسم - أعني العقل - **يطلق بالاشتراك علىٰ أربعة معان:**

الأول: الوصف الذي يفارق به الإنسان البهائم، وهو الذي استعد لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذي أراده من قال غريزة، وكأنه نور يقذف في القلب يستعد به لإدراك الأشياء.

الثاني: ما وضع في الطباع من العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب تسمىٰ عقلًا.

الرابع: أن منتهىٰ قوته الغريزية إلىٰ أن نقمع الشهوة الداعية إلىٰ اللذة العاجلة، والناس يتفاوتون في هذه الأحوال إلا في القسم الثاني الذي هو العلم الضروري»[(٢)].

❑ الألفاظ المرادفة للعقل في القرآن الكريم:

وردت في القرآن الكريم ألفاظ مرادفة للعقل في عدة مواضع في كتاب الله منها:

١- «**الألباب**»: ورد ذكرها في القرآن الكريم ست عشرة مرة، منها قوله تعالىٰ:

---

(١) منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، د/ خليل بن عبدالله الحدري، ص ٣٩، رسالة دكتوراه غير غير منشورة، جامعة أم القرىٰ، كلية التربية، ١٤٢٢هـ.

(٢) الأذكياء (١/ ١٠ - ١١)، المؤلف: بن الجوزي.

﴿۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ [الرعد: ١٩]، وذكر أهل التفسير أن المراد باللب هنا العقل، وممن ذكر ذلك الطبري في تفسيره عندما قال: «إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذوو العقول وهي الألباب واحدها لب»[١].

وقال ابن كثير في تفسيره: «أي إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة جعلنا الله منهم»[٢].

٢- «**الحِجْر**»: وقد ورد ذكره في القرآن الكريم بمعنىٰ العقل مرة واحدة، كما في قوله تعالىٰ ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥﴾ [الفجر: ٥]، قال الطبري في تفسيره: «فأما معنىٰ قوله: «لذي حجر» فإنه لذي حجىٰ وذي عقل»[٣]، وقال البغوي في تفسيره: «لذي حجر: لذي عقل، سمي بذلك لأنه يحجر صاحبه عما لا يحل ولا ينبغي، كما يسمىٰ عقلًا لأنه يعقله عن القبائح، ونهىٰ لأنه ينهىٰ عما لا ينبغي، وأصل الحِجْر المنع»[٤].

وقال الشوكاني في تفسيره: «لذي حجر: أي عقل ولب، فمن كان ذا عقل ولب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به، ومثل هذا قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة: ٧٦] قال الحسن: لذي حِجْر أي لذي حلم. وقال أبو مالك: لذي ستر من الناس. وقال الجمهور الحِجْر: العقل. قال الفراء: الكل يرجع إلىٰ معنىٰ واحد لذي عقل ولذي حلم ولذي ستر الكل بمعنىٰ العقل»[٥].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ١٣٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥١٠).
(٣) تفسير الطبري (٣٠/ ١٧٣).
(٤) تفسير البغوي (٤/ ٤٨٢).
(٥) فتح القدير (٥/ ٤٣٤).

٣- «**النُّهىٰ**»: وقد ورد ذكرها في موضعين اثنين في القرآن الكريم، في سورة طه، في قوله تعالىٰ: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤﴾ [طه: ٥٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٨﴾ [طه: ١٢٨]. قال الطبري في تفسيره: «أولي النُّهىٰ: يعني أهل الحجىٰ والعقول»[١].

٤- «**الأحلام**»: وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم بمعنىٰ العقول مرة واحدة، في قوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٣٢﴾ [الطور: ٣٢]. قال ابن الجوزي في تفسيره: قوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ [الطور: ٣٢]، «قال المفسرون: كانت عظماء قريش توصف بالأحلام، وهي العقول فأزرىٰ الله بحلومهم، إذ لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل، وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهىٰ، وذلك علىٰ ما قال الجاحظ: لأن جميع العالم يأتونهم ويخالطونهم وبذلك يكمل العقل، وهو يكمل بالمسافرة وزيادة رؤية البلاد المختلفة والأماكن المتباينة، ومصاحبة ذوي الأخلاق المتفاوتة، وقد حصل لهم الغرض بدون مشقة»[٢]. «والعقل هو الداعي إلىٰ الحلم فسماه باسمه»[٣].

وفي التفسير الكبير في تعريف الأحلام: «جمع حلم وهو العقل، وهما من باب واحد من حيث المعنىٰ؛ لأن العقل يضبط المرء فيكون كالبعير المعقول لا يتحرك من مكانه... وهو أيضًا سبب وقار المرء وثباته. وفيه معنىٰ لطيف وهو أن الحلم في

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ١٧٥).

(٢) زاد المسير في علم التفسير (٨/ ٥٤).

(٣) تفسير السمعاني (٥/ ٢٧٧).

أصل اللغة: هو ما يراه النائم فيُنزِلُ ويلزمه الغُسْل، وهو سبب البلوغ، وعنده يصير الإنسان مكلفًا، وكأن الله تعالىٰ من لطيف حكمته قرن الشهوة بالعقل، وعند ظهور الشهوة كمُل العقل، فأشار إلىٰ العقل بالإشارة إلىٰ ما يقارنه وهو الحلم، ليعلم أنه نذير كمال العقل، لا العقل الذي به يحترز الإنسان تَخَطِّي الشرك ودخول النار، وعلىٰ هذا ففيه تأكيدٌ لما ذكرنا، أن الإنسان لا ينبغي أن يقول كل معقول، بل لا يقول إلا ما يأمر به العقل الرزين الذي يصحح التكليف»(١).

٥- «**الأبصار**»: وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم بمعنىٰ العقول أربع مرات، منها قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝١٣﴾ [آل عمران: ١٣]. قال الرازي: «لأولي الأبصار» لذوي العقول(٢). وقال السعدي في تفسيره: «عبرة لأولىٰ الأبصار: أي أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة»(٣). وقوله تعالىٰ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٤﴾ [النور: ٤٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥﴾ [ص: ٤٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢].

---

(١) التفسير الكبير (٢٨/ ٢٢١).

(٢) التفسير الكبير (٧/ ١٦٨).

(٣) تفسير السعدي (١/ ١٢٣).

❑ تعريف العقل:

يمكن أن نضع تعريفًا للعقل يجمع معاني عدة فيكون تعريف العقل هو: غريزة خلقها الله سبحانه في الإنسان علىٰ صورة لا يمكن إدراك حقيقتها، مرتبطة بالقلب والدماغ والروح، ميز الله بها الإنسان عن سائر المخلوقات، يفرق بها بين الممكن والمحال، وبين النافع والضار، ويدرك بها عواقب الأمور، وأحوال الأشياء، له طاقات محدودة، يمكن لهذا العقل أن يُنمَّىٰ ويدرَّب، يقوم بوظائف فطرية ومكتسبة، وهو مناط التكليف في نظر الإسلام.

«والقرآن الكريم يدعو إلىٰ إعمال العقل في آيات الله الكونية والقرآنية، ويؤكد علىٰ فحص المعتقدات، والنظر في الدعاوىٰ الضالة، وعواقب الأمور، وذم المعطلين لعقولهم، وتبكيت من يقعون فيما يشين من الأقوال والأعمال»(١).

فالعقل نعمة عظيمة من نعم الله قلّ من يعرف فضلها، خاصة في هذا الزمن، والإسلام دين يحترم العقل، والمتتبع للنصوص الواردة في القرآن والسنة يلاحظ عناية الإسلام بالعقل، فله منزلة رفيعة لا توازيها مرتبة، ويتبين ذلك في كون الدين الإسلامي جُعل القيام به منوطًا بوجود العقل، فإذا فقد العقل رفع عن العبد قلم التكليف، فلا ثواب ولا عقاب علىٰ المجنون، كما روت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتىٰ يستيقظ وعن المبتلىٰ حتىٰ يبرأ وعن الصبي حتىٰ يكبر**»(٢)، وفي بعض الروايات «**عن المجنون حتىٰ يعقل**»،

---

(١) منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، د/ خليل بن عبدالله الحدري ص ١٠٨.

(٢) صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨٣١).

«فمورد التكليف هو العقل، وذلك ثابت قطعًا بالاستقراء التام، حتىٰ إذا فُقِد ارتفع التكليف رأسًا، وعُدَّ فاقدُه كالبهيمة المهملة»(١).

ولقد بلغت عناية القرآن الكريم بالعقل إلىٰ درجة كبيرة، ويتبين ذلك لمن يتدبر كتاب الله، فلا تجد سورةً إلا وفيها آياتٌ تدعو للتفكير بصيغ متعددة، فمن دعوةٍ إلىٰ التفكير مباشرةً، أو دعوةٍ للنظر والتأمل والتدبر والتذكر، وفي هذه الدعوات دعوةٌ إلىٰ التفكير بطريقة غير مباشرة، وكل هذا يؤكد «النهج القرآني الفريد في الاقتناع العقلي للإيمان، كل هذا يؤكد ما للعقل من منزلة في الإسلام»(٢).

وفي تفسير القرطبي كلام يبين منزلة العقل ومكانته من الدين، حيث يقول مؤلفه: «فإن العقل لكل فضيلة أس، ولكل أدب ينبوع، وهو الذي جعله الله للدين أصلًا، وللدنيا عمادًا فأوجب الله التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرةً بأحكامه، والعاقل أقرب إلىٰ ربه تعالىٰ من جميع المجتهدين بغير عقل»(٣).

والمؤمن العاقل أشد علىٰ الشيطان من غير العاقل، وفي هذا يقول وهب بن منبه: «إني وجدت في بعض ما أنزل الله علىٰ أنبيائه أن الشيطان لم يكابد شيئًا أشد عليه من مؤمن عاقل، وأنه يكابد مائة جاهل فيستجرهم حتىٰ يركب رقابهم، فينقادون له حيث شاء ويكابد المؤمن العاقل فيصعب عليه حتىٰ ما ينال منه شيئًا من حاجته»(٤).

ويقول ابن الجوزي مبينًا مكانة العقل: «والعقل هو الذي دلّ علىٰ الإله وأمر

---

(١) الموافقات في أصول الفقه (٣/ ٢٧).
(٢) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، د/ فهد الرومي (٢/ ٧٠٩).
(٣) تفسير القرطبي (٥/ ٢٦١).
(٤) ذم الهوىٰ (١/ ٩).

بطاعته وامتثال أمره، وثبّت معجزات الرسل وأمر بطاعتهم، وتلمّح العواقب فاعتبرها فراقبها وعمل بمقتضىٰ مصالحها، وقاوم الهوىٰ فرد غربه، وأدرك الأمور الغامضة، ودُبّر علىٰ استخدام المخلوقات فاستخدمها، وحث علىٰ الفضائل ونهىٰ عن الرذائل، وشد أسر الحزم، وقوىٰ أزر العزم، واستجلب ما يزين ونفىٰ ما يشين، فإذا ترك وسلطانه أسر فضول الهوىٰ فحصرها في حبس المنع وكفىٰ بهذه الأوصاف فضيلة»(١).

«وليس ثمة عقيدة تقوم علىٰ احترام العقل الإنساني وتعتمد عليه في ترسيخها كالعقيدة الإسلامية، وليس هناك من كتاب أطلق سراح العقل وأعلىٰ من قيمته وكرامته كالقرآن الكريم: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾(٢).

وعن الماوردي أنه قال: «اعلم أَنَّ لكل فضيلةٍ أُسًّا ولكلِّ أَدَبٍ يَنبوعًا، وَأُسُّ الفضائل وينبوع الآدَابِ هو العقل، الذي جعله الله تعالىٰ للدِّين أَصلًا وللدُّنْيَا عمادًا، فأَوجب الدِّينَ بكماله وجعل الدُّنْيَا مُدَبَّرَةً بأَحكامه، وَأَلَّفَ بِهِ بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم، وتباين أَغراضهم ومقاصدهم، وجعل ما تَعَبَّدَهُمْ بِهِ قسمين: قسمًا وجب بالعقل فَوَكَّدَهُ الشَّرْعُ، وقسمًا جاز في العقل فأَوجبه الشرع فكان العقل لهما عِمَادًا»(٣).

ونجد في القرآن الكريم آياتٍ تدل علىٰ أن الإنسان إذا لم يستخدم عقله كما ينبغي يكون أضل من الحيوان، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤].

---

(١) ذم الهوىٰ (١/ ١٠).

(٢) مجلة البيان، العدد ١٣٨، ص ١٠٠.

(٣) أدب الدنيا والدين (١ / ٣).

❑ أهمية العقل ومنزلته في الإسلام:

«كفىٰ بالعقل منزلة عند الله معرفة الأمور الثلاثة الآتية:

الأمر الأول: أنه مناط التكليف، وأن غير العاقل لا ينال شرف التكليف من الله تعالىٰ، ذلك أن التكليف لا يكون إلا لمن أمكنه علم الحق والعمل به ومعرفة الباطل وتركه، وهذا لا يمكن إلا من أهل العقول.

ولهذا تجد علماء الإسلام يذكرون في كتبهم - أصولًا كانت أو فروعًا - أن من أهم شروط التكليف: العقل، فلا يكلف غير العاقل.

الأمر الثاني: أن العقل هو إحدىٰ الضرورات الخمس التي لا تكون الحياة في الأرض مستقرةً ولا قائمةً بدون حفظها. وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

الأمر الثالث: أن الله تعالىٰ أرسل رسله وأنزل كتبه لإبلاغ الناس دينه الحق، مبينًا لهم بحججه وبراهينه أن ذلك الدين حق وأن ما خالفه باطل، ملجئًا تلك العقول بتلك الحجج والبراهين إلىٰ التسليم الاختياري، بأن دين الله حق وأنه الهدىٰ والرشاد، وأنه جالب لمصالحهم في الدارين، واقٍ لهم من المفاسد فيهما»(١).

وعن أبي العلاء قال: «ما أعطي عبد بعد الإسلام أفضل من عقل صالح يرزقه»(٢).

ولكل شيءٍ دعامة، ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته، وقبوله للحق وتصرفاته عمومًا، يقول ربنا جل جلاه عن الفجار في النار: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ [الملك: ١٠].

---

(١) السباق إلىٰ العقول (١/ ٤٣).

(٢) الأدب لابن أبي شيبة (١/ ٣٦٢).

«والعقل منبع العلم، ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرىٰ الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟»[(١)]. «وبالعقل صار الإنسان خليفة الله في الأرض، وبه تقرب إليه، وبه تم دينه. ورَوَىٰ الضَّحَّاكُ فِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]، أَيْ مَنْ كَانَ عَاقِلًا»[(٢)].

وبالعقل عُرِف الْحَلال والْحَرام، وعُرِفَت شَرائع الإسلام ومَواقع الأحكام، وجَعَله الله نُورًا في قُلوب عِبَاده، يَهْديهم إلىٰ هُدىً ويَصُدُّهم عن رَدىٰ.

«ومِن جَلالة قَدْر العَقْل أنَّ اللهّ تعالىٰ لم يُخاطب إلا ذَوي العُقول فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾ [الرعد: ١٩]. وقال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]. أي عاقلًا، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧] أي لمن كان له عَقل»[(٣)].

ومن الأمور التي تبين مكانة العقل في الإسلام أن الإسلام جعل دية العقل كدية النفس المسلمة المعصومة حين تقتل قال ابن قدامة: «وفي ذهاب العقل الدية لا نعلم في هذا خلافًا، وقد روي عن عمر وزيد ، وإليه ذهب من بلغنا قوله من الفقهاء، وفي كتاب النبي ﷺ لعمرو بن حزم: «**وفي العقل الدية**»، ولأنه أكبر المعاني قدرًا وأعظم الحواس نفعًا، فإن به يتميز من البهيمة، ويعرف به حقائق المعلومات، ويهتدي إلىٰ مصالحه، ويتقي ما يضره، ويدخل به في التكليف، وهو شرط في ثبوت الولايات وصحة التصرفات، وأداء العبادات، فكان بإيجاب الدية أحق من بقية الحواس»[(٤)].

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٨٩).

(٢) أدب الدنيا والدين (١/ ٤).

(٣) العقد الفريد (١/ ١٧٠).

(٤) المغني لابن قدامة (٨/ ٣٦٣).

ولقد جاء القرآن الكريم بأسلوب بديع ضرب في الروعة منتهاها، حيث تميز بخطابه للعقل والوجدان في آن واحد، يستثير خلجات النفس، ودقائق المشاعر، معتمدًا علىٰ الحجج البالغة، والبراهين الدامغة.

«ورب العزة والجلال أنزل القرآن كتاب هداية للناس، وفرقانًا بين الحق والباطل، وشريعةً يعيش الناس في ظلها أمنًا وعدلًا.

وليس القرآن كتاب تاريخ أو جغرافيا أو علوم طبيعية، ولكنه رسم للعقول دروبًا تسدد التفكير، وأوجد المناخ العلمي كي ينتفع الناس بما سخر الله لهم في الأرض، ويستنبطوا من العلوم ما ينفعهم ولا يضرهم»(١).

والقرآن الكريم اهتم بإصلاح التفكير، وذلك عن طريق استدعاء العقول للنظر والعلم والاعتبار والتدبر والتذكر والاستبصار.

ومن الأمور التي تبين أهمية العقل في القرآن الكريم: أنه يخاطب الإنسان كثيرًا ويدعوه إلىٰ التفكر والتدبر، والتذكر والتأمل والتعقل، والنظر والادّكار والاعتبار والاستبصار، وكل هذه الأمور مرتبطة بالعقل.

«والعقل هبةٌ من الله ينميها التفكير، ويغذيها العلم، ويرقيها استخدامها فيما خلقت له، لتهدي إلىٰ الحق والخير، ولتدفع إلىٰ الإقرار بوحدانية الله وقدرته وحكمته، ولتمكن للناس أن ينتفعوا بما خلق الله في الأرض والسماء، ولتكفل لهم حياةً أرقىٰ وأسعد وأرغد»(٢).

---

(١) بعض أسس التفكير كما جاءت في القرآن الكريم، د/ محمد العبدة، ص ٣.

(٢) القرآن والتفكير، أحمد بن محمد الحوفي، ص ١٠.

❑ أسس التربية العقلية:

تقوم التربية العقلية علىٰ أسس هي:

١- تحرير العقل من سائر القيود والأغلال.

٢- إثارة الحواس والوجدان لأنها أبواب الفكر.

٣- التزود من العلوم المختلفة التي تزكي العقل وترفع مستواه(١).

وتربية العقل تتأثر بتربية الروح وتربية الجسم؛ لأن الكائن الحي الإنساني وحدة مترابطة ممتزجة الأجزاء، لا ينفصل منه جسم عن عقل أو عن روح(٢).

❑ موجهات التربية العقلية:

للتربية العقلية موجهات منها:

١- التفكير السليم.

٢- القدرة علىٰ النظر والتأمل.

٣- الحكم علىٰ الأشياء حكمًا قوامه الصدق والعدل.

٤- فهم البيئة المحيطة به.

٥- الإفادة من تجاربه وتجارب الآخرين(٣).

❑ مكانة العقل من الوحي:

مع مكانة العقل في الإسلام إلا أن هناك طوائف من المسلمين مجدوا العقل، وقدموه علىٰ الوحي وجعلوه حاكمًا عليه، فصار العقل عندهم هو الأصل والوحي تبع، فما وافق العقل من الوحي قبل، وما خالفه رد.

---

(١) التربية في كتاب الله، محمود عبدالوهاب فايد، ص ٨.

(٢) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ص ٨٩.

(٣) دعوة الإسلام، سيد سابق، ص ٥١.

والعقل البشري لا يتعارض مع شريعة الله - فضلًا علىٰ أن يكون الحاكم عليها - لأنه لا يدرك إلا إدراكًا ناقصًا محدودًا؛ ويستحيل أن ينظر من جميع الزوايا وإلىٰ جميع المصالح - لا في اللحظة الواحدة ولا في التاريخ كله - بينما شريعة الله تنظر هذه النظرة؛ فلا ينبغي أن يكون الحكم فيها، أو في حكم ثابت قطعي من أحكامها، موكولًا إلىٰ الإدراك البشري، وأقصىٰ ما يتطلب من الإدراك البشري أن يتحرىٰ إدراك دلالة النص وانطباقه؛ لا أن يتحرىٰ المصلحة أو عدم المصلحة فيه! فالمصلحة متحققة أصلًا بوجود النص مِن قِبل الله تعالىٰ.. إنما يكون هذا فيما لا نص فيه، مما يجدّ من الأقضية.

و«في العصر الحديث ظهرت طوائف سارت علىٰ خُطىٰ المدرسة العقلية الاعتزالية، تحسِّن ما تشاء، وترد من أحاديث المصطفىٰ ما تشاء، لتساير الحضارة الغربية، في زعمها مدرسة عصرية عقلية، بل مدرسة انهزامية أمام حضارة التيه والضياع، تريد التفلت من تراثنا وسنة نبينا، لتتبع الناعقين من اليهود والنصارىٰ ولو دخلوا جحر ضب لدخلوه»(١).

و«الإسلام يعطي العقل مكانه اللائق به بلا إفراطٍ ولا تفريط؛ فالرؤية الإسلامية لا تغالي في تقدير قيمة العقل فتقحمه فيما ليس من شؤونه، أو تجعله المرجع الأخير لكل شيء حتىٰ الوحي الرباني، ولا هي تبخسه قدره فتمنعه من مزاولة نشاطه في ميادينه الطبيعية التي يصلح لها ويحسن العمل فيها»(٢).

---

(١) مجلة البيان، العدد ٩، ص ٦٠.

(٢) مجلة البيان، العدد ١٢٢، ص ١٠٩.

«فإذا تعارض النقل وهذه العقول، أخذ بالنقل الصريح ورمي بهذه العقول تحت الأقدام وحطت حيث حطها الله وحط أصحابها»(١).

و«غلط البعض إذ قدموا العقل علىٰ الوحي، والعقل من غير وحي يضل ويشقىٰ، وغلط البعض إذ اقتصروا علىٰ الوحي وألغوا دور العقل.. ونسوا أنه مناط التكليف، وبه [في دائرة الوحي] الاجتهاد والاستنباط، ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء: ٨٣]، وبالعقل يكون الاتباع الرشيد للوحي المجيد ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: ١٢٣](٢).

و«كثير مِنَ المتكلمة يجعلون العقل وحده أَصْلَ علمهم، ويفردونه، ويجعلون الإيمان والقرْآن تابعين لَهُ. والمعقولات عندهم هي الأصول الكلّية الأولية المستغنية بنفسها عن الإيمان والقرآن... وكثير من المتصوفة يذمون العقل ويعيبونه... وكلا الطَّرفينِ مذموم، بل العقل شرط فِي معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأَعمال، وبِهِ يكمل العلم والعمل؛ لكنه ليس مستقلًا بذلك... فالأَحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأَقوال المخالفة للعقل باطلة. والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه. لم تأْت بما يعلم بالعقل امتناعه»(٣).

و«العقل وسيلةٌ محدودة من وسائل المعرفة، لا يُدرك غير الأمور المحسوسة علىٰ سبيل التّيقُّن، ويدرك الأمور الغيبية علىٰ سبيل فهم المعنىٰ فقط، دون الكيفية، فالسلف يؤمنون بإِثبات ما أخبر به النص فيما يتعلق بالأمور الغيبية، ويُصدّقون به،

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٧٩١).

(٢) منهج التفكير الإسلامي، د/ علي جريشة، ص ١٧.

(٣) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية (١/ ٢٨١).

ولا يتعرضون للبحث في كيفيته؛ لأن ذلك مما يعز علىٰ العقل مَرَامُه.

وليس عدم الاعتداد بالعقل فيما لا يدخل في مجاله إلغاء للعقل بالكلية، فقد أجمع المسلمون علىٰ أنه لا تكليف علىٰ صبيٍّ ولا مجنون، وأنه لا بُدَّ من نظر العقل، ولذلك أمر الله بتدبر كتابه، ولا يمكن أن يتحقق هذا التدبر إِلا بالعقل، وإِنما الممنوع أن يستخدم العقل في غير موضعه، أو أن يخضع في الاستدلال لمنهجِ يخالف المنهج الذي جاء في القرآن والسنة.

فهم لا يُعلُونَ من شأن العقل، ولا يُغالون في أحكامه، ولا يحكمون باستقلاله وكفايته وإِنما يضعونه في موضعه اللائق به، فَيستَعملونَه في نطاق قُدْرَتِه وإِمكاناته، في النظر في ملكوت السمَّاوَات والأَرض، وفي الاجتهاد في القضايا العملية، وفي اكتشافِ العلومِ المادِّيَّة التي تهدفُ إِلىٰ ترقية المجتمع وتطويرِه، وهذا من تمام علمهم، وبُعْد نظرِهم، وسلامةِ تفكيرهم ولو كان العقل يفسَّرُ بواسطته كُلُّ الأشياء، لما كان هناك حاجةٌ إِلىٰ إِرسال الرسل، وإِنزال الكتب السماوية»[(١)]. «ولقد فُتن الإنسان الغربي في العصر الحديث بالعقل، وكان ذلك علىٰ حساب الروح»[(٢)].

و«شرع العديد من عقلاء الغرب - الذي أشاع في العالم تمجيد العقل والإشادة بإمكاناته - شرعوا في العودة إلىٰ الاعتدال، بعد أن رأوا بأم أعينهم الهوة الفاصلة بين «المثالية» التي أوجدها الاغترار بإمكانات العقل، وبين «الواقع المعيش». وقد صار كثيرون منهم يرون أن أحلامًا أكثر تواضعًا تظل أقرب إلىٰ التحقيق»[(٣)]. و«ظُلِمَ العقل مرتين: مرةً

(١) مجمل اعتقاد أئمة السلف (١/ ١٢٧- ١٢٨).

(٢) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ص ٦٠.

(٣) ١٦٠ بصيرة في نقائص العقل وعيوبه الخلقية والمكتسبة، ص ٣٤.

من قبل المشعوذين والمخرفين الذين ألغوا دور العقل، ومرةً من قبل الذين حرموا نعمة الاهتداء بأنوار الوحي، فألّهوا العقل، وطلبوا منه أمورًا لا يقوىٰ عليها»[١].

والذين يزعمون للعقل البشري درجة من الأصالة في الصواب كدرجة الوحي، باعتبار أن كليهما - العقل والوحي - من صنع الله فلا بد أن يتطابقا.. هؤلاء إنما يستندون إلىٰ تقريرات عن قيمة العقل قال بها بعض الفلاسفة من البشر، ولم يقل بها الله سبحانه!

والذين يرون أن هذا العقل يغني عن الوحي - حتىٰ عند فرد واحد من البشر مهما بلغ عقله من الكبر - إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله.. فالله قد جعل حجته علىٰ الناس هي الوحي والرسالة، ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشري، ولا حتىٰ فطرتهم التي فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به؛ لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل، وأن الفطرة وحدها تنحرف، وأنه لا عاصم لعقلٍ ولا لفطرة، إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادي، وهو النور والبصيرة.

والذين يزعمون أن الفلسفة تغني العقل عن الدين؛ أو أن العلم - وهو من منتجات العقل - يغني البشرية عن هدىٰ الله؛ إنما يقولون قولًا لا سند له من الحقيقة ولا من الواقع كذلك.. فالواقع يشهد أن الحياة البشرية التي قامت أنظمتها علىٰ المذاهب الفلسفية أو علىٰ العلم، هي أبأس حياة يشقىٰ فيها «الإنسان» مهما فتحت عليه أبواب كل شيء، ومهما تضاعف الإنتاج والإيراد؛ ومهما تيسرت أسباب الحياة ووسائل الراحة فيها علىٰ أوسع نطاق.. وليس مقابل هذا أن تقوم الحياة علىٰ الجهل والتلقائية! فالذين يضعون المسألة هكذا مغرضون! فإن الإسلام منهج حياة يكفل

---

(١) ٢٠٣ بصيرة في العقل والوعي والتفكير، ص ٢٥.

للعقل البشري الضمانات التي تقيه عيوب تركيبه الذاتي، وعيوب الضغوط التي تقع عليه من الأهواء والشهوات والنزعات.

ثم يقيم له الأسس، ويضع له القواعد، التي تكفل استقامته في انطلاقه للعلم والمعرفة والتجربة؛ كما تكفل له استقامة الحياة الواقعية التي يعيش في ظلها - وفق شريعة الله - فلا يضغط عليه الواقع لينحرف بتصوراته ومناهجه كذلك. والعقل بمصاحبة وحي الله وهداه بصير وبترك وحي الله وهداه أعمىٰ.

«ومن أوضح سمات القرآن الكريم التي لفتت نظر الباحثين في القرآن من المسلمين وغير المسلمين: إشادة القرآن بالعقل، وتوجيه النظر إلىٰ استخدامه إلىٰ «الحقيقة»، فقد دعا القرآن بطريق مباشر وغير مباشر إلىٰ تعظيم العقل والرجوع إليه.

ويحرص القرآن علىٰ تأكيد هذا المعنىٰ، حتىٰ إنه ليكرر هذه الدعوة بشكل يلفت النظر ويثير الاهتمام، ويشير القرآن إلىٰ العقل ومعانيه المختلفة ومشتقاته ومرادفاته في نحو ثلاثمائة وخمسين آية، مستخدمًا لذلك كل الألفاظ التي تدل عليه أو تشير إليه من قريب أو من بعيد من:

«التفكير» و«القلب» و«الفؤاد» و«اللب» و«النظر» و«العلم» و«التذكر» و«الرشد» و«الحكمة» و«الرأي» و«الفقه»، إلىٰ غير ذلك من الألفاظ التي تدور حول الوظائف العقلية علىٰ اختلاف معانيها وخصائصها وظلالها، مما يعتبر إيحاءات قوية بدور العقل وأهميته بالنسبة للإنسان.

والإنسان مطالبٌ شرعًا بالاهتمام بالعقل، ومادة هذا العقل هي العلم والمعرفة، والعقل هو موطن التفكير وإدراك الأشياء، والتدبر والتمييز بين الخير والشر»(١).

---

(١) الأسلوب التربوي للدعوة إلىٰ الله في العصر الحاضر، ص ١٩٢، المؤلف/ خالد بن عبدالكريم الخياط.

والقرآن الكريم يعبِّر عن العقل الذي يفكر ويستخلص من تفكيره زبدة الرأي بكلمات متعددة تشترك في المعنىٰ أحيانًا، وينفرد بعضها بمعناه علىٰ حسب السياق في أحيان أخرىٰ، فهو: الفكر، والنظر، والبصر، والتدبر، والاعتبار، والذكر، والعلم، وسائر هذه الملكات الذهنية التي تتفق أحيانًا في المدلول، ولكنها لا تستفاد من كلمة واحدة تغني عن سائر الكلمات الأُخرىٰ.

«إن العقل البشري نعمةٌ عظمىٰ من الله جل وعلا وله قدراتٌ هائلة، هي أكثر مما يظن. ويمكن القول: إنه أشبه بعملاق نائم! وقد دلّت الدراسات النفسية والتربوية وأبحاث الكيمياء والفيزياء والرياضيات أن ما تم استخدامه من إمكانات العقل لا يزيد علىٰ ١٪ من إمكاناته الحقيقية.

الحاسب الآلي «كراي» حاسوب عملاق يزن سبعة أطنان، فإذا عمل بطاقة ٤٠٠ مليون معادلة في الثانية مدة مئة عام، فإنه لن ينجز سوىٰ ما يمكن للدماغ البشري أن ينجزه في دقيقة واحدة ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٤].

يمكن القول: إن لـ «العقل» شكلًا ومضمونًا؛ فشكله تلك القدرات والإمكانات التي زوّد الله تعالىٰ بها أدمغتنا، مثل القدرة علىٰ خزن المعلومات واسترجاعها، ومثل القدرة علىٰ التخيل والتحليل والتركيب... وهذه متفاوتة بين الأشخاص متساوية علىٰ نطاق الأمم.

ومضمون العقل منه ما يعود إلىٰ مجموعة المبادئ الفطرية العالمية التي لا تختلف بين شخص وآخر، مثل إدراك عدم إمكانية اجتماع الضدين، وإدراك أن الكل أكبر من الجزء، وإدراك استحالة القيام بعمل خارج دائرتي الزمان والمكان»[(١)].

---

(١) مجلة البيان، العدد ١٣٦، ص ٤٢.

والعقل من أعظم النعم بعد نعمة الإسلام، والملاحظ أن البعض من الناس يستخدمون بعض جوارحهم أكثر من طاقتها، مثل اليدين والرجلين، والسمع والبصر واللسان، أما العقل فلا يستخدم إلا قليلًا إن لم يكن معطلًا. و«القدرات الذهنية التي زوّد بها البارئ - سبحانه - كل واحد منا يتم قتلها أو إضعافها من خلال التربية القاصرة والتعليم المشوّه والبيئة المحبطة»[1].

❑ معاني العقل في القرآن:

«للعقل في القرآن معان بحسب نوع المعقول، أعني نوع الشيء المراد عقله وفهمه، ومن هذه المعاني:

١- **فهم الكلام:** ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾ [البقرة: ٧٥]. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ٢]. فبين أن السبب في جعله عربيًا هو أن يفهمه ويعقله أولئك المتحدثون بهذه اللغة.

٢- **عدم التناقض في القول:** ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٥﴾ [آل عمران: ٦٥]، فالذي يقول: إن إبراهيم كان يهوديًا أو نصرانيًا كأنه يقول: إن إبراهيم كان سابقًا في وجوده لليهودية والنصرانية لكنه كان أيضًا لاحقًا لهما.

٣- **فهم الحجج والبراهين:** ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾ [الروم: ٢٨].

---

(١) ٢٠٣ بصيرة في العقل والوعي والتفكير، ص ١٢.

٤- **موافقة القول للعمل:** ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]، لكن تصحيح هذا التناقض إنما يكون بجعل العمل موافقًا للقول الصحيح لا العكس؛ فالذم في هذه الآية منصب علىٰ نسيانهم لأنفسهم لا لأمرهم بالبر؛ لأن الأمر بالبر شيء حسن، ولا يغير من حسنه كون الداعي إليه لا يلتزم به، وقد يأمر الإنسان به بإخلاص وإن لم يعمل به، فالذي يأمر أولاده بعدم التدخين أو عدم شرب الخمر مثلًا، مع فعله لذلك خيرٌ من الذي يأمرهم بالتأسي به في فعله، بل خيرٌ من الذي لا يأمرهم ولا ينهاهم.

٥- **اختيار النافع وترك الضار سواءً كان ماديًا أو معنويًا:** ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢]، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠].

٦- **التضحية بالمصلحة القليلة العاجلة من أجل مصلحةٍ كبيرةٍ آجلة:** ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص: ٦٠] ويؤيد هذا آياتٌ أخرىٰ لم يرد فيها ذكر العقل، منها قوله -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

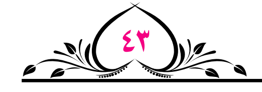
٧- **استخلاص العبر الصحيحة من الحوادث:** ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٥]، يشير ﷻ هنا إلىٰ قرىٰ قوم لوط.

٨- **استخلاص العبر مما جرىٰ في التاريخ:** ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ

مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٠٩].

٩- **فَهْم دلالات الآيات الكونية:** ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

١٠- **حسن معاملة الناس ولا سيما الأنبياء:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات: ٤].





المبحث الثالث
مكان العقل من جسم الإنسان

اختلف العلماء قديمًا وحديثًا عن مكان العقل من جسم الإنسان علىٰ أقوالٍ عدة، وسبب الاختلاف هو عدم معرفة حقيقة العقل، هل هو عضوٌ حسي؟ أم هو شيءٌ معنوي؟ ومجمل هذه الأقوال ما يلي:

القول الأول: من يقول إن العقل محله القلب.

«وهذا هو رأي كثيرٍ من العلماء من المالكية والشافعية والحنابلة، وهو قول كثيرٍ من المفسرين ووافقهم بعض الأطباء»(١)، وحجتهم في ذلك القرآن الكريم، حيث بيّن ربنا جل جلاله أن مكان العقل هو القلب فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]. يقول الشنقيطي في تفسيره: «والآية تدل علىٰ أن محل العقل في القلب، ومحل السمع في الأذن، فما يزعمه الفلاسفة من أن محل العقل الدماغ باطل كما أوضحناه في غير هذا الموضع، وكذلك قول من زعم أن العقل لا مركز له أصلًا في الإنسان لأنه زمانيٌ فقط لا مكاني، فهو في غاية السقوط والبطلان كما ترىٰ»(٢).

---

(١) عبادة القلب، د/ عبدالرحمن المحمود، ص ٥ – ٦.

(٢) أضواء البيان (٥/ ٢٧٥).

ويقول صاحب التفسير الكبير، بعد أن ذكر أن هناك خلافًا في مكان العقل من جسم الإنسان: «ومعلوم أن العقل في القلب، والسمع منفذ إليه. والذي يدل على قولنا وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] وقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] أي عقل أطلق عليه اسم القلب لما أنه معدنه.

الثاني: أنه تعالى أضاف أضداد العلم إلى القلب وقال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١] ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤] ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦] فدلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضًا هو القلب.

الثالث: وهو أنّا إذا جربنا أنفسنا وجدنا علومنا حاصلة في ناحية القلب، ولذلك فإن الواحد منا إذا أمعن في الفكر، وأكثر منه أحس من قلبه ضيقًا وضجرًا حتى كأنه يتألم بذلك، وكل ذلك يدل على أن موضع العقل هو القلب، وإذا ثبت ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم.

الرابع: وهو أن القلب أول الأعضاء تكونًا وآخرها موتًا، وقد ثبت ذلك بالتشريح، ولأنه متمكن في الصدر الذي هو أوسط الجسد، ومن شأن الملوك

المحتاجين إلىٰ الخدم أن يكونوا في وسط المملكة، لتكتنفهم الحواشي من الجوانب فيكونوا أبعد عن الآفات»[(١)].

القول الثاني: **من يقول إن العقل في رأس الإنسان وبالتحديد في دماغه، وحددوا أكثر فقالوا: في المخ.**

ودليلهم علىٰ ذلك «أن الإنسان إذا ضُرِب علىٰ رأسه ذهب عقله، وأصبح لا يعي كثيرًا مما يقوله، وينسىٰ كثيرًا من معلوماته، بل يتكلم أحيانًا بكلام يدل علىٰ أنه يتكلم بلا وعي ولا إدراك، وهذا الاستدلال في غير مكانه، فعصر الخصية يزيل العقل والحياة ولم يقل أحد بأن العقل محله الخصية»[(٢)].

«ويقول بهذه المقالة المعتزلة وبعض من تبعهم من الفقهاء، وبه يقول الفلاسفة وغالب الأطباء»[(٣)].

وذكر صاحب التفسير الكبير حجج من قال بأن العقل في الدماغ فقال: واحتج من قال «العقل في الدماغ» بأمور:

أحدها: أن الحواس التي هي الآلات للإدراك نافذة إلىٰ الدماغ دون القلب.

وثانيها: أن الأعصاب التي هي الآلات في الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ دون القلب.

وثالثها: أن الآفة إذا حلت في الدماغ اختل العقل.

ورابعها: أن في العرف كل من أريد وصفه بقلة العقل قيل إنه خفيف الدماغ خفيف الرأس.

---

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ١٤٣- ١٤٤).

(٢) العدة في أصول الفقه (١/ ٩٣- ٩٤).

(٣) عبادة القلب، د/ عبدالرحمن المحمود، ص ٥.

وخامسها: أن العقل أشرف، فيكون مكانه أشرف، والأعلىٰ هو الأشرف، وذلك هو الدماغ لا القلب، فوجب أن يكون محل العقل هو الدماغ.

- ثم رد عليهم وقال -:

والجواب عن الأول: لم لا يجوز أن يقال الحواس تؤدي آثارها إلىٰ الدماغ، ثم إن الدماغ يؤدي تلك الآثار إلىٰ القلب فالدماغ آلة قريبة للقلب، والحواس آلات بعيدة، فالحس يخدم الدماغ ثم الدماغ يخدم القلب، وتحقيقه أنّا ندرك من أنفسنا أنّنا إذا عقلنا أن الأمر الفلاني يجب فعله أو يجب تركه، فإن الأعضاء تتحرك عند ذلك، ونحن نجد التعقلات من جانب القلب لا من جانب الدماغ.

وعن الثاني: أنه لا يبعد أن يتأتىٰ الأثر من القلب إلىٰ الدماغ، ثم الدماغ يحرك الأعضاء بواسطة الأعصاب النابتة منه.

وعن الثالث: لا يبعد أن يكون سلامة الدماغ شرطًا لوصول تأثير القلب إلىٰ سائر الأعضاء.

وعن الرابع: أن ذلك العرف إنما كان لأن القلب إنما يعتدل مزاجه بما يستمد من الدماغ من برودته، فإذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال أيضا، إما لازدياد حرارته عن القدر الواجب، أو لنقصان حرارته عن ذلك القدر، فحينئذ يختل العقل.

وعن الخامس: أنه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع العقل هو القحف، ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم والله أعلم»[(١)].

---

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ١٤٤).

ونسب هذا القول إلىٰ أبي حنيفة، ونفاه عنه القرطبي في تفسيره فقال: «وقد قيل إن العقل محله الدماغ، وروي عن أبي حنيفة، وما أراها عنه صحيحة»[(١)].

القول الثالث: من جمع بين القولين السابقين، فقال بأن العقل في القلب مع ارتباط القلب بالدماغ.

يقول ابن تيمية: «فالعقل له تعلقٌ بالدماغ والقلب معًا، حيث يكون مبدأ الفكر والنظر في الدماغ، ومبدأ الإرادة والقصد في القلب، فالمريد لا يكون مريدًا إلا بعد تصور المراد، والتصور محله الدماغ، ولهذا يمكن أن يقال: إن القلب موطن الهداية، والدماغ موطن الفكر؛ ولذا قد يوجد في الناس من فقد عقل الهداية - الذي محله القلب - واكتسب عقل الفكر والنظر - الذي محله الدماغ - كما قد توجد ضد هذه الحال»[(٢)].

ويقول د. عبد الرحمن المحمود: «العقل له تعلق بالقلب والدماغ جميعًا. فمبدأ الفكر والنظر الدماغ، ومبدأ الإرادة القلب، والعقل يُراد به العلم ويُراد به العمل، والعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة، وأصل الإرادة في القلب، ولكن المريد لا يكون مريدًا إلا بعد تصور المراد في الدماغ»[(٣)].

و«القلب له تعلقٌ وثيقٌ بالإحساس والشعور والاستجابة، وأن ذلك علىٰ نحو لا يعلمه إلا الله تعالىٰ، وأن العقل له تعلقٌ أيضًا علىٰ كيفيةٍ مجهولةٍ حتىٰ لعلماء هذا العصر الحديث، والربط بين القلب والعقل مجهول حتىٰ الآن»[(٤)].

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ٧٧).

(٢) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية (٩/ ٣٠٤).

(٣) عبادة القلب، د/ عبدالرحمن المحمود، ص ١٣.

(٤) العبادات القلبية، د/ محمد الشريف، ص ٢١ - ٢٢.

وقال ابن القيم: «فائدة شق صدر الرسول: شق صدر النبي ﷺ والاعتناء بتطهير قلبه وحشوه إيمانًا وحكمةً، دليلٌ علىٰ أن محل العقل القلب، وهو متصل بالدماغ»(١).

القول الرابع: **وهناك من جعل للعقل تعلقًا بالروح**، كما ذكر ذلك الألوسي في تفسيره مبينًا: «أن التفكر إنما يكون بالقلب والروح»(٢).

و«العلاقة بين العقل والروح قائمة أبدًا لا تنفصم في منهج الإسلام، ومن ثم لا يضل العقل - وهو يتعلم - ولا ينحرف عن طريق الخير... ولا يستخدم معلوماته في سبيل الشر»(٣).

ويقول ابن تيمية: «العقل قائمٌ بنفس الإنسان التي تعقل، وأما من البدن فهو متعلقٌ بقلبه كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ وقيل لابن عباس: بماذا نلت العلم؟ قال: «بلسان سؤول وقلب عقول»، لكن لفظ «القلب» قد يراد به المضغة الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من البدن التي جوفها علقة سوداء، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد**»، وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقًا فإن قلب الشيء باطنه، كقلب الحنطة واللوزة والجوزة ونحو ذلك، ومنه سمي القليب قليبًا لأنه أخرج قلبه، وهو باطنه، وعلىٰ هذا فإذا أريد بالقلب هذا فالعقل متعلق بدماغه أيضًا، ولهذا قيل إن العقل في الدماغ كما يقوله كثير

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٧٢١).
(٢) روح المعاني (٤/ ١٥٨).
(٣) منهج التربية الإسلامية، ص ١٢٤.

من الأطباء، ونقل ذلك عن الإمام أحمد، ويقول طائفةٌ من أصحابه إن أصل العقل في القلب، فإذا كمل انتهىٰ إلىٰ الدماغ.

والتحقيق أن الروح التي هي النفس لها تعلق بهذا وهذا، وما يتصف من العقل به يتعلق بهذا وهذا، لكن مبدأ الفكر والنظر في الدماغ ومبدأ الإرادة في القلب. والعقل يراد به العلم ويراد به العمل، فالعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة، وأصل الإرادة في القلب، والمريد لا يكون مريدًا إلا بعد تصور المراد، فلا بد أن يكون القلب متصورًا فيكون منه هذا وهذا ويبتدئ ذلك من الدماغ، وآثاره صاعدةٌ إلىٰ الدماغ، فمنه المبتدأ وإليه الانتهاء، وكلا القولين له وجهٌ صحيح، وهذا مقدار ما وسعته هذه الأوراق. والله أعلم»(١).

والأقرب للصواب أن مكان العقل في القلب، للنصوص الواردة في ذلك، منها قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، ومع ذلك فهو متعلق بالروح والدماغ معًا والله أعلم.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٣٠٣- ٣٠٤)، للشيخ محمد بن صالح العثيمين.



المبحث الرابع
حث القرآن الكريم العقل على التفكير

يقول العلامة ابن عثيمين: «التفكر هو أن يُعمِل الإنسان فكره في الأمور حتىٰ يصل فيه إلىٰ نتيجة، وقد أمر الله تعالىٰ به وحض عليه في كتابه لما يتوصل إليه الإنسان من المطالب العالية والإيمان واليقين»[(١)].

و«التفكير: إعمال العقل لحل قضية، أو لاقتراحاتٍ أخرىٰ يتلمس منها ما بمكامنها من خفايا أو خبايا سلبًا أو إيجابًا، وما تخلف هذه القضية بعد ذلك، ليخرج بعدها بحلولٍ أو اقتراحاتٍ لتلك القضية، تنتج له عصارة فكرٍ متميزٍ، ليُحولها إلىٰ واقعٍ وتطبيقٍ عملي، تسعد به الأمة ليُحيا لها مجدها التليد، الذي ضاع علىٰ أيدي أناس يفكرون بطريقتهم؛ فلنفكر نحن لنعيد الذي أخذ منا بتفكير، والله عَزَّوَجَلَّ وهب الإنسان فكرًا ونظرًا وعقلًا ميزه عن كثيرٍ من مخلوقاته، يستطيع من خلاله إنشاء أعمالٍ عظيمة كانت بدايتها فكرة أو لربما خاطرة، قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنت عند إسحاق بن راهويه، فقال رجلٌ من أصحابنا: ألا تعملون كتابًا يجمع الأحاديث الصحاح؟ - ولم يكن قبل ذلك كتابٌ يجمع الصحاح فقط - فكانت فكرةً لي حتىٰ كتبت الصحيح.

وأكثر الناجحين من العلماء أو المفكرين أو الأثرياء والمبدعين إنما تميزوا

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥٣٦)، محمد بن صالح بن عثيمين.

باستغلال الأفكار الإبداعية، وقرر علماء النفس والإدارة أنه لا بد من أن يجعل الإنسان لنفسه وقتًا خاصًا للتفكير، ولو كانت دقائق معدودة أو ثواني محدودة.

ومن الملاحظ أن الإنسان كثيرًا ما يستخدم حواسه ويستخدم جوارحه؛ ولكن غالبًا ما يكون معطلًا للعقل إلا في التفكير الساذج، إما في عيش البهيمية ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩] أو حياة الذل والهمجية، ولو رجعتُ بك قليلًا لتقليب صفحات الذكريات وشريط الحياة لأقول لك: يا تُرىٰ! كم قدمت لأمتك ولدينك من خلال تفكيرك؟ لذهلت ولرأيت أمرًا عجبًا؛ فتأمل هنا لترىٰ حقًا ذلك الوضع البئيس الذي نعيشه ويعيشه معظم المسلمين اليوم، ومع كل هذا التعطيل لملكة التفكير ففي المقابل يستطيع البشر أن يقيدوا الأيدي والأرجل بالسلاسل والأغلال، وأن يُكمموا الأفواه ولكن لا يستطيعون أبدًا أن يعطلوا عقلك عن التفكير إلا بإذهاب عقلك.

إن الأمة الإسلامية تحتاج إلىٰ تفكير وإلىٰ أناسٍ يفكرون، وإنّ ما وصل إليه الأعداء من أعمالٍ وابتكاراتٍ ما هي إلا المرحلة الثانية بعد التفكير؛ فتجدهم يفكرون طويلًا ليخرجوا لنا بابتكاراتٍ وأعمالٍ تخدم دنياهم.

وبعد: فإن التفكير لا بد أن يخلف آثارًا نفسيةً علىٰ الإنسان، ترغمه أن يحول تلك الأفكار إلىٰ واقعٍ وحال، إلا من سلب روح العمل، والفكرة بلا تطبيق كالزهرة بلا رحيق.

فبعد أن تتوصل إلىٰ منتهىٰ مراميك وغاية مقاصدك في التفكير.. فهناك تحول تلك الأفكار إلىٰ واقعٍ مشاهد، ليخرُج لنا جيل يفكر ويعرف كيف يفكر، ولنقول للغرب بلسان حالنا: نحن - المسلمين - الذين حرروا العقول بالأمس من تخبط

الجاهلية العمياء، ونحن - المسلمين - الذين يحررون العقول اليوم – إن شاء الله - من تخبط الجاهلية المعاصرة»(١).

و«القليل من الناس هم الذين يفكرون قبل أن يعملوا، أما أغلبنا فهو يسلك أولًا ثم يلجأ بعد ذلك إلىٰ التفكير لتبرير سلوكه وآرائه والدفاع عنها، وهذا منطق العاطفة»(٢).

والتفكير يحتاج إلىٰ شيء من الجهد والصبر والتكلّف، «وتصرّف القلب في طلب المعنىٰ ومبدأ ذلك معنىٰ يخطره الله تعالىٰ علىٰ بال الإنسان، فيطلب متعلقاته التي فيها بيان عنه من كل وجه يمكن منه»(٣).

وعند قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد: ٣]. يقول ابن عاشور: «وجيء بالتفكير بالصيغة الدالة علىٰ التكلف وبصيغة المضارع للإشارة إلىٰ تفكير شديدٍ ومكرر»(٤).

وقد جاءت آياتٌ عديدةٌ في القرآن الكريم تدعو إلىٰ التفكر والتدبر والتذكر والنظر والرؤية والتأمل والسير في الأرض، قال تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦] وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ خَلَتْ

---

(١) مجلة البيان، العدد ١٤٤، ص ١٣٧.
(٢) كيف ننجح في تعديل سلوكنا، عادل رشاد غنيم، ص ١١.
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤/ ١٢٤).
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور(١٣/ ٨٥).

مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩]. وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة: ٢٧].

قال ابن القيم: «والتذكر والنظر والتأمل والاعتبار والتدبر والاستبصار كلها معانٍ متقاربة»(١).

و«لا يخفىٰ علىٰ الناظر في أحوال الأمة الإسلامية ما تعيشه من تخلفٍ عن الأخذ بشريعة الله الغراء، ومن تخلفٍ أيضًا عن الأخذ بركب الحضارة المادية والتي بلغت بها دول الكفر مبلغًا كبيرًا، حتىٰ أصبحت الدول الإسلامية عالةً علىٰ الدول الكافرة في كثير من الحاجيات الأساسية، بل وأصبح مصيرها متعلقًا بالخضوع والاستسلام والتبعية لتلك الدول، حتىٰ يتحقق لهم ما يريدون.

وهذا التخلف له أسبابٌ كثيرة، من أهمها: عدم العناية بتنمية ملكة التفكير السديد الرشيد، التي أكرم الله بها الإنسان وفضله عن سائر مخلوقاته، ومما يدعو إلىٰ العجب والدهشة أن غالبية المدارس في العالم الإسلامي - إن لم تكن كلها - لا تدرّس مادةً تعلّم التفكير أو تساعد علىٰ تحسينه، في الوقت الذي نرىٰ فيه الغربيين يبذلون عناية متزايدة في هذا الجانب، حتىٰ إن بلدًا مثل فنزويلا فرضت حكومته علىٰ طلاب مدارسها أن يدرسوا ساعتين في الأسبوع مادة سمّوها «مهارات التفكير»، ودّربوا علىٰ تدريسها أكثر من مائة ألف معلم»(٢).

---

(١) مفتاح دار السعادة لأبن القيم (١/ ١٨٢).

(٢) فن التفكير، د/ أحمد البراء الأميري، ص٦-٧ بتصرف.

و«إن المسلمين اليوم بحاجةٍ ماسةٍ إلىٰ أن يُعلِّموا أبناءهم في المدارس والجامعات أصول التفكير السديد، ويدربوهم عليها، ويبينوا لهم أخطاء التفكير، ومزالقه، ليجتنبوها»(١).

و«إن مما تحيا به أمتنا: تفكيرٌ جادٌ معطاء، وتصورٌ بناء؛ ذلك أن الأمم تحيا بعقول أفرادها، وتنمو بتفكيرهم.

ولا شك أن التفكير في حق خير أمةٍ أخرجت للناس، وأشرفها وأكرمها علىٰ الله أوكد وأوجب؛ لأنها أمة الهدىٰ ودين الحق؛ التي حازت قصب السبق إلىٰ الخيرات بنبيها محمدٍ ﷺ، ومما يدفعها إلىٰ إحياء روح التفكير، ويرغبها فيه: ما أشاد به كتابها المنزل من التفكر والتدبر، قال تعالىٰ: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ: ٤٦] وقال في صفات أولي الألباب: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] فالقرآن يربينا ويأخذ بأيدينا لنلتمس منه العبرة والعظة حين يفتح للفكر آفاقه، وللتدبر أبوابه وإن كان مبدأ التفكير هو في نعم الله ومخلوقاته، إلا أن ذلك هو الانطلاقة العملية والباعث للتفكير.. فهو منطلق العمل، وبداية الحركة، وإشراقة النور، وكما قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «الفكر نور يدخل قلبك».

والتفكير الجاد ليس مجرد فلسفةٍ نظرية أو تصوراتٍ عقلية، بل هو يقظةٌ روحيةٌ، وهمةٌ وقّادةٌ ذات فعالية، به تتضح معالم الطريق، ويتبين الهدىٰ من الضلال، فالفكرة مرآةٌ ترىٰ فيها حسناتك وسيئاتك، ومدرسةٌ تكتسب منها حقائق وتجارب»(٢).

---

(١) فن التفكير، د/ أحمد البراء الأميري، ص ٨.

(٢) مجلة البيان، العدد ٩٨، ص ١٠٨.

والتفكر والتذكر فيهما معنىٰ التكرير ويفرق بينهما ابن القيم فيقول: «كل من التفكر والتذكر له فائدةٌ غير فائدة الآخر، فالتذكر يفيد تكرر القلب علىٰ ما علمه وعرفه، ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة، والتفكر تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلًا عند القلب»(١).

والتفكر من العبادات القلبية والتي تتطلب صفاء النفس، واجتماع الهم، والقدرة علىٰ طرد الأفكار المشغلة، والهواجس التي تعيق التفكير السليم، «قال علي بن الحسن: سئل بعض العلماء ما الذي يفتح الفكر؟ قال: اجتماع الهم؛ لأن العبد إذا اجتمع همه فكر، فإذا فكر نظر، فإذا نظر أبصر، فإذا أبصر عمل»(٢).

والتفكير قد يكون جماعيًا وقد يكون فرديًا، لكن التفكير الفردي له أهميته الكبرىٰ لاجتماع الهم في حال الخلوة، يقول ابن تيمية: «ولا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذه يحتاج فيها إلىٰ إنفراده بنفسه إما في بيته كما قال طاووس: نعم صومعة الرجل بيته، يكف فيها بصره ولسانه»(٣).

والاهتمام بموضوع التفكير هو من الاهتمامات المطلوبة شرعًا، ولذلك فالتفكير في الإسلام عبادة، ومن مزايا القرآن الكريم الكثيرة: العناية بالتفكير والاهتمام به، والتركيز علىٰ العقل والتنويه بأهميته، والتعويل عليه في أمورٍ أساسيةٍ مهمة، مثل العقيدة، وأمر التبعة والتكليف، وما من سورةٍ من سور القرآن الكريم إلا

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٣).

(٢) حلية الأولياء (١٠/ ١٤٤).

(٣) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٠/ ٤٢٦).

وفيها خطاب للعقل وحض علىٰ التفكير، ولذا نجد فيما نزل به جبريل علىٰ النبي الكريم آياتٍ كثيرةً تخاطب العقل وتحض علىٰ التفكير، ففي التفكير مثل قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وفي العقل مثل قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

لقد «كان القرآن فتحًا جديدًا في تاريخ الفكر الإنساني، ونقلةً هائلةً للعقل والتفكير، وثورةً عنيفةً علىٰ الغفلة والجمود والتقليد، وعلىٰ ضوء هذا المنهج ونتيجةً لهذه التربية سارت الحضارة الإسلامية علىٰ أساس فكري سليم»(١).

و«بهذه الآيات وما جرىٰ مجراها تقررت ولا جرم فريضة التفكير في الإسلام، وتبيّن منها أن العقل الذي يخاطبه الإسلام هو العقل الذي يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز بين الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويتبصر ويُحسن الادّكار والرواية، وأنه العقل الذي يقابله الجمود والعنت والضلال، وليس بالعقل الذي قُصاراه من الإدراك أنه يقابل الجنون، فإن الجنون يسقط التكليف في جميع الأديان والشرائع، وفي كل عرف وسنّة»(٢).

والقرآن الكريم حين يدعو إلىٰ التفكير فهو لا يدعو إليه لمجرد التفكير فحسب، بل يدعو للتفكير للوصول للغاية العظمىٰ وهي معرفة الله عَزَّوَجَلَّ ومحبته وعبادته كما أمر.

---

(١) منهج القرآن في التربية، محمد شديد، ص ١٢٨.

(٢) التفكير فريضة إسلامية، ص ١٧.

و «إن الدعوة إلىٰ «التفكر» وإلىٰ استخدام «العقل» علىٰ أساسٍ منهجيٍ صحيح، هي في صميمها دعوة هذا الدين، والدعوة إلىٰ السياحة في الأرض ودراسة التاريخ علىٰ أساسٍ منهجيٍ كذلك هي في صميمها دعوة هذا الدين، والدعوة إلىٰ تدبر آيات الله في الكون، والتعرف علىٰ السنن الربانية في الكون المادي وفي الحياة البشرية، هي في صميمها دعوة هذا الدين»(١).

كما أن القرآن الكريم يسعىٰ إلىٰ تنمية ذكاء الفرد وتقوية ذاكرته، وذلك بدعوته إلىٰ التأمل والتدبر والتذكر، والتفكير والنظر.

«والذي ينبغي أن نثوب إليه مرةً بعد مرة: أن التنويه بالعقل علىٰ اختلاف خصائصه لم يأت في القرآن عرضًا، ولا تردد فيه كثيرًا من قبل التكرار المعاد، بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجةً منتظرةً يستلزمها لباب الدين وجوهره، ويترقبها من هذا الدين كل من عرف كنهه وعرف كنه الإنسان في تقديره»(٢).

و«التفكير مطلب، وهو ضرورةٌ إنسانيةٌ، وضرورةٌ شرعيةٌ، فبدونه يفقد الإنسان إنسانيته، ويصبح كما قال الله عن الذين امتلكوا أدوات السمع والبصر والفهم ولكنهم عطلوها: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولفهم ما أنزل الله، ولمعرفة النفس والواقع والتاريخ، ولحسن تنزيل الحكم من الوحي علىٰ محله من الواقع، لا بد من التفكير، فهو ضرورةٌ شرعيةٌ... ونحن

(١) واقعنا المعاصر، محمد قطب، ص ١٨٥.

(٢) التفكير فريضة إسلامية، ص ١٨.

بحاجة إلىٰ إحياء الدعوة إلىٰ التفكير، وإقناع الناس بضرورته وتربية الأجيال عليه... ولكن القوامة في التفكير مطلبٌ أيضًا لأن التفكير بحد ذاته قد يكون قويمًا وقد يكون معوجًّا، لذلك كان المطلوب هو التفكير القويم.. والقرآن جاء ليهدي الإنسان إلىٰ القويم من كل شيء؛ فقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] ومن ذلك مجال التفكير»(١).

يقول الغزالي: «كثر الحث في كتاب الله تعالىٰ علىٰ التدبر والاعتبار والنظر والافتكار، ولا يخفىٰ أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته، لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته، ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفي ماذا يتفكر ولماذا يتفكر، وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه، فإن كان لثمرة فما تلك الثمرة، أهي من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعًا وكشف جميع ذلك مهم»(٢).

«وللنظر والتفكير أثرهما في بناء الحياة والاستفادة مما سخره الله سبحانه لنا، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٢٠].

وعندما عمل المسلمون بتوجيه قرآنهم كان لهم دور القيادة في الأرض، فاستفادوا مما سخره الله تعالىٰ في خير البشر جميعًا، وعندما نغفل هذا الجانب في حياتنا، فإنما نترك بعض أوامر ديننا»(٣).

---

(١) خطوة نحو التفكير القويم، د/ عبدالكريم بكار، ص ١٢-١٣.

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٣).

(٣) قل انظروا، للإمام ابن القيم الجوزية، جمع وترتيب، صالح الشامي، ص ٢٠.

و«كثر الحديث في القرآن الكريم عن التدبر والتفكير، واستخدام الطاقات الذهنية في كل شؤون الحياة.

وتفيد نصوصٌ كثيرةٌ عدم استقامة تدين الإنسان، وعدم استقامة أمور دنياه وعلاقته بربه سبحانه وبالناس من حوله، من غير اللجوء إلىٰ العقل والمعطيات الفكرية الراسخة، ومن تلك النصوص قوله سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: ٣] وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [الملك: ١٠] وقوله: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠﴾ [يونس: ١٠٠]، وقوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝١٤﴾ [الحشر: ١٤]»(١).

❑ تعلّم التفكير:

«لقد أصبح من وظيفة التربية أن تُعنىٰ بتعليم الناس كيف يُفكرون، وأن تحذّرهم من مزالق التفكير، وتدربهم علىٰ أساليبه السديدة، حتىٰ يستطيعوا أن يشقوا طريقهم في الحياة بنجاح، ويدعَموا بناء الحضارة، وحتىٰ لا يصيروا عبيدًا للغير في تفكيرهم... وقد يتساءل الناس: هل يحتاج الإنسان أن يتعلم كيف يفكر؟ أوليس الإنسان مفكرًا بطبيعته؟ والجواب علىٰ ذلك أن الإنسان في حاجة إلىٰ تعلّم طرق التفكير، والتدرّب علىٰ مهاراته، كحاجته لأن يتعلم كيف يتكلم، وكيف يعامل الناس... ومما يساعد علىٰ تعلم التفكير الصحيح - بالإضافة إلىٰ الطرق والقواعد المعروفة - التخلّق ببعض الأخلاق، واكتساب بعض الفضائل والعادات النفسية الحسنة، وكلّما كان تمثل هذه الأخلاق والعادات في سنّ أبكر كانت النتيجة أحسن»(٢).

---

(١) بناء الأجيال، د/ عبدالكريم بكار، ص ٧٣.

(٢) فن التفكير، للأميري، ص١٥ – ١٦.

ومن الأمور المهمة والتي تساعد في تسديد التفكير وترشيده أن يتعود المسلم قول: «لا أدري» في الأمر الذي لا يعلمه، وأن يسعىٰ للبحث عن الحق في أي مكان ومن أي شخص كان، وألا يكون همه عند الحوار أن يكون رأيه هو الصواب، ورأي غيره خطأ، بل يكون همه البحث عن الحقيقة، ومعرفة الصواب.

كما علىٰ المسلم أن يتمثل هذه العبارة: «قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب» حتىٰ يكون تفكيره سليمًا.

والتفكر من أهم وأنفع العبادات القلبية «وهو من أفضل أعمال القلب وأنفعها له، وهو أصل كل طاعة، كذلك أصل كل معصية»[(١)].

وسعادة المرء وشقاؤه تكون تبعًا لأفكاره، قال السعدي: «واعلم أن حياتك تبع لأفكارك، فإن كانت أفكارًا فيما يعود عليك نفعه في دين أو دنيا، فحياتك طيبةٌ سعيدةٌ، وإلا فالأمر بالعكس»[(٢)].

و«قضايا العقيدة ومسائل السلوك الأخلاقي، والأوضاع الاجتماعية والحضارية كلها تبنىٰ علىٰ طريقتنا في التفكير، ويكفي الإنسان أن يفكر بالشكل الصحيح ليحقق له سلوكًا صحيحًا وتواصلًا فعالًا وإنتاجيةً مثمرة، والحقائق تصدق ذلك»[(٣)].

وسلوك الإنسان إنما هو صورةٌ من تفكيره ونظرته للوجود وللحياة وللإنسان.

«وكل خللٍ في التفكير أو التقدير ينتج عنه أخطاءٌ جسيمةٌ... والعقل لا بد أن

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٣).

(٢) الوسائل المفيدة للحياة السعيدة، للشيخ/ عبدالرحمن السعدي، ص ٢٦.

(٣) كيف ننجح في تعديل سلوكنا، عادل رشاد غنيم، ص ١٠ – ١١.

يحاول ضبط أفكاره وربطها، والوصول إلىٰ الكليات التي تربط الجزئيات وتحكمها»(١).

ولقد حثت آياتٌ عديدةٌ في القرآن الكريم علىٰ التفكر، وحددت مواضيعه التي يلزم التفكير فيها، ولم تترك مبهمةً عائمةً، ومدح من اتصف بالتفكير في كتابه في مواضع عدة ختمت بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد:٣] [الروم:٢١] [الزمر:٤٢] [الجاثية:١٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «النظر إلىٰ المخلوقات العلوية والسفلية علىٰ وجه التفكر والاعتبار مأمورٌ به مندوبٌ إليه»(٢).

و «التفكر عبادةٌ من صفات أولياء الله العارفين»(٣).

«ولكن ليس كل أحدٍ يعتبر ويتفكر وليس كل من تفكر أدرك المعنىٰ المقصود»(٤).

ودعوة القرآن الكريم إلىٰ التفكير تعني التجديد المستمر الحي للإنسان، كطاقةٍ حيةٍ عاقلةٍ مبنيةٍ علىٰ النظر والحجة والإقناع، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]، فمن أراد أن يدعو إلىٰ الله فليدع كما دعا النبي ﷺ ومن تبعه «علىٰ بصيرةٍ ويقينٍ وبرهانٍ عقلي وشرعي»(٥).

---

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ص ٩٤.

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ٣٤٣).

(٣) تفسير السعدي (١/ ١٦١).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٢٦٧).

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٩٧).

«ونحن بحاجة إلىٰ أسلوبٍ جديدٍ في التفكير، أسلوب لا ينحىٰ باللوم علىٰ الآخرين ويترك النفس، لا يهتم بالأوراق وينسىٰ الجذور»[(١)].

«ولا شك أن للأفكار قيمةً كبيرةً كأداةٍ من أدوات الصراع بين الحق والباطل، وما سلوك الإنسان وتصرفاته إلا نتيجةً لأفكاره، فإذا تغيرت أفكاره بجهده هو أو عن طريق جهد غيره فإن سلوكه يتغير، وهذا التغيير قد يصل إلىٰ النقيض، فهناك فكرةٌ قد تجعل إنسانًا ينحني ويسجد لصنمٍ من الحجر، وفكرةٌ أخرىٰ تجعل إنسانًا آخر يحمل الفأس ليكسر ذلك الصنم ويحطمه، ولأن الأفكار بهذا القدر من الأهمية في الصراع بين الحق والباطل، فإنه ومنذ تقرر في أوكار الصهيونية تدمير الخلافة الإسلامية، وأعداء الإسلام يحرصون علىٰ تخريب الفكر الإسلامي وتشويه العقل السليم من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرىٰ يقومون برصد الأفكار الفعالة التي تحاول إيقاظ الأمة من سباتها، لكي يقضوا عليها في مهدها أو يحتووها قبل أن تصل إلىٰ جماهير الأمة فتصحح وجهتها أو تعدل انحرافات أفرادها، ولتبقىٰ الجماهير إذا اجتمعت تجتمع علىٰ أساس العاطفة وتحت سلطانها، وليس علىٰ أساس «الفكرة والمبدأ»».

وأعداؤنا يستخدمون في ذلك مراصد دقيقةً تتلقىٰ أي إشارة خطر عن فكرةٍ أو كتابٍ ربما قبل أن تصل الفكرة إلىٰ جماهير الأمة! فماذا يفعل الأعداء عندما تعطيهم مراصدهم تلك الإشارة؟ كيف يتصرفون ليحُولوا بينها وبين المجتمع، الذي يحاول صاحبها نشر الفكرة فيه؟ إنهم في البداية يتعرفون علىٰ الفكرة بدراستها دراسةً دقيقةً، ثم يبدؤون فيما يمكن أن نسميه مرحلة «المواجهة» وفي هذه المرحلة يبذل الأعداء جهدًا ضخمًا، ويستخدمون مواهبهم الشيطانية كلها حتىٰ لا يكون لتلك الفكرة أي

---

(١) التفكير، عبدالله بن عمر الصقهان، ص ٥.

عائد أو نتيجة، ووسائلهم في ذلك كثيرةٌ، وهم يغيرون منها دائمًا ويعدلون فيها تماشيًا مع القاعدة التي تقول: «إن كل فخ عُرف مكانه يصبح دون جدوىٰ»، فوسائلهم تتنوع حسب الظروف مع المحافظة علىٰ المبدأ الأساسي وهو «تحطيم الفكرة أو شلّها»! فهم تارةً يُصوّبون ضرباتهم علىٰ اسم صاحب الفكرة وشخصه، لكي يصيبوا فكرته بحيث يصلون إلىٰ أن يصبح اسم صاحب الفكرة كافيًا للنفور منها، بل ومن الكتاب الذي يضمها، وعدم قراءته من الكثيرين الذين يحكمون علىٰ فكرةٍ معينةٍ، أو كتابٍ معينٍ، وفق انعكاساتٍ حدثت تجاه صاحبها، وبمقتضىٰ الكلام عن صاحب الفكرة والكتاب، وليس من خلال جوهر الفكرة وما فيها من برهان، وهم تارةً يستخدمون طريقة «الهُتافات والشعارات»، وهم في هذه الطريقة يرتكزون علىٰ ميل الأفراد إلىٰ السهولة، فيصوغون الفكرة في مجموعةٍ من الشعارات والهتافات فيتحول الأفراد عن «مشقة» البناء إلىٰ «سهولة» الشعارات والهتافات، وفي أحيانٍ أخرىٰ يستخدم الأعداء طريقة «التشويش»، عن طريق إضافة مجموعةٍ من الأفكار الثانوية إلىٰ الفكرة الأصلية، بحيث تُضعف هذه الأفكار الثانوية سلطان الفكرة الأصلية علىٰ العقول ويكفينا أن ننظر في واقعنا لنرىٰ كم مرةً طُبقت هذه الطريقة معنا، وكم مرةً شاركنا فيها دون وعي؟ وتارة أخرىٰ يستخدم الأعداء أسلوب إثارة الشبهات... فإذا خرجت الفكرة في صورة كتابٍ يقدم أيديولوجيةً واضحةً للصراع مع الأعداء، ألقوا علىٰ هذا الكتاب ما يشوه صورته أمام أفراد الأمة، وخلقوا حوله شبهاتٍ كثيرةً، بحيث لا يسهل إزالتها فينصرف أفراد الحركة عن مجرد الاطلاع علىٰ الكتاب لكثرة ما أثير حوله، ولا نريد أن نضرب أمثلة! فكم من كتبٍ طيبةٍ فرض أفراد الأمة حول أنفسهم ستارًا حديديًا يمنعهم من قراءتها لهذا السبب، وفي أحيانٍ أخرىٰ يستخدم الأعداء

طريقة «الاستبدال» فيطلقون هم أنفسهم فكرةً جديدةً، تكون أقل ضررًا علىٰ مصالحهم من الفكرة الأصلية.

وهكذا يبقىٰ الصراع مع الأفكار، ونحن إذا اكتشفنا بعض التفاصيل عن طبيعة هذا الصراع فبقية التفاصيل الكثيرة للصراع تبقىٰ في الظلام، ويصعب وصفها كما يصعب وصف بيت العنكبوت، وخاصة إذا كانت خيوطه تأتي من بعيد ولا يحيط بها بوضوحٍ إلا من وفقه الله عَزَّوَجَلَّ وأضاء بصيرته.

وإذا كان الأعداء يحاولون تحطيم الفكرة الطيبة عن طريق تشويه صاحبها أو إثارة الشبهات حولها، فلنتعلم أن نحكم علىٰ الأفكار من خلال ما فيها من برهان، بعيدًا عن منطق الغوغاء!

وفي مقابل محاولة الأعداء «استبدال» فكرة أقل ضررًا علىٰ مصالحهم بالفكرة الفعالة لابد من الوضوح في فكر الدعوة وأهدافها ليسهل علىٰ الأفراد التمييز بين الغث والثمين، وفي مقابل إرهاب الأعداء لابد أن نؤمن بحتمية المحنة والابتلاء، ولنعلم أننا لسنا أول الممتحنين ولن نكون آخرهم وإنما هم مواكب ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣]»[(١)].

«وإذن فالمعركة بين الأمة الإسلامية وأعدائها، ليست معركةً واحدةً في ميدان الحرب، بل هي معركة في ميدانين، ميدان الحرب، وميدان الفكر، والأعداء حريصون في ميدان الفكر علىٰ «احتلال» عالم «الأفكار» في أمتنا، وحريصون في نفس الوقت علىٰ توزيع «نفاياتهم» الفكرية، من أفكار اللغو كأشعار الغزل والقصص الجنسي والأدب العاري وما إلىٰ ذلك، حريصون علىٰ توزيع هذه النفايات إلىٰ أمتنا؛

---

(١) مجلة البيان، العدد ٣٢، ص ٣٣.

لأنهم يعلمون أن الأمة التي تنتشر فيها هذه الأفكار الفاسدة تصبح غثاءً تدور به الدوامات السياسية العالمية، ولا يملك نفسه عن الدوران ولا يختار حتىٰ المكان الذي يدور فيه... ومن هنا فإن بداية أي تغيير لا بد أن تحدث في الأفكار، وبقدر ما تملك الأفكار رصيدًا قويًا من الاستجابة لدىٰ الأمة، وتغييرًا ملحوظًا في مجال سلوكيات أفرادها وعلاقاتهم الاجتماعية، ستتحول هذه الأفكار ثقافةً معطاءة، يمكن أن نقول إنها تشكل نقطة البدء في التغيير المنشود»(١).

إذًا علينا أن نفكر لنعيد ما أُخذ منا بالتفكير.

إننا مطالبون بالتفكير كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤] مطالبون بالتفكير في آيات الأنفس والآفاق، في أسرار التشريع، وفي سنن التغيير الذي يريده الله ﷻ، وفي منهج الرسول ﷺ في «فقه التغيير».

وهذا التفكير يأتي بالتأمل والتعمق في فهم الأمور، فالعقل منحةٌ إلهيةٌ لكل حي، ولكن أساليب التفكير كسبٌ يكتسبه الإنسان من معالجة النظر والتأمل، ومن التربية ومن التعليم، ومن الثقافة ومن الاحتكاك بأصحاب العقول النيرة، ومن آلاف التجارب التي يحياها المرء في هذه الحياة.

«وكانت حياة الرسول ﷺ فكرًا متصلًا، ودعوةً وتربيةً علىٰ النظر والتفكير، يبيت ليله عابدًا مفكرًا في آلاء الله وخلقه.

قال عبد الله بن عمر لعائشة رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ، فبكت وقالت: كل أمره كان عجبا، أتاني في ليلتي حتىٰ مس جلده جلدي، ثم قال: ذريني

---

(١) مجلة البيان، العدد ٥٦، ص ٦٠.

أتعبد لربي [عَزَّوَجَلَّ] قالت: فقلت: والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تعبد لربك، فقام إلىٰ القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي، فبكىٰ حتىٰ بل لحيته، ثم سجد فبكىٰ حتىٰ بل الأرض، ثم اضطجع علىٰ جنبه فبكىٰ، حتىٰ إذا أتىٰ بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله، ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر، فقال: «ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل علي في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران: ١٩٠] ثم قال: ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها»(١).

والمتتبع لحال السلف الصالح يرىٰ عنايتهم بالتفكر، ومن ذلك ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنهم في كتابه مفتاح دار السعادة حين قال: «سأل رجلٌ أم الدرداء بعد موته عن عبادته فقالت: كان نهاره أجمعه في بادية التفكر، وقال الحسن: تفكر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة، وقال الفضل: التفكر مرآةٌ تريك حسناتك وسيئاتك، وقيل لإبراهيم: إنك تطيل الفكرة فقال: الفكرة مخ العقل، وكان سفيان كثيرًا ما يتمثل: إذا المرء كانت له فكرةٌ ففي كل شيء له عبرة، وقال الحسن في قوله تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال: أمنعهم التفكر فيها، وقال الحسن: طول الوحدة أتم للفكرة، وطول الفكرة دليلٌ علىٰ طريق الجنة، وقال وهب: ما طالت فكرة أحدٍ قط إلا علم، وما علم امرؤٌ قط إلا عمل، وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله من أفضل العبادة، وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه وقد رآه مفكرًا: أين بلغت؟ قال: الصراط، وقال بشر: لو فكر الناس في

---

(١) منهج القرآن في التربية، محمد شديد، ص ١٢٥.

عظمة الله ما عصوه، وقال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر خيرٌ من قيام ليلةٍ بلا قلب، وقال أبو سليمان: الفكر في الدنيا حجابٌ عن الآخرة، وعقوبة لأهل الولاية، والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتجلي القلوب، وقال ابن عباس: التفكر في الخير يدعو إلىٰ العمل به، وقال الحسن: إن أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر علىٰ الفكر، والفكر علىٰ الذكر، ويناطقون القلوب حتىٰ نطقت بالحكمة، ومن كلام الشافعي: استعينوا علىٰ الكلام بالصمت، وعلىٰ الاستنباط بالفكرة، وهذا لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح، وأيضًا فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان علىٰ مالا يوقعه عليه العمل المجرد، فإن التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له وتمييز مراتبها في الخير والشر، ومعرفة مفضولها من فاضلها وأقبحها من قبيحها، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها، وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها، والتمييز بين ما ينبغي السعي في تحصيله وبين ما ينبغي السعي في دفع أسبابه، والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد إمكانها، وبين السبب المانع حقيقةً فيشتغل به دون الأول، فما قطع العبد عن كماله وفلاحه وسعادته - العاجلة والآجلة - قاطعٌ أعظم من الوهم الغالب علىٰ النفس، والخيال الذي هو مركبها بل بحرها الذي لا تنفك سابحةً فيه، وإنما يقطع هذا العارض بفكرةٍ صحيحة، وعزمٍ صادقٍ يميز به بين الوهم والحقيقة، وكذلك إذا فكّر في عواقب الأمور وتجاوز فكره مباديها وضعها مواضعها وعلم مراتبها، فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة فتجاوز فكره لذته، وفرح النفس به إلىٰ سوء عاقبته، وما يترتب عليه من الألم والحزن الذي

لا يقاوم تلك اللذة والفرحة، ومن فكر في ذلك فإنه لا يكاد يقدم عليه، وكذلك إذا ورد علىٰ قلبه وارد الراحة والدعة والكسل والتقاعد عن مشقة الطاعات وتعبها، حتىٰ عبر بفكره إلىٰ ما يترتب عليها من اللذات والخيرات والأفراح، التي تغمر تلك الآلام التي في مباديها بالنسبة إلىٰ كمال عواقبها، وكلما غاص فكره في ذلك اشتد طلبه لها وسهل عليه معاناتها استقبلها بنشاط وقوة وعزيمة، وكذلك إذا فكر في منتهىٰ ما يستعبده من المال والجاه والصور، ونظر إلىٰ غاية ذلك بعين فكره، استحىٰ من عقله ونفسه أن يكون عبدًا لذلك كما قيل: لو فكر العاشق في منتهىٰ حسن الذي يسبيه لم يسبه، وكذلك إذا فكر في آخر الأطعمة المفتخرة التي تفانت عليها نفوس أشباه الأنعام، وما يصير أمرها إليه عند خروجها ارتفعت همته عن صرفها إلىٰ الاعتناء بها، وجعلها معبود قلبه الذي إليه يتوجه، وله يرضىٰ ويغضب، ويسعىٰ ويكدح، ويوالي ويعادي، كما جاء في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله جعل طعام ابن آدم مثل الدنيا، وإن قزحه ملحه فإنه يعلم إلىٰ ما يصير**». أو كما قال، فإذا وقع فكره علىٰ عاقبة ذلك وآخر أمره، كانت نفسه حرةً أبيةً، ربأ بها أن يجعلها عبدًا لما آخره أنتن شيء وأخبثه وأفحشه.

إذا عُرف هذا، فالفكر هو إحضار معرفتين في القلب، ليستثمر منهما معرفةً ثالثةً، ومثال ذلك: إذا أحضر في قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها، وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله، ثم أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها ولذته ودوامه، وفضله علىٰ نعيم الدنيا، وجزم بهاذين العلمين، أثمر له ذلك علمًا ثالثًا وهو أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولىٰ عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة، ثم

له في معرفة الآخرة حالتان: إحداهما أن يكون قد سمع ذلك من غيره، من غير أن يباشر قلبه برد اليقين به، ولم يفض قلبه إلىٰ مكافحة حقيقة الآخرة وهذا حال أكثر الناس، فيتجاذبه داعيان: أحدهما داعي العاجلة وإيثارها وهو أقوىٰ الداعيين عنده؛ لأنه مشاهد له محسوس، وداعي الآخرة وهو أضعف الداعيين عنده؛ لأنه داعٍ عن سماع، والتفكر من أفضل أعمال القلب وأنفعها له.

فأصل كل طاعةٍ إنما هي الفكر، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة فإن الشيطان يصادف أرض القلب خاليةً فارغةً، فيبذر فيها حب الأفكار الردية، فيتولد منه الإرادات والعزوم، فيتولد منها العمل، فإذا صادف أرض القلب مشغولةً ببذر الأفكار النافعة فيما خلق له، وفيما أمر به وفيم هيئ له وأعد له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم، لم يجد لبذره موضعًا»[(١)].

«وقال عمر بن عبد العزيز لرجلٍ من جلسائه: أبا فلان لقد أرقت الليلة تفكرًا، قال: فيم يا أمير المؤمنين؟ قال: في القبر وساكنه، إنك لو رأيت الميت بعد ثالثةٍ في قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك بناحيته، ولرأيت بيتًا تجول فيه الهوام ويجري فيه الصديد وتخترقه الديدان، مع تغير الريح وبلىٰ الأكفان، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب. ثم شهق شهقةً وخر مغشيًا عليه، فقالت فاطمة: يا مزاحم ويحك أخرج هذا الرجل عنا، فلقد نغص علىٰ أمير المؤمنين الحياة منذ ولي، فليته لم يل، قال: فخرج الرجل فجاءت فاطمة تصب علىٰ وجهه الماء وتبكي حتىٰ أفاق من غشيته، فرآها تبكي فقال: ما يبكيك يا فاطمة؟ قالت: يا أمير المؤمنين رأيت مصرعك بين أيدينا فذكرت به مصرعك بين يدي الله للموت، وتخليك من الدنيا،

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٠- ١٨٣).

وفراقك لنا فذاك الذي أبكاني، فقال: حسبك يا فاطمة فلقد أبلغت، ثم مال ليسقط فضمته إلىٰ نفسها، فقالت: بأبي أنت يا أمير المؤمنين ما نستطيع أن نكلمك بكل ما نجد لك في قلوبنا، فلم يزل علىٰ حاله تلك حتىٰ حضرته الصلاة، فصبت علىٰ وجهه ماءً ثم نادته للصلاة يا أمير المؤمنين فأفاق فزعًا»(١).

«ونقل ابن رجب عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في رجل أكل فشبع وأكثر الصلاة والصيام ورجل أقل الأكل فقلت نوافله، وكان أكثر فكرةً أيهما أفضل؟ فذكر ما جاء في الفكر «تفكر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة». قال: فرأيت هذا عنده أكثر - يعني الفكر-. وهذا يدل علىٰ تفضيل قراءة التفكر علىٰ السرعة، وهو اختيار الشيخ تقي الدين، وهو المنصوص صريحًا عن الصحابة والتابعين»(٢).

«وقال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأبي صفوان: أيما أحب إليك أن يجوع الرجل فيجلس فيتفكر أو يأكل فيقوم فيصلي؟ قال: يأكل فيقوم فيصلي ويتفكر في صلاته هو أحب إلي، فحدثت به أبا سليمان فقال: صدق الفكر في الصلاة أفضل من الفكر في غير الصلاة، الفكر في الصلاة عملان، وعملان أفضل من عمل»(٣).

«والعبادة الحقة هي التي تجمع بين العلم والعمل، وبين الفقه والتفكر، وبين حسن العمل وحسن القصد»(٤).

والقرآن الكريم يخاطب العقل الذي يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز بين الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويتبصر ويتدبر ويحسن الإدكار والرواية، فهو

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٢٦٨- ٢٦٩).

(٢) القواعد لأبن رجب الحنبلي (١/ ٢٥).

(٣) كتاب العظمة للأصبهاني (١/ ٢٢٩- ٢٣٠).

(٤) مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٦٦، ربيع الأول ١٤٢٣هـ، ص ١٤٥.

العقل الذي يقابله الجمود والعنت والضلال، وليس بالعقل الذي قصاراه من الإدراك أنه يقابل الجنون، فإن الجنون يسقط التكليف في جميع الأديان والشرائع وفي كل عرفٍ وسنة، ولكن الجمود والعنت والضلال، غير مسقطةٍ للتكليف في الإسلام، وليس لأحدٍ أن يعتذر بها كما يعتذر للمجنون بجنونه، فإنها لا تدفع الملامة ولا تمنع المؤاخذة بالتقصير.

ونصوص القرآن الكريم تأتي مؤكدةً علىٰ ضرورة التعقل والتدبر والنظر في ملكوت السماوات والأرض، وتستحث العقل البشري علىٰ ضرورة البحث والمراجعة والتأمل، وتنعىٰ علىٰ المقلدة منهجهم، وتذمهم علىٰ جمودهم وعجزهم وقصورهم.

ومن طرق القرآن الكريم للدعوة إلىٰ التفكير الدعوة إلىٰ النظر، وتأتي أحيانًا بلفظ النظر وبلفظ الرؤية.

والنظر أو الرؤية قد تكون بالبصر الظاهر، أي بالعين المجردة، وهذا النظر يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات، وقد تكون بالبصيرة الباطنة، أي بالقلب، ويتفاوت الناس في هذا تفاوتًا عظيمًا، فمنهم من يأخذ بحظٍ وافرٍ منه، ومنهم من يأخذ بحظٍ يسيرٍ، والموفق من وفقه الله تعالىٰ، «والدعوة إلىٰ النظر تكون بعين البصر وعين البصيرة، حتىٰ نستدل بها علىٰ ما تدل عليه من آيات الله، من قُدرة وعلم ورحمة وحكمة وغير ذلك»[(١)].

والسير المأمور به في القرآن الكريم الذي يتولد عنه التفكير النافع هو: «سير

---

(١) شرح رياض الصالحين، محمد بن عثيمين (٢/ ٥٤٨).

القلوب والأبدان الذي يتولد منه الاعتبار، وأما مجرد النظر من غير اعتبار فإن ذلك لا يفيد شيئًا»(١).

وأما «سير البدن الخالي من التفكر والاعتبار فغير مفيدٍ ولا موصلٍ إلىٰ المطلوب»(٢).

«ومن مقاصد القرآن الكريم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال عن الخلق بمعرفة الرب جل جلاله، وذلك بالتفكر في آياته الشرعية وآياته الكونية»(٣).

«والتفكير نعمةٌ ربانيةٌ، اختص بها رب العزة والجلال الإنسان عن بقية المخلوقات، فمن كان تفكيره سليمًا ومستقيمًا هداه الرب جل جلاله إلىٰ معرفته حق المعرفة، ووفقه لعبادته علىٰ بصيرةٍ وعلمٍ ونور»(٤).

«إن قليلًا من الإمكانات والوسائل مع كثيرٍ من الفكر والتخطيط والفاعلية التنظيمية والحركية أعود علىٰ الأمة بالخير والنفع من أكداس الأشياء الضائعة والمهملة... وحينما تصاب أمةٌ بدمارٍ شديدٍ أو زلزالٍ ماحقٍ فإنه يبقىٰ لها بعد انهيار بنيانها شيآن: مبادئها السامية الكامنة في شخصيتها الاجتماعية، وأفكارها وخبراتها التاريخية والحضارية، وهي تستطيع من خلالهما استعادة كل ما فقدته عندما تتوفر إرادة تجاوز المحنة، فقد دمرت الحرب كل شيء في ألمانيا، ولم يبق لديها إلا مخزون الأفكار وعزيمة الانتصار، فتمكنت من إعادة بناء مصانعها علىٰ ضوء

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٢٥١).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٥٤١).

(٣) التفسير الكبير (٩/ ١٠٩) بتصرف.

(٤) مجلة البيان، العدد ١٣٢، ص ١٤.

الشموع بعد اندحار الهتلرية، وهكذا فإن أمةً كأمتنا تستطيع بتوفيق الله أن تنجز الكثير، وتستعيد الكثير إذا ما استطاعت صياغة أفكارها من جديد، وتلمس سبل النجاة والفلاح»(١).

والأمم عمومًا تحيا بعقول أفرادها، وتنمو بتفكيرهم، ولا شك أن التفكير في حق أبناء الأمة الإسلامية أوجب وأوكد؛ لأنها أمة الهدىٰ ودين الحق.

و «التفكير الجيد شرطٌ لتنمية كل شيء في الحياة: التربية والاجتماع والاقتصاد والسياسة والعلاقات»(٢).

❑ طرق التفكير:

١- التفكير بالنظر بالعين، والنظر بالقلب، فإذا توافق النظر بالعين والنظر بالقلب كان التفكير مثمرًا وله نتائج إيجابية بإذن الله تعالىٰ، وهذا من أكمل الأحوال في التفكير.

٢- النظر بالقلب عند التفكير، دون نظر العين، وقد يحصل ذلك لكفيف البصر، فكم من كفيف للبصر يفكر وينتج عن تفكيره أمورٌ محمودةٌ ومفيدة، وقد ينظر بقلبه مع أنه مبصر العينين، لعدم حاجته أحيانًا للنظر بالعينين عند التفكير في بعض الأمور.

٣- التفكير بالنظر بالعينين دون النظر بالقلب، وهذا لا ينفع إلا أهل الإيمان والقلوب السليمة، الذين يعلمون الهدف من الخلق وهو عبادة الله تعالىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

---

(١) مجلة البيان، العدد ٩٦، ص ٨٨.

(٢) مجلة البيان، العدد ١٣٦، ص ٤٢.

❑ طرق تحسين التفكير:

«العقل أداة التفكير، وتنمية العقل تنميةٌ لجانب التفكير لدىٰ الإنسان... وجوانب الشخصية الإنسانية كلها تابعة للتفكير الذي هو السيد، وباقي مكونات الشخصية تبعٌ له.

فإذا حسنت ملكة التفكير لدىٰ الإنسان كان ذلك أساسًا ومنطلقًا ليحسن كل ما عداه»[(١)].

والتفكير يمكن أن يتحسن لعموم قول النبي ﷺ: «**إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه**»[(٢)].

ولتحسين التفكير طرقٌ منها:

١- الإكثار من قراءة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولا بد أن تكون هذه القراءة بتدبر وتأمل.

٢- الحوار الهادف مع أشخاصٍ عقلاءٍ منصفين أصحاب تجارب.

٣- القراءة المفيدة والمركزة في الكتب النافعة والأساسية، فالقارئ الواعي يستفيد من خبرات وتجارب الآخرين ممن يقرأ لهم.

٤- الخلوة مع النفس بين الحين والآخر يقول أحمد بن عاصم الأنطاكي: «التمس وجود الفكر في مواطن الخلوات»[(٣)].

«وتجتنىٰ ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء: أحدها قصر الأمل والثاني تدبر القرآن

---

(١) خطوة نحو التفكير القويم، د/ عبدالكريم بكار، ص ١١-١٢.

(٢) السلسلة الصحيحة، (١/ ٣٤١)، المؤلف/ محمد ناصر الدين الألباني.

(٣) حلية الأولياء (٩/ ٢٨٨).

والثالث تجنب مفسدات القلب الخمسة وهي: كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام»(١).

والتفكير من العبادات القلبية، التي أمر العبد أن ينميها بالنظر في الآيات الكونية، والآيات الشرعية «القرآن الكريم والسنة المطهرة».

«ولا بد من العناية بالفكرة والتطبيق معًا، بالهدف والوسيلة، بالكم والكيف»(٢).

والتفكير غالبًا ما يكون في حالتين:

١- التفكير في حل مشكلةٍ ماضيةٍ، أو مشكلةٍ قائمةٍ، أوفي ترتيب الحل لمشكلةٍ متوقعة.

٢- التفكير في مشروعٍ جديدٍ، أو التفكير في تطوير مشروعٍ قائم، والمشروع هو: «عمل يراد القيام به لتحقيق أهداف معينة».

وعند التفكير في حل مشكلة معينة لا بد أن تمر بالخطوات التالية:

١- تحديد المشكلة بدقة، ومعرفة أسبابها «بماذا تفكر؟».

٢- تحديد الهدف من حل المشكلة «لماذا تفكر؟».

٣- تحديد الحلول الممكنة، واختيار أفضلها، ومتابعة تنفيذها «كيف تصل إلىٰ ما تريد علىٰ وجه أفضل؟».

وعند التفكير في مشروع معين لا بد أن يمر بالخطوات التالية:

١- تحديد الأهداف التي يجب أن يحققها المشروع.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤٩) (بتصرف يسير).

(٢) خطوة نحو التفكير القويم، د/ عبدالكريم بكار، ص ١١.

٢- تحديد البدائل الممكنة.

٣- اختيار أفضل البدائل ومتابعة تنفيذه[١].

وللتفكير دور كبيرٌ في تحسين كثيرٍ من الأمور، فالأعمال لا تتحسن إلا بالتفكير، ومجال التربية والتعليم لن يتحسن إلا بالأفكار التطويرية والإبداعية، وتعديل الأخلاق والسلوك غير المرغوب فيها لن يتحقق إلا بالتفكير في الوسائل والطرق المناسبة لتبديل الضار بالنافع، والسيئ بالحسن.

الفرق بين التفكر والتدبر والتذكر والاعتبار والاستبصار:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا يسمىٰ تفكرًا، وتذكرًا، ونظرًا، وتأملًا، واعتبارًا، وتدبرًا واستبصارًا، وهذه معانٍ متقاربةٌ، تجتمع في شيءٍ وتتفرق في آخر، ويسمىٰ تفكرًا لأنه استعمال الفكرة في ذلك وإحضاره عنده، ويسمىٰ تذكرًا لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١] ويسمىٰ نظرًا لأنه التفاتٌ بالقلب إلىٰ المنظور فيه، ويسمىٰ تأملًا لأنه مراجعةٌ للنظر كرةً بعد كرة، حتىٰ يتجلىٰ له وينكشف لقلبه، ويسمىٰ اعتبارًا وهو افتعال من العبور؛ لأنه يعبر منه إلىٰ غيره، فيعبر من ذلك الذي قد فكر فيه إلىٰ معرفةٍ ثالثةٍ وهي المقصود من الاعتبار، ولهذا يسمىٰ عبرةً، وهي علىٰ بناء الحالات كالجلسة والركبة والقتلة، إيذانًا بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالًا لصاحبه يعبر منه إلىٰ المقصود به، وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦﴾ [النازعات:٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ويسمىٰ تدبرًا لأنه نظرٌ في أدبار الأمور، وهي أواخرها وعواقبها، ومنه

---

(١) مجلة البيان، العدد ١٣٢، ص ١٤، بتصرف يسير.

تدبر القول، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره، ثم يعيد نظره مرةً بعد مرة، ولهذا جاء علىٰ بناء التفعل، كالتجرع والتفهم والتبين، وسمىٰ استبصارًا وهو استفعال من التبصر، وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة، وكلٌّ من التذكر والتفكر له فائدةٌ غير فائدة الآخر، فالتذكر يفيد تكرار القلب علىٰ ما علمه وعرفه، ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة، والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلًا عند القلب، فالتفكر يحصله والتذكر يحفظه، ولهذا قال الحسن: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر علىٰ التفكر، وبالتفكر علىٰ التذكر، ويناطقون القلوب حتىٰ نطقت بالحكمة، فالتفكر والتذكر بذار العلم، وسقيه مطارحته، ومذاكرته تلقيحه، كما قال بعض السلف: ملاقاة الرجال تلقيحٌ لألبابها، فالمذاكرة بها لقاح العقل، فالخير والسعادة في خزانة، مفتاحها التفكر، فإنه لا بد من تفكرٍ وعلمٍ يكون نتيجته الفكر، وحال يحدث للقلب من ذلك العلم فإن كل من عمل شيئًا من المحبوب أو المكروه لا بد أن يبقىٰ لقلبه حالةٌ وينصبغ بصبغةٍ من علمه»(١).

«والتذكر والتفكر منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكره علىٰ تذكره، وبتذكره علىٰ تفكره، حتىٰ يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم»(٢).

والقرآن الكريم معجزة الله الخالدة والباقية ما بقيت السماوات والأرض، وهو

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٢– ١٨٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٤١).

معجزٌ بألفاظه ومعانيه، وبأحكامه ومبانيه، معجزٌ من جميع الوجوه، ولذلك دعا العليم الحكيم إلىٰ التفكر فيه فقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]، وفي هذه الآية حكمتان لنزول القرآن الكريم، الحكمة الأولىٰ: أن يقوم الرسول ﷺ بتفسير ما خفي علىٰ الناس من معاني بعض الآيات، وتوضيح ما خفي، وتفصيل ما أجمل.

والحكمة الثانية: التفكر في آيات الله القرآنية، والاتعاظ بها، والعمل بمقتضاها، فعجائب القرآن الكريم لا تنقضي للمتفكرين لأساليبه البديعة الفائقة، ومعانيه العالية الرائقة.

قال السعدي عن الآية السابقة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه(١).

ويقول ابن القيم: «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامعٌ لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكرٍ حتىٰ مر بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلةً، فقراءة آيةٍ بتفكرٍ وتفهمٍ خيرٌ

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٤١).

من قراءة ختمة بغير تدبرٍ وتفهمٍ، وأنفع للقلب وأدعىٰ إلىٰ حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلىٰ الصباح، وقد ثبت عن النبي أنه قام بآيةٍ يرددها حتىٰ الصباح وهي قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة: ١١٨] فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب»[١].

وقال: «الفكر علىٰ تدبره «أي القرآن الكريم» وتعقله، وهو المقصود بإنزاله لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال الله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص: ٢٩] وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد: ٢٤] وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: ٣] وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملًا، فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلىٰ نجاته: من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع منه الفكر علىٰ معاني آياته... «وبعد أن ذكر مجموعةً من الفوائد والحكم في تأمل القرآن وتدبره قال: وفي تأمل القرآن وتدبره وتفهمه: أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد»[٢].

ومن الأمور المهمة التي يجب التنبيه عليها عند قراءة أي بحثٍ أو كتابٍ أن يتفكر ويتدبر من يقرأ كلام الله أكثر من غيره مما كتب من كلام البشر، فكلام الله خير وأحسن وأصدق وأبلغ من كلام البشر.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٥١ – ٤٥٣).

«ومن يتفكر ويتدبر في القرآن الكريم يجد فيه آياتٌ باهرةٌ في إقامة الدلائل علىٰ التوحيد والمعاد، والإيمان بالرسل، والكتب، ولفت الأنظار والأفكار إلىٰ آيات ذلك في الآفاق والأنفس والآلاء والآيات الخارقة، وكذلك ما فيه من الأحكام والتشريعات التي تحقق للعباد مصالحهم العظيمة في معاشهم ومعادهم»(١).

«والقرآن الكريم دعا إلىٰ تدبر الآيات القرآنية وتعلمها، ونهىٰ عن الخوض فيها بغير عدتها الواجبة من العلم والتبيّن والتفكير»(٢).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَهُذُّوا الْقُرْآنَ، كَهَذِّ الشِّعْرِ، وَلَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»....

والتفكر في القرآن نوعان: تفكرٌ فيه ليقع علىٰ مراد الرب تعالىٰ منه، وتفكرٌ في معاني ما دعا عباده إلىٰ التفكر فيه، فالأول: تفكرٌ في الدليل القرآني، والثاني: تفكرٌ في الدليل العياني، فالأول تفكرٌ في آياته المسموعة، والثاني تفكرٌ في آياته المشهودة، ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به، لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه.

قال الحسن البصري: «أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملًا»(٣).

والتفكر في القرآن الكريم لا بد أن تكون نتيجته إرادةً في القلب تدفع للعمل الصالح.

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون: ٦٨].

---

(١) أفلا تتفكرون، عبد العزيز الجليل، ص ٤٩.
(٢) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ص ١٠٤.
(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

و «التدبر: عبارةً عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريبٌ من التفكر، إلا أن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب»(١).

«والتدبر: إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نصبت له، وأصله أنه من النظر في دُبُر الأمر، أي فيما لا يظهر منه للمتأمل بادئ ذي بدء»(٢).

والآية السابقة تعني: «أفلا يتفكرن في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه، أي فإنهم لو تدبروه لأوجب لهم الإيمان ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه، ودل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أقفالها»(٣).

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]. و «تدبر الأمر تأمله والنظر في أدباره وما يؤول إليه، في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل، فمعنى تدبر القرآن تأمل معانيه وتبصر ما فيه»(٤).

فالله سبحانه وتعالى: «يأمر بتدبر كتابه، وهو: التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك. فإن في تدبر كتاب الله مفتاحًا للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم. وبه يزداد الإيمان في القلب، وترسخ شجرته فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات النقص ويعرف الطريق الموصلة إليه، وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو، الذي هو العدو على الحقيقة؛ والطريق الموصلة إلى العذاب؛ وصفة أهلها؛ وما لهم عند

(١) التعريفات للجرجاني (١/ ١٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٨٧).
(٣) تفسير السعدي (١/ ٥٥٤).
(٤) الكشاف للزمخشري (١/ ٥٧١).

وجود أسباب العقاب، وكلما ازداد العبد تأملًا فيه، ازداد علمًا، وعملًا، وبصيرةً، ولذلك أمر الله بذلك، وحث عليه، وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]. وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]. ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك، يصل العبد إلىٰ درجة اليقين، والعلم بأنه كلام الله؛ لأنه يراه، يصدق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا، فترىٰ الحكم والقصة والأخبار تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقةٌ متصادقةٌ، لا ينقض بعضها بعضًا، فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور»[(١)].

فقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يعني أفلا يتفكرون في القرآن، والتدبر هو النظر في آخر الأمر ودبر كل شيء آخره... أفلا يتفكرون فيه فيعرفوا بعدم التناقض فيه وصدق ما يخبر أنه كلام الله تعالىٰ؛ لأن مالا يكون من عند الله لا يخلو عن تناقضٍ واختلافٍ»[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]. «يقول تعالىٰ ذكره: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله علىٰ نبيه عليه الصلاة والسلام، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ يقول: أم أقفل الله علىٰ قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر»[(٣)].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ١٨٩- ١٩٠).

(٢) تفسير البغوي (١/ ٤٥٦).

(٣) تفسير الطبري (٢٦/ ٥٧).

وقال السعدي: «أي: فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلهم علىٰ كل خيرٍ، ولحذرهم من كل شرٍ، ولملأ قلوبهم من الإيمان، وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلىٰ المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبين لهم الطريق الموصلة إلىٰ الله، وإلىٰ جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلىٰ العذاب، وبأي شيءٍ يحذر، ولعرفهم بربهم، وأسمائه وصفاته، وإحسانه، ولشوقهم إلىٰ الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الوبيل. ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾، أي: قد أغلق علىٰ ما فيها من الإعراض والغفلة والاعتراض، وأقفلت فلا يدخلها خيرٌ أبدًا؟ هذا هو الواقع»(١).

وتدبر القرآن يزيل الغشاوة عن القلب، ويفتح النوافذ علىٰ الحياة الحقيقية، ويسكب النور علىٰ الروح، ويحرك المشاعر، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير.

وقال تعالىٰ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: ٢١]. فقوله تعالىٰ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي من شأنه وعظمته، وجودة ألفاظه وقوه مبانيه وبلاغته، واشتماله علىٰ المواعظ التي تلين لها القلوب، أنه لو أنزل علىٰ جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيته مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الجرم خاشعًا متصدعًا، أي متشققًا من خشية الله سبحانه، حذرًا من عقابه، وخوفًا من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله، وهذا تمثيلٌ وتخييلٌ يقتضىٰ علو شأن القرآن، وقوة تأثيره في القلوب ويدل علىٰ

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٧٨٨).

هذا قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ وينزجروا بالزواجر، وفيه توبيخٌ وتقريعٌ للكفار، حيث لم يخشعوا للقرآن ولا اتعظوا بمواعظه ولا انزجروا بزواجره»(١).

«فإن هذا القرآن لو أنزل علىٰ جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله، أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن، أعظم المواعظ علىٰ الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتويةٌ علىٰ الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل الأشياءِ علىٰ النفوس، وأيسرها علىٰ الأبدان، خاليةً من التكلف لا تناقض فيها، ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها، ولا اعتساف، تصلح لكل زمانٍ ومكانٍ، وتليق لكل أحد.

ثم أخبر تعالىٰ أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها، فإن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه علىٰ مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكير في القرآن، والتدبر لمعانيه»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص: ٢٩]. «والتدبر: التفكر والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وإنما يكون ذلك في كلام قليل اللفظ كثير المعاني التي أودعت فيه، بحيث كلما ازداد المتدبر تدبرًا انكشفت له معانٍ لم تكن باديةً له بادئ النظر.

والتذكُّر: استحضار الذهن ما كان يعلمه، وهو صادقٌ باستحضار ما هو منسي وباستحضار ما الشأن ألا يُغفل عنه، وهو ما يهمّ العلم به، فجُعل القرآن للناس ليتدبروا معانيه، ويكشفوا عن غوامضه بقدر الطاقة، فإنهم علىٰ تعاقب طبقات

---

(١) فتح القدير (٥/ ٢٠٧).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٨٥٣ - ٨٥٤).

العلماء به لا يصلون إلىٰ نهايةٍ من مكنونه، ولتذكرهم الآية بنظيرها وما يقاربها، وليتذكروا ما هو موعظةٌ لهم وموقظٌ غفلاتهم»(١).

فالقرآن الكريم نزل ليتفكر فيه الناس، يتفكروا بما فيه من آياتٍ عظيمةٍ، وحكمٍ حكيمةٍ، وتوجيهاتٍ بليغةٍ، وآدابٍ وأخلاقٍ قويمةٍ، وأوامرٍ ونواهي، وقصصٍ وعبرٍ، وكلِ ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة. «ففي الآية دليلٌ علىٰ أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر»(٢).

«وتدبر الآيات: التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدي إلىٰ معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأن من اقتنع بظاهر المتلو، لم يحل منه بكثير طائل وكان مثله كمثل من له لقحةٌ درورٌ لا يحلبها، ومهرةٌ نثورٌ لا يستولدها. وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيدٌ وصبيانٌ لا علم لهم بتأويله: حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتىٰ إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله، ما يرىٰ للقرآن عليه أثر في خلقٍ ولا عملٍ، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء، اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين، وأعذنا من القراء المتكبرين»(٣).

فالقرآن الكريم نزل «ليتفكروا في آياته، التي من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع، فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من المعاني الفائقة والتأويلات اللائقة»(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٥٢).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٣٠).

(٣) الكشاف (٤/ ٩٢).

(٤) تفسير أبي السعود (٧/ ٢٢٥).

فقوله تعالىٰ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرةً بعد مرةٍ، تدرك بركته وخيره.

وهذا يدل علىٰ الحث علىٰ تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة علىٰ التدبر، أفضل من سرعة التلاوة، التي لا يحصل بها هذا المقصود. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علمٍ ومطلوبٍ، فدل هذا علىٰ أنه بحسب لب الإنسان وعقله، يحصل له التذكر والانتفاع، بهذا الكتاب»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [القمر: ١٧] يقول السعدي: «أي ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم؛ لأنه أحسن الكلام لفظًا، وأصدقه معنىٰ، وأبينه تفسيرًا، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شاملٌ لكل ما يتذكر به العالمون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظًا وتفسيرًا، أسهل العلوم، وأجلها علىٰ الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أعين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان [عليه]؟ ولهذا يدعو الله عباده إلىٰ الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾(٢).

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٧١٢).
(٢) تفسير السعدي (١/ ٨٢٦).

وهذا القرآن العظيم حاضرًا في نفوس محبيه، سهل التناول بالأيدي، ميسر الإدراك بالقلوب، فيه جاذبيةٌ ليقرأ ويتدبر لمن أقبل عليه بصدق... وكلما تدبره القلب عاد منه بزاد جديد، وكلما صحبته النفس زادت له ألفةً وبه أنسًا.

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان: ٥٨]. «يقول تعالىٰ ذكره لنبيه محمد ﷺ: فإنما سهلنا قراءة هذا القرآن الذي أنزلناه إليك يا محمد بلسانك - ليتذكر هؤلاء المشركون - الذين أرسلناك إليهم - بعبره وحججه، ويتعظوا بعظاته ويتفكروا في آياته، إذا أنت تتلوه عليهم، فينيبوا إلىٰ طاعة ربهم ويذعنوا للحق عند تبينهموه»(١).

قال مطرف بن الشخير: «إني لأستلقي من الليل علىٰ فراشي فأتدبر القرآن، وأعرض عملي علىٰ عمل أهل الجنة فإذا أعمالهم شديدة، ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾، فلا أراني فيهم، فأعرض نفسي علىٰ هذه الآية: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾، فأرىٰ القوم مكذبين، وأمر بهذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾، فأرجو أن أكون أنا وأنتم يا إخوتاه منهم»(٢).

والتفكير في آيات القرآن الكريم يكسب الفرد الأمن والطمأنينة، ويعلم أنه حتىٰ وإن أصابه شرٌ في الدنيا ففيه خيرٌ له وهو لا يعلم، وبالتالي يصبر ويحتسب، بل ويأخذ درسًا حتىٰ وإن كان في حالة الفرح والخير ألا يأخذه الغرور والتكبر؛ لأن ذلك قد

---

(١) تفسير الطبري (٢٥/ ١٣٨)، مصدر سابق.

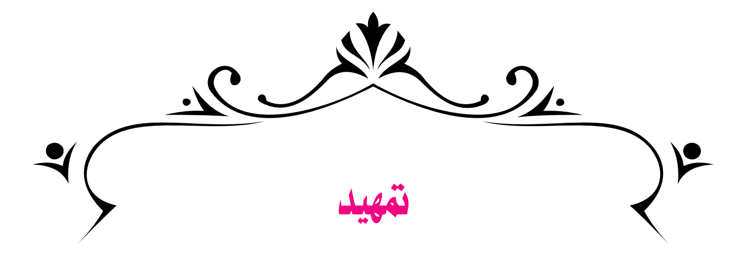
(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٩٨)، مصدر سابق.

يكون شرًا عليه وهو لا يعلم، امتثالًا لقوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

الفصل الثاني
أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى التفكير

وفيه أربعة مباحث:

- ☐ **المبحث الأول**: أمر الله الناس بالتفكير.
- ☐ **المبحث الثاني**: حث الأنبياء أقوامهم علىٰ التفكير.
- ☐ **المبحث الثالث**: الثناء علىٰ من يفكر.
- ☐ **المبحث الرابع**: ذم من لا يفكر.



تمهيد

المتتبع لنصوص القرآن الكريم يجد أنه يستخدم عدة أساليب للدعوة إلىٰ التفكير، وتنوع هذه الأساليب مفيدٌ لتنوع طبائع نفوس الناس، فما يصلح لإنسان قد يكون غيره أنفع لإنسانٍ أخر، كما أنه مفيدٌ لتغير الزمان والمكان، فما يصلح لزمانٍ قد يكون غيره أنفع لزمانٍ أخر، وما ينفع لمكانٍ قد يكون غيره أنفع لمكانٍ أخر، وهذه الخاصية لا توجد إلا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فالشريعة الإسلامية صالحةٌ لكل زمانٍ ومكانٍ، بخلاف الأنظمة والقوانين البشرية، وبخلاف ما يطرح من أساليب للتربية والتعامل مع الآخرين طرحًا نظريًا في كتبٍ أو محاضراتٍ أو لقاءاتٍ أو ندوات.

وفي هذا الفصل نتطرق لأساليب القرآن الكريم في الدعوة إلىٰ التفكير، في أربعة مباحث.



المبحث الأول
أمر الله الناس بالتفكير

لقد حث الله ﷻ الإنسان علىٰ التفكير في الكون، والنظر في الظواهر الكونية المختلفة، وتأمل بديع صنعه ومحكم نظامه، كما حثه علىٰ تحصيل العلم، ومعرفة سنن الله وقوانينه في جميع ميادين العلوم المختلفة، ونحن نجد هذه الدعوة إلىٰ الملاحظة والتفكير والبحث والتحصيل العلمي في أكثر من موضع في القرآن الكريم.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

ففي هذه الآيات وأمثالها دعوةٌ صريحةٌ إلىٰ النظر والملاحظة والتفكير والبحث العلمي ويتضح حرص القرآن الكريم علىٰ دعوة الناس إلىٰ التفكير من ورود كثيرٍ من الآيات التي تتضمن مثل هذه العبارات: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فآيات القرآن الكريم أكثرها تستدعي التفكير، وتحث العقل البشري علىٰ التمعن في قدرة الخالق سبحانه، وفي مسببات الأمور حتىٰ وإن لم تنته الآيات بالتذكير والتفكير والتدبر.

والقرآن الكريم لا يدعو للتفكير فقط، بل وينمي التفكير بمهاراتٍ معينةٍ من

شأنها أن تساعد علىٰ التفكير، إذ يزود بالأمثلة والمعلومات السابقة واللاحقة التي يمكن أن نأخذ منها الدروس والعبر.

والتفكير لا يأتي من فراغٍ بدون معلوماتٍ لدىٰ الفرد، فقد نبه الباري جل جلاله عن هذه المعلومات واختار أكثرها التصاقًا به، مثل تكوين النفس البشرية وما حولها من مخلوقاتٍ تدل علىٰ صفات الخالق المبدع، حيث يقول الله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ١٢].

و«بعد أن كانت العقول أسيرة الأوهام والخرافات، محصورةً في حيز الأرض لا تُحلّق ولا ترتفع، حبيسة العقائد الفاسدة، أطلقها القرآن من إسارها، وأخرجها من محبسها وضيقها، ودعاها إلىٰ النظر والتفكير، وساح بها من المنشأ إلىٰ المصير، وطاف بها علىٰ بدائع صنع الله في السماء والأرض، وجعل لها الكون محرابًا للفكر والتدبر والاعتبار ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٢ - ٤]»[1].

وهناك آياتٌ عديدةٌ في القرآن الكريم حثت علىٰ التفكير، ومدح رب العزة والجلال المتصفين بهذه الصفة في كتابه الكريم، في مواضع عديدةٍ ختمت بقوله تعالىٰ:

---

(١) منهج القرآن في التربية، محمد شديد، ص ١٢٣ - ١٢٤.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. [الرعد: ٣، الروم: ٢١، الزمر: ٤٣، الجاثية: ٣١].

«فالقرآن حرر العقول وطالبها بالتفكير والتدبر، وأشاع فيها اليقظة والنور... وكانت الرسالات السابقة تعتمد في الإقناع علىٰ المعجزات الحسية التي ترغم علىٰ التصديق والإيمان، فجاء القرآن بمنهجٍ جديدٍ يتفق مع ما يراد للبشرية من اكتمالٍ ورشدٍ، منهج العقل والتدبر، والنظر والتفكير، لا يعتمد علىٰ قسرٍ أو معجزةٍ، طليقٌ من كل قيدٍ أو إكراهٍ... كانت معجزته ﷺ الكبرىٰ هي القرآن، وهي معجزةٌ عقليةٌ خالدةٌ، تدعو إلىٰ التدبر والتفكير»(١).

يقول الغزالي في الإحياء: «قد أمر الله تعالىٰ بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصىٰ، وأثنىٰ علىٰ المتفكرين فقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١] »(٢).

والقرآن الكريم يخاطب العقل ويوجهه إلىٰ التفكير، والتأمل والبحث والنقد والتعمق في جوانب العلم عمومًا، علم الكون وعلم الإنسان، وما يحيط به من كائناتٍ، وعلم التاريخ وقوانينه والمجتمع وضرورته في الزمن.

فالقرآن ليس غذاءً للقلب وأعماق الإنسان فحسب، ولكنه غذاءٌ لعقل الإنسان ومنطقه وفكره، وطريقة البحث والعلم وإقامة الحجة والبرهان، والجدل بالتي هي أحسن فبهاذين الأسلوبين في الخطاب يذعن الإنسان للحق، إذعانًا عقليًا قائمًا علىٰ الحجة والبرهان كما يذعن إذعانًا روحانيًا قائمًا علىٰ فطرة القلب ووجدانه.

---

(١) منهج القرآن في التربية، محمد شديد، ص ١١٦ – ١١٩.

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٣).

ويقول تعالىٰ آمرًا بالتفكير: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١٨٤﴾ [الأعراف: ١٨٤]. «قال الحسن وقتادة: إن النبي ﷺ قام ليلًا علىٰ الصفا يدعو فخذًا فخذًا من قريش، فقال: يا بني فلان، يا بني فلان، وكان يحذرهم بأس الله وعقابه، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنونٌ، واظب علىٰ الصياح طول هذه الليلة، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية، وحثهم علىٰ التفكر في أمر الرسول ﵇، ليعلموا أنه إنما دعا للإنذار لا لما نسبه إليه الجهال. ففي قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ أمر بالفكر والتأمل والتدبر والتروي لطلب معرفة الأشياء كما هي، عرفانًا حقيقيًا تامًا»(١).

«والاستفهام في ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ للإنكار عليهم، حيث لم يتفكروا في شأن رسول الله ﷺ، وفيما جاء به»(٢).

ففي هذه الآية دعوةٌ للتفكير، ولذلك يقول السعدي في تفسيره: «أي أو لم يُعملوا أفكارهم، وينظروا هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفىٰ عليهم من حاله شيءٌ، هل هو مجنونٌ؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه وعدله وصفاته، وينظروا فيما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين ولا يدعو إلا لكل خيرٍ، ولا ينهىٰ إلا عن كل شرٍ، أفبهذا يا أولي الألباب جنةٌ أم هو الإمام العظيم، والناصح المبين والماجد الكريم، والرؤوف الرحيم، ولهذا قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١٨٤﴾ [الأعراف: ١٨٤] أي يدعو الخلق إلىٰ ما ينجيهم من العذاب ويحصل لهم الثواب»(٣).

---

(١) التفسير الكبير (١٥/ ٦٢).

(٢) فتح القدير (٢/ ٢٧١).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣١٠).

«ويظهر من رصف الآية أنها باعثةٌ لهم علىٰ الفكرة في أمر محمدٍ ﷺ وأنه ليس به جِنّةٌ، كما أحالهم بعد هذه الآية علىٰ النظر، ثم بين المنظور فيه، كذلك أحال هنا علىٰ الفكرة ثم بين المتفكر فيه»(١).

«فمعنىٰ الآية: أولم يتفكروا فيعلموا ما بصاحبهم من جِنّةٍ أي جنون فحثهم علىٰ التفكر في أمره ليعلموا أنه بريءٌ من الجنون»(٢).

فالقرآن الكريم يدعو قريشًا إلىٰ التفكر والتدبر في أمر صاحبهم محمد عليه الصلاة والسلام، الذي عرفوه من قبل فلم يعرفوا عنه من قبل خللًا ولا خبلًا؛ وشهدوا له بالأمانة والصدق والحكمة وحسن الحكم، وحكموه في الحجر الأسود وارتضوا حكمه، واتقوا بهذا الحكم فتنةً بينهم كادت تثور، واستأمنوه علىٰ ودائعهم وأموالهم وظلت عنده حتىٰ خرج مهاجرًا إلىٰ المدينة، فردها لهم عنه ابن عمه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ!

فالقرآن يدعوهم إلىٰ التفكر والتدبر في أمر صاحبهم المعروف لهم ماضيه كله، المكشوفة لهم حياته كلها، أفهذا به جِنّةٌ؟ أفهذا قوله قول مجنونٍ أو فعله فعل مجنونٍ؟ كلا: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ١٨٤﴾ [الأعراف: ١٨٤] لا اختلاط في عقله ولا في قوله ولا في فعله، إنما هو منذرٌ مبينٌ لا يلتبس قوله بقول المجانين، ولا تشتبه حاله بحال المجانين.

ويقول تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾ [سبأ: ٤٦] ففي هذه الآية أمر بالتفكر في حال نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام، «ومعنىٰ تفرقهم مثنىٰ وفرادىٰ

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٤٨٣).

(٢) زاد المسير (٣/ ٢٩٦).

أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويعمىٰ البصائر، ويمنع من الرؤية، ويقل الإنصاف فيه، ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المذهب»[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الروم: ٨].

وفي هذه الآية دعوةٌ للتفكير، حيث أمر ربنا - جل جلاله - الكفار أن يتفكروا في أنفسهم وفي أطوار خلقها، أو أن يتفكروا تفكرًا مستقرًا في أنفسهم، فلو تفكروا تفكيرًا صحيحًا سليمًا لعلموا وأيقنوا أن الله تعالىٰ ما خلق السماوات والأرض إلا ملتبسةً بالحق الذي لا يشوبه باطلٌ، وبالحكمة التي لا يحوم حولها عبثٌ، وهذا التفكير من شأنه أن يهدي إلىٰ الحق وطريقٍ مستقيمٍ، وأن لهذه المخلوقات أجلًا محددًا وهو قيام الساعة، لكن الكفار في تكذيبٍ وغفلةٍ عن هذا اليوم وما فيه من حساب وجزاء. «والتفكر: إعمال الفكر، أي الخاطر العقلي للاستفادة منه، وهو التأمل في الدلالة العقلية»[(٢)].

ويقول تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: ٤٣-٤٤]. ففي قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي ونزلنا إليك أيها الرسول القرآن الكريم، ونزوله كما في هذه الآية لحكمتين، الأولىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي لتبين يا محمد للناس ما نّزّل إليهم من تشريعات وآداب وأخلاق وأحكام ومواعظ، ولعلهم بهذا البيان يتفكروا فيما

(١) تفسير النسفي (٣/ ٣٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٥١).

أرشدتهم إليه، فيعملوا بهديك ويقتدوا بك في أقوالك وأفعالك، وبذلك يفوزوا ويسعدوا، وأما الحكمة الثانية: فهي التفكر في آيات هذا القرآن الكريم والاتعاظ بها، والعمل بمقتضاها.

و«عطف ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ حكمةٌ أخرىٰ من حِكَم إنزال القرآن، وهي تهيئة تفكّر الناس فيه وتأمّلهم فيما يقرّبهم إلىٰ رضىٰ الله تعالىٰ، فعلىٰ الوجه الأول في تفسير ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ يكون المراد أن يتفكّروا بأنفسهم في معاني القرآن وفهم فوائده، وعلىٰ الوجه الثاني أن يتفكّروا في بيانك ويعوه بأفهامهم»(١).

فقوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ دعوة للتفكر في آيات الله الكونية، وآيات الله القرآنية، فإن القرآن يدعو دائمًا إلىٰ التفكر والتدبر، وإلىٰ يقظة الفكر والشعور.

وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنعام: ٥٠].

فالتفكر مطلوب شرعًا، والحض عليه منهج قرآني فريد؛ ولكنه التفكر المضبوط بضابط الشرع، الذي يمضي معه مبصرًا في نور الوحي؛ لا مطلق التفكر الذي يخبط في الظلام أعمىٰ، بلا دليلٍ ولا هدىً ولا كتابٍ منير.

والعقل البشري حين يتحرك في إطار الوحي لا يتحرك في مجالٍ ضيقٍ، إنما يتحرك في مجالٍ واسعٍ جدًا.. يتحرك في مجالٍ هو هذا الوجود الواسع، الذي يحتوي عالم الشهادة وعالم الغيب أيضًا؛ كما يحتوي عجائب النفس البشرية، وعجائب الكون، ومجالات الحياة جميعًا.. فالوحي لا يكف العقل عن شيء إلا عن انحراف

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ١٦٤).

العقيدة، وسوء الرؤية والتواء الأهواء والشهوات! وبعد ذلك يدفعه إلىٰ الحركة والنشاط دفعًا، فهذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان - العقل - إنما وهبها له لتعمل وتنشط في حراسة الوحي والهدىٰ الرباني، فلا تضل إذن ولا تطغىٰ.

والأمر بالتفكير جاء في القرآن بلفظ التفكير، وبألفاظٍ أخرىٰ مثل الدعوة إلىٰ النظر، والمقصود نظر القلب مع نظر العين، ومن الأدلة علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: ١٠١]. «والنظر يقع علىٰ الأجسام والمعاني فما كان بالأبصار فهو للأجسام وما كان بالبصائر كان للمعاني... وتقول نظرت إلىٰ كذا وكذا من نظر العين ونظر القلب، وإذا قلت نظرت إليه لم يكن إلا بالعين وإذا قلت نظرت في الأمر احتمل أن يكون تفكرًا فيه وتدبرًا بالقلب»(١).

و«نظر إلىٰ الشيء نَظَرًا ونَظْرًا أبصره وتأمله بعينه، وفيه تدبر وفكر، يقال: نظر في الكتاب ونظر في الأمر. والنظر: البصر والبصيرة، ويقال في هذا نظر مجال للتفكير لعدم وضوحه ونظرا إلىٰ كذا وبالنظر إليه ملاحظة واعتبارا له»(٢).

«قال أبو علي الفارسي: لفظ النظر يستعمل علىٰ ضروب: أحدها: أن تريد به نظرت إلىٰ الشيء... وثانيها: أن تريد به تأملت وتدبرت... ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الإسراء: ٤٨] ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ [النساء: ٥٠] ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [الإسراء: ٢١] قال: وقد يتعدىٰ هذا بإلىٰ كقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧﴾ [الغاشية: ١٧] وهذا نص علىٰ التأمل

(١) لسان العرب (٥/ ٢١٥- ٢١٨).

(٢) المعجم الوسيط (٢/ ٩٣١- ٩٣٢).

وبين وجه الحكمة فيه وقد يتعدىٰ بفي كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥] ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨]، وثالثها: أن يراد بالنظر الرؤية»[(١)].

«والنظر: هنا مستعمل فيما يصلح للنظر القلبي والنظر البصري»[(٢)].

والنظر بالبصر والقلب في السماوات والأرض يعين علىٰ التفكير السليم، الذي يقود إلىٰ الخير والحق بإذن الله تعالىٰ، فنظر التفكر يهدي أصحاب العقول السليمة إلىٰ معرفة الحق والعمل به.

فربنا جل جلاله يأمر النبي محمد ﷺ بأن يأمر قومه بنظر التفكر في ملكوت السموات والأرض، وما فيهما من عجائب الآيات في الآفاق والأنفس، وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار بعض المفسرين، ومن أقوالهم ما يلي: «المراد بالنظر التفكر والاعتبار، أي قل يا محمد للكفار: تفكروا واعتبروا بما في السموات والأرض من المصنوعات الدالة علىٰ الصانع ووحدته وكمال قدرته»[(٣)]. و«يدعو تعالىٰ عباده إلىٰ النظر لما في السموات والأرض، والمراد بذلك: نظر الفكر والاعتبار والتأمل»[(٤)]. و«يرشد تعالىٰ عباده إلىٰ التفكر في آلائه وما خلق الله في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب»[(٥)].

والآيات التي تدعو لنظر التفكر كثيرةٌ منها قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ

---

(١) التفسير الكبير (٢٩/ ١٩٥).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٩٥).

(٣) فتح القدير (٢/ ٤٧٦).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٣٧٥).

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٤).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ [الأعراف: ١٨٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ [الأنعام: ٩٩] «أي فكروا في قدرة خالقه من العدم إلىٰ الوجود بعد أن كان حطبًا صار عنبًا ورطبًا وغير ذلك مما خلق سبحانه وتعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح»[١].

«فالمراد هنا نظر الاعتبار لا نظر الإبصار المجرد عن التفكر»[٢].

يقول السعدي: «فقوله: ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾ نظر فكرٍ واعتبارٍ ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي: الأشجار كلها، خصوصًا: النخل، إذا أثمر. ﴿وَيَنۡعِهِۦٓ﴾أي: انظروا إليه، وقت اطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه، فإن في ذلك عبرًا وآياتٍ، يستدل بها علىٰ رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده، ولكن ليس كل أحدٍ يعتبر ويتفكر، وليس كل من تفكر، أدرك المعنىٰ المقصود، ولهذا قيد تعالىٰ الانتفاع بالآيات بالمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، علىٰ العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها: التفكر في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه عقلًا وفطرةً، وشرعًا»[٣].

وقد يأتي قبل الدعوة إلىٰ النظر السير في الأرض بالأقدام وغيرها من وسائل النقل المعروفة قديمًا وحديثًا، بل وما سيخترع مستقبلًا، ومع الدعوة إلىٰ السير

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٠).
(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٤٩).
(٣) تفسير السعدي (١/ ٢٦٧).

بالأقدام وغيرها من وسائل النقل، لابد من سير القلوب، ومن الآيات والواردة في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ [العنكبوت: ٢٠]. فالمقصود بالسير هنا السير الذي معه تأمل وتدبر، فهذا السير يوقظ الحس ويبعث علىٰ التفكير، وتحصل العظة والعبرة به بإذن الله.

والقرآن أمر بالسير في الأرض ليفتح العين والقلب علىٰ المشاهد الجديدة التي لم تألفها عين الإنسان ولا قلبه، وهي لفتةٌ عميقةٌ إلىٰ حقيقةٍ دقيقةٍ.

والإنسان حين يعيش في المكان الذي يألفه لا يكاد ينتبه إلىٰ شيءٍ من مشاهد الكون أو عجائبه؛ حتىٰ إذا سافر وتنقل وساح استيقظ قلبه إلىٰ كل مشهد يمر به، وإلىٰ كل مظهرٍ في الأرض الجديدة التي يسافر لها، مما كان يمر علىٰ مثله أو أروع منه في مدينته دون التفات ولا انتباه.

وربما عاد إلىٰ مدينته بحسٍ جديدٍ وروحٍ جديدةٍ ليبحث ويتأمل ويعجب بما لم يكن يهتم به قبل سفره، وعادت مشاهد مدينته وعجائبها يتأملها بعد ما كان غافلًا عنها؛ أو كانت هذه العجائب مشغولًا عنها بشيء أخر! فسبحان منزل هذا القرآن، الخبير بمداخل القلوب وأسرار النفوس.

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج: ٤٦].

«وهذا السير المأمور به سير القلوب والأبدان، الذي يتولد منه الاعتبار، وأما مجرد النظر من غير اعتبار فإن ذلك لا يفيد شيئًا»(١).

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٢٥١).

«ولهذا دعا الله عباده إلىٰ السير في الأرض لينظروا ويعتبروا فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانهم وقلوبهم ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ آيات الله ويتأملون بها من مواقع عبره. ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبار الأمم الماضين، وأنباء القرون المعذبين، وإلا فمجرد نظر العين، وسماع الأذن، وسير البدن الخالي من التفكر والاعتبار، غير مفيد، ولا موصل إلىٰ المطلوب»(١).

كما تأتي بعض الآيات تأمر بالسير والنظر فيما حلّ في الأمم الكافرة نتيجةً لتكذيبهم للرسل كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۝٦٩﴾ [النمل: ٦٩]. وفي هذا التوجيه توسيعٌ لآفاق الناس وتفكيرهم، فالجيل من البشر ليس مقطوعًا عمن سبقه؛ وهو محكومٌ بالسنن المتحكمة فيها؛ وما حدث للمجرمين من قبل يحدث للمجرمين في كل زمان ومكان؛ فإن السنن الإلهية لا تحيد قيد أنملة ولا تحابي أحدًا.

والسير في الأرض بالقلوب والأبدان يطلع الإنسان علىٰ مثل وسير وأحوال فيها عبرة وعظة، وفيها تفتيحٌ لنوافذ مضيئة، وفيها لمساتٌ للقلوب لتوقظها وتحييها من غفلتها، والقرآن يوجه الناس إلىٰ البحث عن السنن المتتابعة، وتدبر خطواتها وحلقاتها، ليعيشوا حياةً متصلة التاريخ متسعة الآفاق، غير مغلقةٍ ولا ضيقةٍ ولا منقطعة. وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ۝٤٢﴾ [الروم: ٤٢]. «والأمر بالسير في الأرض يدخل فيه السير بالأبدان، والسير في القلوب للنظر والتأمل، بعواقب المتقدمين»(٢). «والنظر علىٰ

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٥٤١).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٦٤٣).

وجهين يقال نظر إليه إذا نظر بعينه ونظر فيه إذا تفكر بقلبه، وهاهنا قال: ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ ولم يقل فيه ولا إليه فهو على الأمرين جميعًا»[١].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾ [الأنعام:١١].

«والفرق بين فانظروا وبين ثم انظروا أن النظر جعل مسببًا عن السير في فانظروا، فكأنه قيل سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين، ومعنىٰ سيروا في الأرض ثم انظروا إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه علىٰ ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح»[٢].

«وهذا السير المأمور به، سير القلوب والأبدان، الذي يتولد منه الاعتبار. وأما مجرد النظر من غير اعتبار، فإن ذلك لا يفيد شيئًا»[٣].

والسير في الأرض للاستطلاع والتدبر والاعتبار، ولمعرفة سنن الله المرتسمةُ في الأحداث والوقائع المسجلةٌ في الآثار الشاخصة، وفي التاريخ المروي في الأحاديث المتداولة حول هذه الآثار في أرضها وقومها أمورٌ كلها جديدةً علىٰ العرب؛ هذا الأمر يبين مدىٰ النقلة التي عملها المنهج الإسلامي الرباني في نقلهم من جاهليتهم التي يعيشونها إلىٰ هذا المستوىٰ من الوعي والفكر والنظر والمعرفة.

كان العرب قبل الإسلام يسيرون في الأرض، ويتنقلون في أرجائها للتجارة والعيش، والصيد والرعي، أما السير في الأرض للاستطلاع والتدبر والاعتبار فهذا

---

(١) تفسير السمرقندي (٣/ ١٥).
(٢) تفسير النسفي (١/ ٣١٥).
(٣) تفسير السعدي (١/ ٢٥١).

جديدٌ عليهم لم يكونوا يعرفوه قبل الإسلام، وكان هذا المنهج الجديد عليهم يأخذ بأيديهم من سفح الجاهلية، إلىٰ القمة السامقة التي بلغوا إليها في النهاية.

ويقول تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

والسير في الأرض يجب أن يكون بعينٍ مفتوحةٍ وقلبٍ يقظ، مع الوقوف علىٰ مصارع الظالمين، وتأمل ما كانوا فيه وما صاروا إليه، كل هذا له الأثر الإيجابي علىٰ القلب والمشاعر مما يزيد الإيمان بالله وعظيم قدرته.

وكثرة تكرار الآيات التي تأمر بالسير في الأرض بالأبدان والقلوب للوقوف علىٰ مصارع الغابرين، وآثار الهالكين، توقظ القلوب من الغفلة التي تسدر فيها؛ لأنه ينشأ عن هذه الغفلة غفلةٌ أخرىٰ عن سنن الله الثابتة، وتسبب القصورٌ عن إدراك الأحداث وربطها بالحقائق الكلية، وهذه الميزة هي التي تميز الإنسان المدرك من الحيوان البهيم، الذي يعيش حياته منفصلة اللحظات والحالات؛ لا رابط لها، ولا قاعدة تحكمها، والجنس البشري كله وحدةٌ أمام وحدة السنن والنواميس.

ومن الآيات التي تدعو للتفكير بالسير والنظر في الأرض قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١]. وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: ٨٢].

وقد تأتي الدعوة إلىٰ التفكير بلفظ الرؤية بالعين مع الرؤية بالقلب، فلا قيمة لرؤية العين بلا رؤية القلب، و «الرُّؤيَةُ بالضَّمِّ: إدْراكُ المَرْئي وذلكَ أَضْرُب بحَسَبِ قُوىٰ النَّفْس:

الأوَّل: النَّظَرُ بالعَيْنِ التي هي الحاسَّة وما يَجْرِي مجْراها.

والثَّاني: بالوَهْمِ والتَّخَيّل نَحْو أَرَىٰ أَنَّ زيْدًا مُنْطَلِقٌ.

والثَّالث: بالتّفكّر نحو ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: ٤٨].

والرَّابع: بالقَلْبِ أَي بالعَقْل وعلىٰ ذلك قوْلُه تعالىٰ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١] وعلىٰ ذلكَ قوْلُه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ١٣].

قالَ الجوهريُّ: الرُّؤيَةُ بالعَيْنِ يتعدَّىٰ إلىٰ مَفْعولٍ واحِدٍ، وبمعْنَىٰ العِلْم يتعدَّىٰ إلىٰ مَفْعولَيْن، يقالُ رأَىٰ زيْدًا عالِمًا. وقالَ الرَّاغبُ: رأَىٰ إذا عدِّي إلىٰ مَفْعولَيْن اقْتَضَىٰ معْنَىٰ العِلْم، وإذا عدِّي بإلىٰ اقْتَضَىٰ معْنَىٰ النَّظَرِ المُؤدِّي إلىٰ الاعْتِبار»[(١)].

ومن الأدلة علىٰ الدعوة إلىٰ الرؤية قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦]. «والرؤية يجوز أن تكون قلبيةً، أي: ألم يعلموا كثرة القرون الذين أهلكناهم، ويجوز أن تكون بصربةً بتقدير: ألم يروا آثار القرون التي أهلكناها كديار عادٍ وحِجْر ثمود، وقد رآها كثير من المشركين في رحلاتهم، وحدّثوا عنها الناس حتىٰ تواترت بينهم فكانت بمنزلة المرئي وتحقّقتها نفوسهم»[(٢)]. و«هذا حض علىٰ العبرة والرؤية هنا رؤية القلب»[(٣)].

(١) تاج العروس (٣٨/ ١٠٢- ١٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٣٧).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٢٦٨).

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨]. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ استفهام إنكار أي قد رأوا أمثال هذه الصنائع فما بالهم لم يتفكروا فيها ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فيخافوا منه»(١).«والرؤية هنا هي رؤية القلب ولكن الاعتبار برؤية القلب إنما تكون في مرئياتٍ بالعين»(٢). «والرؤية بصريةٌ مؤديةٌ إلىٰ التفكر»(٣).

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [الشعراء: ٧]. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أو لم ينظروا في عجائب الأرض ويتفكروا(٤).

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النمل: ٨٦]. ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ الرؤية قلبيةٌ لا بصرية؛ لأن نفس الليل والنهار وإن كانا من المبصرات، لكن جعلهما كما ذكر من قبيل المعقولات(٥).

فقوله ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، «ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتنا تصريفنا الليل والنهار، ومخالفتنا بينهما، بتصييرنا هذا سكنًا لهم يسكنون فيه ويهدؤون، راحة أبدانهم من تعب التصرف والتقلب نهارًا، وهذا مضيئًا يبصرون فيه الأشياء ويعاينونها، فيتقلبون فيه لمعايشهم، فيتفكروا في ذلك ويتدبروا ويعلموا أن مصرف ذلك كذلك هو الإله الذي لا يعجزه شيء، ولا يتعذر عليه إماتة الأحياء

---

(١) تفسير البيضاوي (٣/ ٤٠١).
(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٣٩٧).
(٣) روح المعاني (١٤/ ١٥٣).
(٤) تفسير السمرقندي (٢/ ٥٥٠).
(٥) تفسير أبي السعود (٦/ ٣٠٣).

وإحياء الأموات بعد الممات، كما لم يتعذر عليه الذهاب بالنهار والمجيء بالليل والمجيء بالنهار والذهاب بالليل مع اختلاف أحوالهما»(١).

وعند النظر بالعين والقلب إلىٰ مشهد الليل الساكن، ومشهد النهار المبصر، سيكون له الأثر البالغ في زيادة الإيمان وحسن الاتصال بالله، فالله هو الذي يقلب الليل والنهار، وهما آيتان كونيتان لمن استعدت نفسه للإيمان.

ولو لم يكن هناك ليلٌ وكان الدهر كله نهارًا لانعدمت الحياة علىٰ وجه الأرض؛ وكذلك لو كان الدهر كله ليلًا بلا نهار لانعدمت الحياة علىٰ وجه الأرض، بل لو كان النهار أو الليل أطول مما هما الآن عشر مرات فقط لحرقت الشمس في النهار كل نبات، ولتجمد في الليل كل نبات، وعندئذ تستحيل الحياة، ففي الليل والنهار بحالتهما الموافقة للحياة آيات.

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١-٧٣]. «والرؤية هي القلبية أي أولم يعلموا بالتفكر والاعتبار»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٧ — ٧٩]. يقول البغوي: «يعني أن الإنسان مخلوقٌ من نطفة، ثم يخاصم، فكيف لا يتفكر في بدء خلقه حتىٰ يدع

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ١٨).

(٢) فتح القدير (٤/ ٣٨١).

الخصومة، نزلت في أبي بن خلف الجمحي، خاصم النبي ﷺ في إنكار البعث، وأتاه بعظم قد بلي ففتته بيده فقال: أترىٰ يحيىٰ الله هذا بعد ما رم فقال النبي ﷺ: «**نعم، ويبعثك ويدخلك النار**»، فأنزل الله هذه الآيات»[(١)]. وقال ابن الجوزي: «ومعنىٰ الكلام التعجب من جهل هذا المخاصم في إنكاره البعث والمعنىٰ ألا يعلم أنه مخلوقٌ فيتفكر في بدء خلقه فيترك خصومته»[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]. «الرؤية هنا هي القلبية التي بمعنىٰ العلم والهمزة للإنكار والواو للعطف علىٰ مقدر أي ألم يتفكروا ولم يعلموا أن الذي خلق هذه الأجرام العظام من السموات والأرض ابتداءً ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي لم يعجزه عن ذلك ولا ضعف عنه»[(٣)]. «والرؤية قلبية أي ألم يتفكروا ولم يعلموا علما جازما متاخما للمشاهدة والعيان»[(٤)].

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: ١٩]. والناس يرون الطير يطير ما بين السماء والأرض، يصف أجنحته ويقبضها، أفلا يرون بأبصارهم وقلوبهم فيتفكرون في خلق الله وفي قدرته الذي خلق فصور فقدر.

فربنا جل جلاله ينتقل بالكفار من التهديد والوعيد، إلىٰ التأمل والتفكير في مشهدٍ يرونه كثيرًا، ولا يتفكرون فيه إلا قليلًا. وهو مظهرٌ من مظاهر قدرة الله، وأثرٌ

(١) تفسير البغوي (٤/ ٢٠).
(٢) زاد المسير (٧/ ٤١).
(٣) فتح القدير (٥/ ٢٦).
(٤) تفسير أبي السعود (٨/ ٨٩).

من آثار تدبيره الإلهي اللطيف.﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ ؟﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾. وهذه الحادثة التي تقع في كل لحظة، ينسينا وقوعها المتكرر، ما تدل عليه من القدرة والعظمة الإلهية، فمن تأمل في هذا الطير وهو يصف جناحيه ويفردهما، ثم يقبضهما ويضمهما، وهو في الحالين: حالة الصف الغالبة، وحالة القبض العارضة يظل في الهواء، يسبح فيه سباحةً في يسرٍ وسهولة؛ ويأتي بحركاتٍ يخيل إلىٰ الناظر أحيانًا أنها حركاتٌ استعراضيةٌ لجمال التحليق والانقضاض والارتفاع!

تأمل هذا المشهد، وتابع كل نوعٍ من الطير يمر عليك في حركاته الخاصة بنوعه، تجد أن النظر لا يمله، وكذلك لا يمله القلب، وهو متعةٌ للعين وفوق ذلك هو مثار تفكير وتدبر في صنع الله البديع، الذي يتعانق فيه الكمال والجمال!

والقرآن يأمر بالنظر إلىٰ هذا المشهد العجيب: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾؟ ثم يوحي بما وراءه من التدبير والتقدير الإلهي: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ وهذا دليل علىٰ كمال قدرة الله وبديع صنعه وحكمته في خلقه، فإنه سبحانه خلق الطير وزوده بآلات تمكنه من الطيران، فجعل له جناحين يبسطهما ويقبضهما ليتغلب بذلك علىٰ مقاومة الهواء والجاذبية، وميزه عن غيره بالجسم والشكل والوزن ليستفيد مما سخره الله من طبيعة الجو فيسهل عليه خرقه ونفاذه فيه.

والرحمن يمسكهن بقدرته القادرة، وعنايته الحاضرة، في تناسقٍ وفي انتظام. فلا تفتر ولا تختل ولا تضطرب: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾. بهذا التعبير المباشر الذي يوحي بقدرة الرحمن التي تمسك بكل طائرٍ، وهو صافٌ جناحيه وكذلك حين يقبضهما، وهو معلق في الفضاء!﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يبصره ويراه. ويعلم أمره

وخبره. لا يدخل تدبيره خلل، ولا يرىٰ في خلقه تفاوت، ويرعىٰ كل شيءٍ في كل لحظة، رعاية الخبير البصير.

وإمساك الطير في الجو كإمساك الطائرة بما عليها في الفضاء، وكإمساك سائر الأجرام السماوية التي لا يمسكها في مكانها إلا الله. ولكن القرآن يأخذ بأبصار القوم وقلوبهم إلىٰ كل مشهدٍ يملكون رؤيته وإدراكه؛ ويلمس قلوبهم بإيحاءاته وإيقاعاته، وإلا فخلق الله كله إعجازٌ وكله إبداع، وكل قلب وكل جيل يدرك منها ما يطيقه، ويلحظ منها ما يراه، حسب توفيق الله.

والمتتبع لنصوص القرآن الكريم يجد أنه يأمر بالتفكير بطرق متعددة منها:

١- **المقارنة بين بعض الأشياء**، ومن الأمثلة علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧] وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠] وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢] وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩] وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص: ٦٠].

٢- **الملاحظة** ومن أمثلة ذلك قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد: ٣]. وقوله تعالىٰ: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل: ١١].

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾ [النحل: ٦٩]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الروم: ٢١]. وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزمر:٤٢]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ [الجاثية: ١٣]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرعد: ٤]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ [النحل: ١٢]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [النحل: ٦٧]. وقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩﴾ [العنكبوت: ١٩]. وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾ [يونس: ١٦]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ [يوسف: ١٠٩]. وقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾ [الأنبياء: ١٠]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ

وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ [المؤمنون: ٨٠]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٢]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِۚ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يس: ٦٨].

٣- **النقد** ومن أمثلة ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [فاطر: ٤٠]. وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴿٦٥﴾﴾ [آل عمران:٦٥]. وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود: ٥١]. وقوله تعالىٰ: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٧]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم: ٢٤]. وقوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم:٢٨]. وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ

أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٥٨ — ٧٤]. وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٣٥ — ٤٣]. وقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ [الطارق: ٥ — ٨]. وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: ٤٥ — ٤٩]. وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ١٧ — ٢١].

وفي بداية سورة الجاثية دعوةٌ إلىٰ التفكير حيث قال الله تعالىٰ: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية: ١ – ٦]. فالله جل جلاله «يرشد خلقه إلىٰ التفكير في آلائه ونعمه وقدرته العظيمة التي خلق بها السماوات والأرض، وما فيها من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تبارك وتعالىٰ من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقًا لأن به يحصل الرزق ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي بعدما كانت هامدةً لا نبات فيها ولا شيء، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي جنوبًا وشمالًا ودبورًا وصبا، بريةً وبحريةً، ليليةً ونهاريةً، ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح ومنها ما هو عقيمٌ لا ينتج.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أولًا: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم يوقنون، ثم يعقلون وهو ترقٍ من حالٍ شريفٍ إلىٰ ما هو أشرف منه وأعلىٰ»(١).

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٨).



المبحث الثاني
حث الأنبياء أقوامهم على التفكير

لقد تضمنت دعوات الأنبياء جميعًا عليهم الصلاة والسلام دعوةً للتفكر والنظر، والتخلص من إرث الآباء والأجداد، ومنهم نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، حيث أمره ربه جل جلاله أن يخاطب قومه بقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنعام: ٥٠]. ففي هذه الآية بيان أنه لا يستوي الضال والمهتدي، كما أنه لا يستوي الأعمىٰ والمبصر، ثم ورد الأمر بالتفكير لمعرفة هذه الحقيقة.

فقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ «أي ففكروا أنتم وانظروا وجاء الأمر بالفكرة في عبارة العرض والتحضيض»(١). فالاستفهام هنا للحث علىٰ التفكر والتدبر.

والعقل مع وحي الله يحصل بصيرة القلب، وبترك وحي الله وهداه يكون الإنسان أعمىٰ البصيرة، ويأتي الحديث عن تلقي الرسول ﷺ من الوحي وحده، مع الإشارة إلىٰ العمىٰ والبصر، بالسؤال التحضيضي علىٰ التفكير: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾. أمرٌ ذو دلالةٍ في التعبير القرآني.

فالتفكر مطلوب شرعًا، والحث عليه منهج قرآني فريد؛ ولكنه التفكر المضبوط

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٢٩٤).

بضابط الشرع، الذي يمضي معه مبصرًا في النور؛ لا مطلق التفكر الذي يخبط في الظلام مثل الأعمىٰ، بلا دليل ولا هدىٰ ولا كتاب منير.

والعقل البشري حين يتحرك في إطار الشرع لا يتحرك في مجالٍ محدود، إنما يتحرك في مجالٍ واسع وكبير جدًا.

يتحرك في مجالٍ هو هذا الكون كله، الذي يحتوي عالم الشهادة وعالم الغيب أيضًا؛ كما يحتوي طبيعة النفس البشرية ومجالي الأحداث والحياة جميعًا.

فالشرع لا يكف العقلَ عن شيءٍ إلا عن انحراف المنهج، وسوء الرؤية وتتبع الأهواء والشهوات! وبعد ذلك يدفعه إلىٰ الحركة والنشاط دفعًا، فهذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان «العقل» إنما وهبها له لتعمل وتنشط في حراسة الوحي والهُدَىٰ الرباني.

فلا تضل إذن ولا تطغىٰ.

وهذه الآية كما يقول ابن كثير كقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ [الرعد: ١٩][(١)].

ومن هنا يتبين أن الدعوة إلىٰ التفكير إما إلىٰ المثل الذي ضرب وهو الأعمىٰ والبصير فإنهما لا يستويان، فيكون ذلك سببًا للإيمان والتصديق، أو التفكير في الآيات الدالة علىٰ وحدانية الله وتفرده بالملك والتدبير وصِدقُ رسوله ﷺ فيكون ذلك سببًا للإيمان والتصديق.

«فالآية تبين أنه لا يستوي الناظر المفكر في الآيات، أو المعرض الكافر المهمل

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٣٥).

للنظر فالأعمىٰ والبصير مثالان للمؤمن والكافر أي ففكروا أنتم وانظروا، وجاء الأمر بالفكرة في عبارة العرض والتحضيض»(١).

«فالمطلوب هنا التفكير في أمثال القرآن ومواعظه»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦]. وهذه الآية فيها أمرٌ من النبي ﷺ لكفار قريش أن يفكر كل اثنين منهم بموضوعيةٍ وإنصافٍ وإخلاصٍ في أمره ﷺ وما جاء به من عند الله، ثم يعرض كل واحد منهما حصيلة تفكيره علىٰ صاحبه، وأن يفكر كل واحد منهم علىٰ انفراد أيضًا في شأن هذا الرسول عليه الصلاة والسلام، من غير تعصبٍ وهوىٰ، ليعلموا أنه عليه الصلاة والسلام مبرأٌ من الجنون، وأن ما جاء به إنما هو من عند الله تعالىٰ، لينذرهم عذاب الله.

وتفكير الاثنين في الأمور بإخلاصٍ واجتهادٍ وتقديرٍ، أفضل في الوصول إلىٰ الحق؛ لأنه أوثق وأقرب إلىٰ الاطمئنان من تفكير الشخص الواحد، ولم يأمرهم بأن يتفكروا في جماعة؛ لأن التفكير الجماعي غالبًا ما تكون آثاره سلبية؛ لأن فيه تشويشًا للأفهام، وخلطًا للأفكار بالأوهام، خاصةً إذا وجد بين الجماعة أصحاب هوىٰ، أو مصالح شخصية.

والتفكير الجماعي «يشوش الخواطر ويعمىٰ البصائر ويمنع من الرؤية ويقل الإنصاف فيه ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المذهب»(٣).

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٢٩٤).

(٢) تفسير السمرقندي (١/ ٤٧٠).

(٣) تفسير النسفي (٣/ ٣٣٢).

وفي هذه الآية دعوةٌ واضحةٌ إلىٰ منهج البحث عن الحق، ومعرفة الكذب من الصدق، وتقدير الواقع الذي يواجهونه من غير زيفٍ ولا تحريف: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦]. إنها دعوةٌ إلىٰ القيام لله بإخلاص، بعيدًا عن الهوىٰ وعن المصلحة، بعيدًا عن ملهيات الأرض، بعيدًا عن الهواتف والدوافع التي تشغل القلب، فتبعده عن الله.

بعيدًا عن التأثر بالتيارات الفاسدة في المجتمع، والمؤثرات الشائعة بين الناس.

دعوةٌ إلىٰ التعامل مع الواقع البسيط، لا مع القضايا والدعاوىٰ المنتشرة؛ ولا مع العبارات المطاطة التي تبعد العقل عن مواجهة الحقيقة في بساطتها، دعوةٌ إلىٰ منطق الفطرة الهادئ الصافي، بعيدًا عن الضجيج والخلط واللبس؛ والرؤية المضطربة والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة.

وهذه الدعوة في الوقت ذاته منهجٌ في البحث عن الحقيقة يعتمد علىٰ التجرد من رواسب الجاهلية والمؤثرات المجتمعية، وعلىٰ مراقبة الله وتقواه، حتىٰ تحققت صحة المنهج واستقامت الطريق.

الهدف أن يكون القيام لله لا لغرض دنيوي ولا لهوىٰ ولا لمصلحة ذاتية، وإنما التجرد والإخلاص لله ثم التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾، مثنىٰ لتحصل المراجعة مع الآخر، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بالجماهير التي تتأثر بالانفعال الطارئ، وفرادىٰ مع النفس وجهًا لوجه بعيدًا عن الناس في تفكير هادئٍ عميق.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ فما عرفتم عن محمد -عليه الصلاة

والسلام- إلا العقل والحكمة والتدبر والرزانة، وما سمعتموه يقول شيئًا يدعو إلىٰ الشك في عقله ورشده، إن هو إلا القول المحكم القوي المبين.

«التَّفَكُّر في أحْوالِ النَّبِي ﷺ أهَمُّ في إصْلاحِ حالِ المُخاطَبِينَ المُعْرِضِينَ عَنْ دَعْوَتِهِ، بِخِلافِ القِيامِ لِلَّهِ فَإنَّهم لا يَأْبَوْنَهُ»(١).

«ومما سبق يتبين أن في الآية دعوةً صريحةً إلىٰ التفكير، بأسلوبٍ يضمن له الموضوعية والفعالية»(٢). «والرسول ﷺ أمر أن يدعو قومه إلىٰ التفكير فهو سبيل الوصول إلىٰ الحق والإيمان»(٣).

يقول السعدي في تفسيره: «قل يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين المعاندين المتصدين لرد الحق وتكذيبه والقدح بمن جاء به ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي بخصلةٍ واحدةٍ أشير عليكم بها وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريق نصف، لست أدعوكم بها إلىٰ اتباع قولي، ولا إلىٰ ترك قولكم، من دون موجب لذلك، وهي: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي تنهضوا بهمةٍ ونشاطٍ وقصدٍ لاتباع الصواب، وإخلاصٍ لله، مجتمعين ومتباحثين في ذلك ومتناظرين، وفرادىٰ كل واحد يخاطب نفسه بذلك، فإذا قمتم لله مثنىٰ وفرادىٰ، استعملتم فكركم وأجلتموه، وتدبرتم أحوال رسولكم، هل هو مجنونٌ فيه صفات المجانين من كلامه وهيئته وصفته؟ أم هو نبيٌ صادقٌ منذرٌ لكم ما يضركم مما أمامكم من العذاب الشديد؟

فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها لتبين لهم أكثر من غيرهم أن رسول الله ﷺ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٣٣).

(٢) كيف ننجح في تعديل سلوكنا، عادل رشاد غنيم، ص ١٠.

(٣) منهج القرآن في التربية، محمد شديد، ص ١١٨.

ليس بمجنون؛ لأن هيئته ليست كهيئة المجانين في خنقهم واختلاجهم ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل الخلق أدبًا وسكينةً وتواضعًا ووقارًا، لا يكون إلا لأرزن الرجال عقلًا.

ثم إذا تأملوا كلامه الفصيح ولفظه المليح وكلماته التي تملأ القلوب أمنًا وإيمانًا وتزكي النفوس وتطهر القلوب وتبعث علىٰ مكارم الأخلاق وتحث علىٰ محاسن الشيم وتزجر عن مساوئ الأخلاق ورذائلها، إذا تكلم رمقته العيون هيبةً وإجلالًا وتعظيمًا، فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعربدتهم وكلامهم الذي يشبه أحوالهم؟ فكل من تدبر أحواله - وقصده استعلام هل هو رسول الله أم لا؟ - سواءً تفكر وحده أم معه غيره، جزم بأنه رسول الله حقًا، ونبيه صدقًا خصوصًا المخاطبين، وهو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره.»(١)

وهناك مجموعة من الآيات فيها أسلوبٌ حواريٌّ موجهٌ من النبي ﷺ إلىٰ قومه، تدعو إلىٰ التفكير، وتحث علىٰ التأمل، حتىٰ يصل الباحث عن الحق إلىٰ مبتغاه، ويتحقق التوحيد المطلوب من كل إنسان.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ

(١) تفسير السعدي (١/ ٦٨٣).

فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ٣١ — ٣٥]. وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٤ — ٥] وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام: ٤٦]. وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧١ — ٧٢]. وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٣ — ٦٥]. وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ

عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٥٩ – ٦٤]. وقال تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ ا[المؤمنون: ٨٤ – ٨٩].

«في هذه الآيات أسلوبٌ حواريٌّ، يقوم علىٰ إثارة الأسئلة المنبهة للعقل والمحركة للفكر، ولا تجد أيَّ جوابٍ صريحٍ علىٰ سؤالٍ منها، وإنما تجد بدلًا من الجواب لفت النظر إلىٰ حيث يتسنىٰ للفكر أن يدرك الجواب الصحيح ويتنبه له»(١).

وها هو نوحٌ ﵇ يدعو قومه إلىٰ التفكير فيقول لهم كما ورد في القرآن الكريم: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١٣ – ٢٠]. فنوحٌ ﵇ وجه قومه إلىٰ التفكر في أنفسهم، وأنكر عليهم أن يكون الله خلقهم أطوارًا، ثم هم بعد ذلك لا يستشعرون في أنفسهم توقيرًا لله الذي خلقهم في أحسن تقويم، وهذا أعجب وأنكر ما يقع من مخلوق!

كذلك وجههم إلىٰ التفكر في الكون الفسيح، هكذا سلك نوح إلىٰ آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتىٰ الأساليب، مع تنوع الوسائل في دأبٍ طويلٍ، وفي صبرٍ جميلٍ وفي جهدٍ نبيلٍ، ألف سنة إلا خمسين عامًا.

(١) منهج تربوي فريد في القرآن، د/ محمد البوطي، ص ٤١.

فالرب «نبههم أولا علىٰ النظر في أنفسهم لأنها أقرب ثم علىٰ النظر في العالم وما سوَّىٰ فيه من العجائب الدالة علىٰ الصانع»[(١)].

وها هو إبراهيم عليه السلام يحاور أباه كما ورد في سورة مريم، حوارًا يدعوا إلىٰ التفكير في واقع الأصنام، والنتيجة التي تحصل من عبادتها وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾ [مريم: ٤١– ٤٥].

وفي حوارٍ أخرٍ لإبراهيم مع أبيه وقومه حول الأصنام التي يعبدونها من دون الله، دعوةٌ إلىٰ التفكير بأسلوبٍ جميلٍ كما ورد ذلك في سورة الأنبياء في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ٥٨ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٩ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ٦٠ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن

---

(١) تفسير النسفي (٤/ ٢٨٣).

كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ – ٧٢].

وفي سورة الشعراء يقول الرب جل جلاله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ – ٨٣].

وفي سورة العنكبوت يقول الرب جل جلاله: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ

ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٦ — ٢٣].

ولنسمع إلىٰ يوسف عليه السلام وهو يدعو من معه في السجن إلىٰ التفكير في وحدانية الله بعد الحوار معهما في قوله تعالىٰ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٦ — ٤٠].

ففي هذا الحوار دعوة إلىٰ التفكير في أهم المواضيع ألا وهو التوحيد، يسألهم سؤالًا واضح الإجابة ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ فالله جل جلاله خيرٌ من الأرباب المتفرقة، لكنه سؤالٌ يدعو إلىٰ التفكير، فمن

فكّر تفكيرًا سليمًا علم أن عبادة الله الواحد القهار خيرٌ من عبادة آلهةٍ متعددةٍ، لا تنفع ولا تضر، فمن عبدها فهذا دليلٌ علىٰ فسادٍ في عقله، وبهذا المثل يتضح الحق لمن كان له عقلٌ أو ألقىٰ السمع وهو شهيد، ولا شك أن الجواب الذي لا يختلف فيه أي عاقلٍ، أن عبادة الله - تعالىٰ - هي العبادة الصحيحة التي توافق الفطر السليمة والعقول المستقيمة.

لقد رسم يوسف ﷺ بهذه الكلمات القليلة الواضحة القوية المنيرة، كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة، كما هز بها كل قوائم الشرك والجاهلية الجهلاء هزًا شديدًا عنيفًا. ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾؟ يتحدث معهم كصاحبين له قديمين، ليدخل من هذا المدخل وبهذا الأسلوب الرائع إلىٰ صلب الدعوة وأصل التوحيد، بدعوةٍ غير مباشرةٍ، إنما يعرضها قضيةً موضوعيةً: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾؟

وفي حوار موسىٰ ﷺ مع فرعون دعوةٌ إلىٰ التفكير بأسلوبٍ رائع، فحين دعا إلىٰ التوحيد وعبادة الله، طلبوا منه أن يرسل معهم بني إسرائيل، قال لهم فرعون بأسلوب التهكم كما في سورة طه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩﴾[طه: ٤٩]، فكان الجواب مقنعًا لكل صاحب عقل يفكر تفكيرًا صحيحًا سليمًا، وجرىٰ حوارًا يدل علىٰ ذلك وهو قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه: ٥٠]، فرد عليهم فرعون قائلًا: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١﴾[طه: ٥١]، فرد موسىٰ ﷺ قائلًا: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤ ۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ

وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٢ – ٥٥]. وفي سورة الشعراء حوارٌ أخر يدل على الدعوة إلىٰ التفكير وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٣ – ٢٨].



المبحث الثالث
الثناء على من يفكر

يشجع القرآن الكريم ويثني علىٰ صاحب التفكير، وتحصيل العلم والمعرفة حيث يقول تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ [الزمر: ٩].

فالذي «يتعظ ويتدبر ويتفكر أصحاب العقول وهم المؤمنون لا الكفار فإنهم وإن زعموا أن لهم عقولًا فهي كالعدم»[(١)].

ويقول السعدي: «فأهل العقول الزكية الذكية هم الذين يؤثرون الأعلىٰ علىٰ الأدنىٰ، فيؤثرون العلم علىٰ الجهل، وطاعة الله علىٰ مخالفته؛ لأن لهم عقولًا، ترشدهم للنظر في العواقب، بخلاف من لا لب له ولا عقل، فإنه يتخذ إلهه هواه»[(٢)].

فالذي يتعظ ويعتبر بآيات الله ويتفكر فيها ويتدبرها هم أهل العقول الزكية لا أهل الجهل والنقص في العقول، وفي هذا ثناءٌ علىٰ من يستخدم عقله فيفكر به كما ينبغي، ويستخدمه لما خلق له.

كما امتدح القرآن الكريم من يستخدم عقله كما ينبغي ويفكر تفكيرًا صحيحًا سليمًا، مبينًا أنهم هم من يستفيد ويتذكر ويعتبر بما يرد في القرآن الكريم من آياتٍ

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٥٣).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٧٢٠).

شرعيةٍ أو آياتٍ كونيةٍ فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: ٢١] وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩] [آل عمران: ٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣] [النور: ٤٤]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤، ١٢٨].

والقرآن الكريم يخاطب أصحاب العقول السليمة التي تستفيد وتفكر في الأحكام الشرعية ومن ذلك حكم القصاص، فيقول الرب جل جلاله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩]، وفي هذا ثناء علىٰ من يفكر ويتأمل ويستنتج الحِكم من الأحكام الشرعية.

ويمتدح رب العزة والجلال أصحاب العقول التي تفكر فتُعرض عن عبادة الطاغوت، وتصرف العبادة للواحد الديان والذي لا يستحق العبادة إلا هو، كما أنهم في إنابةٍ ورجوعٍ إلىٰ الله دومًا وأبدًا، فهم عِبادُ الله حقًا، وهم المستحقون للهداية؛ لأنهم أصحاب العقول الزكية، والفطر النقية، التي تفكر بعقولها قبل أن تستدرجها الأهواء الباطلة، والظنون الماحقة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧ – ١٨]. يقول السعدي في تفسيره عند قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: العقول الزاكية، ومن لبهم وحزمهم أنهم عرفوا الحسن وغيره، وآثروا ما ينبغي إيثاره، علىٰ ما سواه، وهذا علامة

العقل، بل لا علامة للعقل سوىٰ ذلك، فإن الذي لا يميز بين الأقوال - حسنها وقبيحها - ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز، لكن لما غلبت شهوته علىٰ عقله، فبقي عقله تابعًا لشهوته، فلم يؤثر الأحسن، كان ناقص العقل»[(١)].

وفي فتح القدير: «أي هم الذين أوصلهم الله إلىٰ الحق، وهم أصحاب العقول الصحيحة لأنهم الذين انتفعوا بعقولهم ولم ينتفع من عداهم بعقولهم»[(٢)].

وفي تفسير أبي السعود: «أي هم أصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوىٰ، المستحقون للهداية لا غيرهم، وفيه دلالة علىٰ أن الهداية تحصل بفعل الله تعالىٰ وقبول النفس لها»[(٣)].

ويقول ابن عاشور في تفسيره: «وقد دل ثناء الله علىٰ عباده المؤمنين الكمّل بأنهم أحرزوا صفة اتباع أحسن القول الذي يسمعونه، علىٰ شرف النظر والاستدلال للتفرقة بين الحق والباطل، وللتفرقة بين الصواب والخطأ، ولغلق المجال في وجه الشبهة ونفي تلبس السفسطة وهذا منه ما هو واجبٌ علىٰ الأعيان، وهو ما يكتسب به الاعتقاد الصحيح علىٰ قدر قريحة الناظر، ومنه واجبٌ علىٰ الكفاية وهو فضيلةٌ وكمالٌ في الأعيان، وهو النظر والاستدلال في شرائع الإسلام وإدراكُ دلائل ذلك والفقهُ في ذلك والفهم فيه، والتهممُ برعاية مقاصده في شرائع العبادات والمعاملات، وآداب المعاشرة لإقامة نظام الجامعة الإسلامية علىٰ أصدق وجه وأكمله، وإلجامُ الخائضين في ذلك بعماية وغرور، وإلقامُ المتنطعين والملحدين»[(٤)].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٧٢٢).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٥٦).

(٣) تفسير أبي السعود (٧/ ٢٤٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٦٧).

وأصحاب العقول المفكرة هي التي تسمع المواعظ فتتعظ، وتُذّكر بوعيد الله فتنزجر عما زجره عنه ربه، وتُذّكر بوعده فتنشط في تنفيذ أوامر الله، قال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]. فصاحب اللب - وهو العقل - هو الذي يتذكر فلا ينسىٰ، ويتنبه فلا يغفل، ويعتبر فلا يستمر في الضلال - وهذه وظيفة العقل - وظيفته أن يذكر موحيات الهدىٰ ودلائله؛ وأن ينتفع بها فلا يعيش لاهيًا غافلًا.

وقال الألوسي في تفسيره: «أي ما يتعظ أو ما يتفكر في الآيات إلا ذوو العقول الخالصة عن شوائب الوهم وظلم إتباع الهوىٰ، وهؤلاء هم الذين أوتوا الحكمة ولإظهار الاعتناء بمدحهم بهذه الصفة أقيم الظاهر مقام المضمر»(١).

ومن الآيات التي فيها ثناء علىٰ من يفكر قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧]. فأصحاب العقول إذا تذكروا عرفوا الحق فاتبعوه؛ لأن الحق مستقرٌ في فطرهم التي فطرهم الله عليها، فلا يفهم المعاني علىٰ وجهها الصحيح إلا أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة.

«فقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ حق التذكر ﴿إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي العقول الخالصة عن الركون إلىٰ الأهواء الزائغة، وهو تذييلٌ سيق من جهته تعالىٰ مدحًا

---

(١) روح المعاني (٣/ ٤٢).

للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر، وإشارةٌ إلىٰ ما به استعدوا للاهتداء إلىٰ تأويله من تجرد العقل عن غواشي الحس»[(١)].

يقول السعدي في تفسيره: «ولما رغب تعالىٰ في التسليم والإيمان بأحكامه، وزجر عن اتباع المتشابه قال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي: يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه إلا ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: أهل العقول الرزينة، لب العَالم وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلىٰ عقولهم، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة»[(٢)].

وفي هذه الآية أيضًا: «ثناءٌ من الله تعالىٰ علىٰ الذين قالوا آمنا به، ومعناه: ما يتعظ بما في القرآن إلا ذوو العقول الكاملة، فصار هذا اللفظ كالدلالة علىٰ أنهم يستعملون عقولهم في فهم القرآن، فيعلمون الذي يطابق ظاهره دلائل العقول فيكون محكمًا، وأما الذي يخالف ظاهره دلائل العقول فيكون متشابهًا، ثم يعلمون أن الكل كلام من لا يجوز في كلامه التناقض والباطل، فيعلمون أن ذلك المتشابه لا بد وأن يكون له معنىً صحيحٌ عند الله تعالىٰ»[(٣)].

ومما ورد في الثناء علىٰ من يفكر قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف: ١١١]. فلفظ ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ يدل علىٰ المدح

---

(١) تفسير أبي السعود (٢/ ٨).
(٢) تفسير السعدي (١/ ١٢٢).
(٣) التفسير الكبير (٧/ ١٥٥).

والثناء لمن يفكر في قصة يوسف ﷺ وأبويه وإخوته، وبقية قصص الأنبياء، ففيها عبرٌ لمن تفكر وتأمل في هذه القصص، فينتفع بمعرفتها فيزداد إيمانه، ويرسخ يقينه.

فمن تفكر وتأمل في قصة يوسف ﷺ - مثلًا - علم أن الذي قدر علىٰ إعزاز يوسف ﷺ بعد أن ألقي في الجب، وبيع كالعبيد، وسجن كالمجرمين، قادرٌ علىٰ إعزاز محمد ﷺ، ومن سار علىٰ دربه، وإن كان الظاهر خلاف ذلك، وأن الإخبار بهذه الأمور الغيبية معجزةٌ تدل علىٰ صدق النبي ﷺ، فقد كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك جاء بأخبار الأمم السابقة الواردة في الكتب السماوية التي سبقت القرآن الكريم.

يقول الشوكاني: «﴿عِبۡرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ والعبرة الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة وقيل: هي نوع من الاعتبار وهىٰ العبور من الطرف المعلوم إلىٰ الطرف المجهول، وأولو الألباب هم ذوو العقول السليمة الذين يعتبرون بعقولهم، فيدرون ما فيه مصالح دينهم وإنما كان هذا القصص عبرةً لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع، مع بعد المدة بين النبي ﷺ وبين الرسل الذين قص حديثهم، ومنهم يوسف وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع علىٰ أخبارهم ولا اتصل بأحبارهم»(١).

ويقول ﷻ في مدحه لأصحاب العقول السليمة، الذين إذا ذُكّروا بالحق تذكروا، وإذا نُبهوا إلىٰ دلائله تفكروا: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ [الرعد: ١٩]. فالتذكر والتفكّر من شأن أولىٰ الألباب، الذين ينتفعون بالتذكير والتفكير؛ لأنهم أصحاب العقول السليمة، وهم المؤمنون الصادقون.

---

(١) فتح القدير (٣/ ٦١).

يقول ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ «أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم»(١).

وفي التفسير الكبير: «﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ والمراد أنه لا ينتفع بهذه الأمثلة إلا أرباب الألباب الذين يطلبون من كل صورة معناها، ويأخذون من كل قشرة لبابها، ويعبرون بظاهر كل حديثٍ إلىٰ سره ولبابه»(٢).

وأكثر من يستفيد من القرآن الكريم هم أصحاب العقول السليمة الصحيحة، التي تفكر فتنتفع بما في القرآن الكريم، ولذلك قال الله تعالىٰ عن القرآن الكريم: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٥٢﴾ [إبراهيم: ٥٢]. «وهذه الآية دالةٌ علىٰ أنه لا فضيلة للإنسان ولا منقبة له إلا بسبب عقله؛ لأنه تعالىٰ بين أنه إنما أنزل هذه الكتب، وإنما بعث الرسل لتذكير أولىٰ الألباب، فلولا الشرف العظيم والمرتبة العالية لأولىٰ الألباب لما كان الأمر كذلك»(٣).

«وفي قوله ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: العقول الكاملة، ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر، إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم وتنورت أفكارهم، لما أخذوه غضًا طريًا، فإنه لا يدعو إلا إلىٰ أعلىٰ الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل علىٰ ذلك إلا بأقوىٰ الأدلة وأبينها، وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي، لم يزل في صعودٍ ورقيٍ علىٰ الدوام في كل خصلةٍ حميدة»(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥١٠).

(٢) التفسير الكبير (١٩/ ٣٢).

(٣) التفسير الكبير (١٩/ ١١٩).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٤٢٨- ٤٢٩).

ويثني ﷻ علىٰ من يفكر في الدنيا، ويعرفها علىٰ حقيقتها، فهي ظل زائل، ومتاع راحل، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: ٢١]. يقول الشوكاني في تفسيره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي فيما تقدم ذكره تذكير الأهل العقول الصحيحة، فإنهم الذين يتعقلون الأشياء علىٰ حقيقتها فيتفكرون ويعتبرون ويعلمون بأن الحياة الدنيا حالها كحال هذا الزرع في سرعة التصرم وقرب التقضي وذهاب بهجتها وزوال رونقها ونضارتها، فإذا أنتج لهم التفكر والاعتبار العلم بذلك لم يحصل منهم الاغترار بها والميل إليها وإيثارها علىٰ دار النعيم الدائم والحياة المستمرة واللذة الخالصة، ولم يبق معهم شكٌّ في أن الله قادرٌ علىٰ البعث والحشر لأن من قدر علىٰ هذا قدر علىٰ ذلك»(١).

والله تعالىٰ ذكر التفكر في معرض المدح والثناء فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤، ١٢٨]. قال الطبري في تفسيره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤]، خص تعالىٰ ذكره بأن ذلك آياتٍ لأولي النهىٰ لأنهم أهل التفكر والاعتبار وأهل التدبر والاتعاظ»(٢).

وقال السعدي في تفسيره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: لذوي العقول الرزينة، والأفكار المستقيمة علىٰ فضل الله، وإحسانه، ورحمته، وسعة جوده، وتمام عنايته وعلىٰ أنه الرب المعبود، المالك المحمود، الذي لا يستحق العبادة سواه،

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٥٨).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ١٧٥).

ولا الحمد والمدح والثناء إلا من امتن بهذه النعم، وعلىٰ أنه علىٰ كل شيءٍ قديرٌ، فكما أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتىٰ. وخص الله أولي النهىٰ بذلك؛ لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم فإنهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلىٰ المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم، يأكلون ويشربون، وقلوبهم لاهية، وأجسادهم معرضة»(١).

كما ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التفكر في معرض المدح، ببيان أنهم هم من يستفيد بما يرد في القرآن الكريم من آياتٍ شرعيةٍ أو آياتٍ كونيةٍ، ومن أوضح الآيات التي فيها ثناءٌ علىٰ من يفكر، ومدحٌ للمتفكرين، هي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١].

فربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيّن أن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار آياتٍ لأصحاب العقول، وذكر من صفاتهم أنهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض، وفي هذا ثناءٌ ومدحٌ من الله عليهم بهذه الصفة.

«والمراد بأولي الألباب أهل العقول الصحيحة الخالصة عن شوائب النقص، فإن مجرد التفكر فيما قصه الله في هذه الآية يكفي العاقل ويوصله إلىٰ الإيمان، الذي لا تزلزله الشبه ولا تدفعه التشكيكات»(٢).

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٥٠٧).

(٢) فتح القدير (١/ ٤١٠).

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]، فمن صفات أصحاب العقول التامة الزكية الواردة في الآية التفكير في خلق السماوات والأرض.

ويقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ١٠ – ١٢].

«أي: سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم، وأنواع مصالحكم، بحيث لا تستغنون عنها أبدًا، فبالليل تسكنون وتنامون، وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معايشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر، من الضياء، والنور، والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار، والنبات، وتجفيف الرطوبات، وإزالة البرودة الضارة للأرض، وللأبدان، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات، التابعة لوجود الشمس والقمر، وفيهما، وفي النجوم، من الزينة للسماء والهداية، في ظلمات البر والبحر ومعرفة الأوقات، وحساب الأزمنة، ما تتنوع دلالاتها، وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن لهم عقولٌ يستعملونها في التدبر والتفكر، فيما هي مهيأةٌ له، مستعدةٌ، تعقل ما تراه، وتسمعه، لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظرة، حظ البهائم، التي لا عقل لها»(١).

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٣٧).

ومن الأدلة الواردة في الثناء على من يفكر قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٥ – ٦٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم: ٢٠ – ٢٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢].



المبحث الرابع
ذم من لا يفكر

لقد ذم ﷻ في كتابه الكريم من حبس عقله عن التفكير، وعطَّله عن العمل، فَضَلَّ عن الاهتداء إلىٰ الحق والخير، وعمي عن التبصر في الأدلة علىٰ وحدانية الله وقدرته، وعطَّل عقله الذي هو نعمة من الله، فهو في صورة إنسانٍ، لكن بتعطيله لعقله أصبح كالأنعام بل أضل سبيلًا.

فمن هؤلاء من يتظاهر بالخير، ويدعو إليه، ولا يطبق ذلك في واقع حياته، ومنهم أحبار اليهود الذين قرؤوا التوراة ويعلمون ما فيها، ومن ذلك ذكر بعثة النبي محمد ﷺ، وذكر أوصافه، ومع ذلك لا يعملون بها، ولا يتبعونه، فعطلوا عقولهم، وجهلوا كتابهم، فصاروا قدوةً سيئةً لغيرهم، فذمهم القرآن الكريم لفعلهم هذا، ولسوء صنيعهم بعدم تفكيرهم، بقبح أمرهم للناس بالبر ونسيان أنفسهم فقال تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]. «فالآية ناعيةٌ علىٰ كل من يعظ غيره ولا يتعظ بسوء صنيعه وعدم تأثره، وإن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحمق الخالي عن العقل»(١). فقوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهامٌ للإنكار عليهم والتقريع لهم»(٢).

---

(١) تفسير أبي السعود (١/ ٩٧).

(٢) فتح القدير (١/ ٧٧).

فالآية بدأت بالزجر وختمت بالتذكير بالعقل؛ لأنه خير مرجع للهداية في ضمير الإنسان بعد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

«ويعيب القرآن علىٰ الناس أن يلغوا عقولهم، ويعطلوا تفكيرهم، ويقلدوا غيرهم، ويؤمنوا بالخرافات والأوهام، ويتمسكوا بالعادات والتقاليد دون تفكيرٍ فيما يتركون وما يدعون، وينعي عليهم ذلك كله، ويصف من كانوا علىٰ هذه الشاكلة بأنهم كالأنعام بل أضل سبيلًا من الأنعام؛ لأنهم يتبعون غيرهم دون التفكير ولا يحكمون عقولهم فيما يعملون أو يقولون أو يسمعون، ولأن العقل هو الميزة الوحيدة التي ميز الله بها الإنسان علىٰ غيره من المخلوقات فإذا ألغىٰ عقله أو عطل فكره تساوىٰ بالأنعام بل كان أضل منها»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنعام: ٥٠].

لقد كان كفار قريشٍ يطلبون رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآيةٍ من الخوارق يصدقونه بها -وهم كانوا يعلمون صدقه ولا يشكون فيه أبدًا- وتارةً أخرىٰ يطلبون تحويل الصفا والمروة ذهبًا بعد أن كان حجارة! وتارةً أن تكون مكة مكانًا خصبًا مخضرًا بالزروع والثمار! وتارةً إخبارهم بما سيقع لهم من أحداثٍ مغيبةٍ! وتارةً يكون طلبهم إنزال ملك عليه ليؤيده في رسالته! وتارةً يكون طلبهم كتابٍ مكتوبٍ في قرطاسٍ يرونه يتنزل عليه من السماء، إلىٰ آخر هذه المطالب التي يخفون وراءها تعنتهم وعنادهم وكفرهم!

---

(١) التشريع الجنائي في الإسلام (١/ ٣٢)، المؤلف: عبد القادر عودة.

وكل هذه المطالب التي كانوا يصوغون فكرتها بسبب تلك الأوهام والأساطير التي أحاطت بصورة النبوة وصورة النبي في الجاهليات من حولهم، وأقربها إليهم أوهام أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ وأساطيرهم حول النبوة، بعدما انحرفوا عما جاءتهم به رسلهم من الحق الواضح في هذه الأمور.

و«شبّهت حالة من لا يفقه الأدلّة ولا يفكّك بين المعاني المتشابهة بحالة الأعمىٰ الذي لا يعرف أين يقصد ولا أين يضع قدمه، وشبِّهت حالة من يُميِّز الحقائق ولا يلتبس عليه بعضها ببعض بحالة القويّ البصر حيث لا تختلط عليه الأشباح، وهذا تمثيلٌ لحال المشركين في فساد الوضع لأدلَّتهم وعُقم أقيستهم، ولحال المؤمنين الذين اهتدوا ووضعوا الأشياء مواضعها، أو تمثيلٌ لحال المشركين التي هم متلبّسون بها والحال المطلوبة منهم التي نفروا منها ليعلموا أيّ الحالين أولىٰ بالتخلّق.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾: استفهام إنكار، وهو معطوفٌ بالفاء علىٰ الاستفهام الأول لأنّه مترتِّبٌ عليه؛ لأن عدم استواء الأعمىٰ والبصير بديهيٌ، لا يسعهم إلاّ الاعتراف بعدم استوائهما، فلا جرم أن يتفرّع عليه إنكار عدم تفكّرهم في أنَّهم بأيّهما أشبه»(١).

وفي الآية «تقريعٌ وتوبيخٌ داخلٌ تحت الأمر، والفاء للعطف علىٰ مُقدَّرٍ يقتضيه المقام، أي لا تسمعون هذا الكلام الحق فلا تتفكرون فيه، أو أتسمعون فلا تتفكرون فيه، فمناط التوبيخ في الأول عدم الأمرين معًا، وفي الثاني عدم التفكر مع تحقق ما يوجبه»(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٢٤٣).

(٢) تفسير أبي السعود (٣/ ١٣٧).

وقال تعالىٰ عن إبراهيم ﷺ عندما حاور قومه حول عبادة الأصنام: ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [الأنبياء: ٦٦ – ٦٧]. «أي ليس لكم عقولٌ تتفكرون بها فتعلمون هذا الصنع القبيح الذي صنعتموه»(١). ففي هذه الآية ذمٌ لقوم إبراهيم ﷺ لعدم تفكيرهم بشأن الأصنام وأنها لا تنفع ولا تضر.

وقد بين القرآن أهمية التفكير في حياة الإنسان، ورفع من قيمة الإنسان الذي يستخدم عقله وتفكيره، وحط القرآن من شأن من لا يستخدم عقله وتفكيره بأنه جعله أدنىٰ درجة من الحيوان، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾ [الأنفال: ٢٠ – ٢٢].

إن النداء هنا للمؤمنين ليطيعوا الله ورسوله، ولا يتولوا عنه وهم يسمعون آياته وكلماته.. إن هذا النداء هنا إنما يجيء بعد جميع مقدماته المهمة.. يجيء بعد استعراض أحداث متتابعة؛ وبعد رؤية قدرة الله فيها، وعلمه وحكمته، وتدبيره وتقديره، وعونه ومدده؛ وبعد توكيد أن الله مع المؤمنين، وأن الله موهن كيد الكافرين. فما يبقىٰ بعد ذلك كله من مجالٍ للمؤمنين إلا السمع والطاعة لله والرسول. وإن التولي عن الرسول وأوامره بعد هذا كله ليبدو مستنكرًا قبيحا لا يقدم عليه إنسانٌ له قلبٌ يتدبر وعقلٌ يتفكر.. ومن هنا يجيء ذكر الدواب في موضعه المناسب! وإن كان لفظ «الدواب» يشمل الناس، فهم يدبون علىٰ الأرض، ولكن استعماله يكثر في الدواب من الأنعام، فيلقي ظله بمجرد إطلاقه؛ ويخلع علىٰ ﴿ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ صورة البهيمة في الحس والخيال! وإنهم لكذلك! إنهم

---

(١) فتح القدير (٣/ ٤١٥).

لدوابٌ بهذا الظل. بل هم شر الدواب! فالبهائم لها آذانٌ ولكنها لا تسمع إلا كلماتٍ مبهمةً؛ ولها لسانٌ ولكنها لا تنطق أصواتًا مفهومةً، إلا أن البهائم مهتديةٌ بفطرتها فيما يتعلق بشؤون حياتها الضرورية، أما هؤلاء الدواب فهم موكولون إلىٰ إدراكهم الذي لا ينتفعون به، فهم شر الدواب قطعًا! ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾. ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ [الأنفال:٢٣]. أي لأسمعهم سماع قبول فتسمع قلوبهم مع أذانهم وتشرح قلوبهم لما تسمعه آذانهم، ولكنه - سبحانه- لم يعلم فيهم خيرًا ولا رغبةً في الهدىٰ، فقد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقي والاستجابة؛ فلم يفتح الله عليهم ما أغلقوا هم من قلوبهم، وما أفسدوا هم من فطرتهم. ولو جعلهم الله يدركون بعقولهم حقيقة ما يدعون إليه، ما فتحوا قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنفال:٢٣] لأن العقل قد يدرك، ولكن القلب المطموس لا يستجيب، فحتىٰ لو أسمعهم الله سماع الفهم لتولوا هم عن الاستجابة.

«وهذه الآية تعريضٌ بتشبيههم بالدواب، فإن الدواب ضعيفة الإدراك، فإذا كانت صماء كانت مثلًا في انتفاء الإدراك، وإذا كانت مع ذلك بكمًا انعدم منها ما انعدم منها ما يعرف به صاحبها ما بها، فانضم عدم الإفهام إلىٰ عدم الفهم»(١).

«ولما وصفهم بانتهاء قبول المعقولات والعجز عن النطق بالحجة أتبعه بانتفاء العقل عنهم؛ أي عقل النظر والتأمل بله عقل التقبل، وقد وصف بهذه الأوصاف في القرآن كلٌ من المشركين والمنافقين في مواضع كثيرة»(٢).

قال صاحب المنار: وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ أي: فقدوا فضيلة العقل الذي

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٣٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٣٠٦).

يميز بين الحق والباطل والخير والشر، إذ لو عقلوا لطلبوا، ولو طلبوا لسمعوا وميزوا ولو سمعوا لنطقوا وبينوا، وتذكروا وذكروا، فهم لفقدهم منفعة العقل والسمع والنطق صاروا كالفاقدين لهذه المشاعر والقوىٰ، بل هم شرٌّ من ذلك لأنهم أعطيت لهم المشاعر والقوىٰ فأفسدوها علىٰ أنفسهم لعدم استعمالها فيما خلقها الله لأجله»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٧١﴾ [البقرة: ١٧١]. «لما بين تعالىٰ عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل وردهم لذلك بالتقليد علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ولا مستجيبين له، بل كان معلومًا لكل أحدٍ أنهم لن يزولوا عن عنادهم، أخبر تعالىٰ أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلىٰ الإيمان كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها، وليس لها علمٌ بما يقول داعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهًا ينفعهم فلهذا كانوا صمًا لا يسمعون الحق سماع فهمٍ وقبولٍ، عميًا لا ينظرون نظر اعتبار، بكمًا فلا ينطقون بما فيه خيرٌ لهم. والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقلٌ صحيحٌ، بل هم أسفه السفهاء وأجهل الجهلاء.

فهل يستريب العاقل أن من دعي إلىٰ الرشاد وذيد عن الفساد ونهي عن اقتحام العذاب وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه، فعصىٰ الناصح وتولىٰ عن أمر ربه واقتحم النار علىٰ بصيرة واتبع الباطل ونبذ الحق.. إن هذا ليس له مسكةٌ من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء أنه من أسفه السفهاء»(٢).

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٥٢٣)، المؤلف: محمد رشيد رضا.

(٢) تفسير السعدي (١/ ٨١).

فالكفار صمٌ بكمٌ عميٌ - ولو كانت لهم آذانٌ وألسنةٌ وعيونٌ - ما داموا لا يهتدون إلىٰ الله. فكأنها لا تؤدي وظيفتها التي خلقت من أجلها، وكأنهم إذن لم توهب لهم آذانٌ وألسنةٌ وعيونٌ، وهذه منتهىٰ الزراية بمن يعطل تفكيره، ويغلق منافذ المعرفة والهداية، ويتلقىٰ في أمر العقيدة والشريعة من غير الجهة التي ينبغي أن يتلقىٰ منها أمر العقيدة والشريعة.

﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ شيئًا؛ لأن طريق التعقل هو التدبر في مبادئ الأمور المعقولة والتأمل في ترتيبها، وذلك إنما يحصل باستماع آيات الله ومشاهدة حججه الواضحة، والمفاوضة مع من يؤخذ منه العلوم، فإذا كانوا صمًا بكمًا عميًا فقد انسد عليهم أبواب التعقل وطرق الفهم بالكلية»[(١)]. «فهذا مثلٌ ضربه الله تعالىٰ لأهل الكفر إنهم مثل البهائم لا يعقلون شيئًا سوىٰ ما يسمعون من النداء»[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]. «وأما قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ فإن معناه لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم من خلقه قلوبٌ لا يتفكرون بها في آيات الله، ولا يتدبرون بها أدلته علىٰ وحدانيته ولا يعتبرون بها حججه لرسله، فيعلموا توحيد ربهم ويعرفوا حقيقة نبوة أنبيائهم. فوصفهم ربنا جل ثناؤه بأنهم لا يفقهون بها لإعراضهم عن الحق وتركهم تدبر صحة الرشد.

وكذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ معناه ولهم أعين لا ينظرون بها إلىٰ

---

(١) تفسير أبي السعود (١/ ١٩٠).

(٢) تفسير السمرقندي (١/ ١٣٩).

آيات الله وأدلته فيتأملوها ويتفكروا فيها فيعلموا بها صحة ما تدعوهم إليه رسلهم وفساد ما هم عليه مقيمون من الشرك بالله وتكذيب رسله فوصفهم الله بتركهم إعمالها في الحق بأنهم لا يبصرون بها. وكذلك قوله ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ آيات كتاب الله فيعتبروها ويتفكروا فيها ولكنهم يعرضون عنها ويقولون لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون»[١].

يقول السعدي: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: البهائم، التي فقدت العقول، وهؤلاء آثروا ما يفنىٰ، علىٰ ما يبقىٰ، فسلبوا خاصية العقل. بَلْ هُمْ أَضَلُّ من البهائم، فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان، تدرك بها، مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالا منهم. و ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله، وطاعته، وذكره. خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار، لتكون عونًا لهم علىٰ القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها علىٰ ضد هذا المقصود، فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممن ذرأ الله لجهنم وخلقهم لها، فخلقهم للنار، وبأعمال أهلها يعملون وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة الله، وانصبغ قلبه بالإيمان بالله ومحبته، ولم يغفل عن الله، فهؤلاء أهل الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون»[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣ – ٤٤]. «فقوله ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ سماع قبول، أو

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ١٣١– ١٣٢).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٣٠٩).

يفكرون فيما تقول فيعقلونه، أي هم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع... ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي في الأكل والشرب لا يفكرون في الآخرة ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾»[(١)].

ففي هذه الآية ذمٌ لمن لا يفكر ولا يستخدم عقله فيما ينفعه في حياته الدنيا وفي حياته الأخرىٰ، فلا ينقاد أمثال هؤلاء لما جاءهم من عند الله، مما فيه سعادتهم ونجاتهم، فهؤلاء أضل من الأنعام؛ لأن الأنعام تنقاد لمن يحسن إليها بطعامٍ أو شرابٍ، وهؤلاء لم ينقادوا لربهم الذي خلقهم ورزقهم، وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب.

قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، «﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي ليس الخلل في مشاعرهم وإنما هو في عقولهم، أي لا تدرك عقولهم مواطن الحق ومواضع الاعتبار»[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣]. وفي هذه الآية ذمٌ للكفار الذين لا يفكرون كما ينبغي، فعند سؤالهم عمن أنزل من السماء الماء ثم أحيا الأرض بعد موتها يجيبون بأن الفاعل لذلك هو الله، ومع ذلك يقعون في الشرك، فيعبدون مع الله آلهةً يزعمون أنها تقربهم من الله، ولذلك ذمهم ربنا جل جلاله بأنهم لا يعقلون.

ففي قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إضراب انتقالٍ من حمد الله علىٰ

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٣٦).

(٢) فتح القدير (٣/ ٤٦٠).

وضوح الحجج إلىٰ ذم المشركين، بأن أكثرهم لا يتفطنون لنهوض تلك الحجج الواضحة، فكأنهم لا عقل لهم؛ لأن وضوح الحجج يقتضي أن يفطن لنتائجها كلُّ ذي مُسكةٍ من عقل فنزلوا منزلة من لا عقول لهم. وإنما أسند عدم العقل إلىٰ أكثرهم دون جميعهم لأن من عقلائهم وأهل الفطن منهم من وضحت له تلك الحجج فمنهم من آمنوا، ومنهم من أصرّوا علىٰ الكفر عنادًا[١].

وبين ربنا جل جلاله حال اليهود وطبيعتهم وأنهم لا يستخدمون عقولهم كما ينبغي فقال تعالىٰ: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾ [الحشر: ١٤]. وقال تعالىٰ: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النساء: ٧٨]. ففي هذه الآية إخبار عن حال الكفار، وأنهم إذا أصيبوا بحسنةٍ «أي خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك، يقولوا ﴿هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ أي قحطٌ وجدبٌ ونقصٌ في الثمار والزروع أو موت أولادٍ أو نتاجٍ أو غير ذلك، ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَ﴾ أي من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك، ثم أمر النبي ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذٌ في البر والفاجر والمؤمن والكافر، ثم قال تعالىٰ: منكرًا علىٰ هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شكٍ وريبٍ وقلة فهمٍ وعلمٍ وكثرة جهلٍ وظلمٍ: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٨)، بتصرف يسير.

«والتفرقة بينهما «أي الحسنة والسيئة» من هذه الجهة لا تصدر إلاّ عن عقلٍ غير منضبط التفكير؛ لأنهم جعلوا بعض الحوادث من الله وبعضها من غير الله فلذلك قال: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ أي يكادون ألا يفقهوا حديثًا، أي ألا يفقهوا كلام من يكلّمهم»[(١)]. وفي قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ «أي: لا يفهمون حديثًا بالكلية، ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهمًا ضعيفًا، وعلىٰ كلٍ فهو ذمٌ لهم وتوبيخٌ علىٰ عدم فهمهم وفقههم عن الله، وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم. وفي ضمن ذلك مدحٌ من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث علىٰ ذلك، وعلىٰ الأسباب المعينة علىٰ ذلك من الإقبال علىٰ كلامهما وتدبره، وسلوك الطرق الموصلة إليه. فلو فقهوا عن الله، لعلموا أن الخير والشر، والحسنات والسيئات، كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيءٌ عن ذلك»[(٢)].

وقد ذم الله تعالىٰ من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة علىٰ ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥﴾ [يوسف: ١٠٥][(٣)]. والمراد بالآية هنا: العلامة التي فيها عبرةٌ وعظةٌ تدل علىٰ وحدانية الله وقدرته، يمر بها هؤلاء الكفار فلا يفكرون فيها، ولا يعتبرون منها؛ لأن بصائرهم قد طمس عليها بسبب كفرهم وعنادهم واتباعهم لأهوائهم وشهواتهم.

والآيات السابقة تدل علىٰ الله ووحدانيته وقدرته وهي كثيرةٌ ومبثوثةٌ في الكون، معروضةٌ للأبصار والبصائر - في السماوات وفي الأرض - يمرون عليها في كل وقت،

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٣١).
(٢) تفسير السعدي (١/ ١٨٩).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٤٤٠).

آناء الليل وأطراف النهار، بارزةٌ تواجه العيون المبصرة والمشاعر النابضة، واضحة للقلوب والعقول. ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون بها.

وإن لحظة تأملٍ في طلوع الشمس وغروبها. أو لحظة تأملٍ في الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد بلطف، أو لحظة تأملٍ في العين الفوارة، والنهر الجاري، أو لحظة تأملٍ في النبتة النامية التي تترعرع، والزهرة المتفتحة الجميلة، والحصيد الهشيم البالي، أو لحظة تأملٍ في الطائر المحلق في الفضاء، والسمك السابح في الماء، والدود السارب والنمل الدائب، وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوام.. أو لحظة تأملٍ في الصبحِ أو المساء، في هدأة الليل أو في زحمة النهار.. أو لحظةٌ واحدةٌ يتأمل فيها القلب البشري في عظمة هذا الكون العجيب التي تدل علىٰ عظمة الخالق.

ففي هذه الآية بيان «غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زهرات، ثوابت وسيارات، وأفلاكٍ دائرات، والجميع مسخراتٌ، وكم في الأرض من قطعٍ متجاوراتٍ، وحدائق وجناتٍ، وجبالٍ راسياتٍ، وبحارٍ زاخراتٍ، وأمواجٍ متلاطماتٍ، وقفارٍ شاسعاتٍ، وكم من أحياءٍ وأمواتٍ، وحيوانٍ ونباتٍ وثمراتٍ متشابهةٍ ومختلفاتٍ في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات وغير ذلك»[1]. فهم يمرون علىٰ هذه الآيات «غير متفكرين فيها ولا معتبرين بها، وفي هذا من تأكيد تعزية النبي ﷺ وذم القوم مافيه»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٩٥).

(٢) روح المعاني (١٣/ ٦٦).

يقول الشوكاني: «فالمعنىٰ: كم من آيةٍ تدلهم علىٰ توحيد الله، كائنةً في السموات من كونها منصوبةً بغير عمد، مزينةً بالكواكب النيرة السيارة والثوابت، وفي الأرض من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تدلهم علىٰ توحيد الله سبحانه، وأنه الخالق لذلك، الرزاق له المحيي والمميت، ولكن أكثر الناس يمرّون علىٰ هذه الآيات غير متأملين لها، ولا مفكرين فيها، ولا ملتفتين إلىٰ ما تدل عليه من وجود خالقها، وأنه المتفرد بالألوهية مع كونهم مشاهدين لها ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، وإن نظروا إليها بأعينهم فقد أعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحدقة وهىٰ التفكر والاعتبار والاستدلال»(١).

ويقول تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢].

«فقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ يقول: وهؤلاء المشركون عن آيات السماء ويعني بآياتها شمسها وقمرها ونجومها ﴿مُعْرِضُونَ﴾ يقول: يعرضون عن التفكر فيها وتدبر ما فيها من حجج الله عليهم ودلالتها علىٰ وحدانية خالقها، وأنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا لمن دبرها وسواها ولا تصلح إلا له»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩].

---

(١) فتح القدير (٣/ ٥٩).

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٢٢).

وفي هذه الآية ذمٌ لليهود الذين ورثوا التوراة من آبائهم، لكنهم يأخذون حطام الدنيا من حلالٍ وحرامٍ، ويدّعون علىٰ الله الكذب بأنهم سيُغفر لهم، ويعودون إلىٰ الحرام مرةً بعد أخرىٰ، ويرون أنهم سيُغفر لهم، وهذا من جهلهم وعدم استخدام عقولهم كما ينبغي. فقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: «أفلا تكون لكم عقولٌ توازن بين ما ينبغي إيثاره، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولىٰ بالسعي إليه، والتقديم له علىٰ غيره، فخاصية العقل النظر للعواقب، وأما من نظر إلىٰ عاجلٍ طفيفٍ منقطعٍ يفوت نعيمًا عظيمًا باقيًا، فأنىٰ له العقل والرأي؟»[(١)]. وفي هذا ذمٌ لهم لعدم تفكيرهم، التفكير الذي يردهم عن السفه والتبذير بعرض الدنيا عما أعد الله للمؤمنين من النعيم المقيم في جنات الخلود.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٥ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٦﴾ [يونس: ١٥ – ١٦]. «والهمزة في قوله﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ للتقريع والتوبيخ، أي أفلا تجرون علىٰ ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبي لما عرفتم من العادة المستمرة إلىٰ المدة الطويلة بالصدق والأمانة، وعدم قراءتي للكتب المنزلة علىٰ الرسل، وتعلمي لما عند أهلها من العلم، ولا طلبي لشيءٍ من هذا الشأن، ولا حرصي عليه، ثم جئتكم بهذا الكتاب الذي عجزتم عن الإتيان بسورةٍ منه، وقصرتم عن معارضته،

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٠٧).

وأنتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة المعترف لهم بأنهم البالغون فيها إلىٰ مبلغٍ لا يتعلق به غيركم»[(١)].

يقول السعدي: «فقوله: فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب، لجزمتم جزمًا لا يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذا أبيتم إلا التكذيب والعناد، فأنتم لا شك أنكم ظالمون»[(٢)].

ويقول أبو السعود في تفسيره: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: ألا تلاحظون ذلك فلا تعقلون امتناع صدوره عن مثلىٰ ووجوب كونه منزلًا من عند الله العزيز الحكيم، فإنه غير خافٍ علىٰ من له عقل سليم، والحق الذي لا محيد عنه أن من له أدنىٰ مسكة من العقل إذا تأمل في أمره ﷺ، وأنه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل، من غير مصاحبة العلماء في شأن من الشئون ولا مراجعةٍ إليهم في فنٍ من الفنون، ولا مخالطة البلغاء في المفاوضة والحوار، ولا خوضٍ معهم في إنشاء الخطب والأشعار، ثم أتىٰ بكتابٍ بهرت فصاحته كل فصيحٍ فائقٍ، وبزّت بلاغته كل بليغٍ رائقٍ، وعلا نظمه كل منثورٍ ومنظومٍ، وحوىٰ فحواه بدائع أصناف العلوم كاشفٌ عن أسرار الغيب من وراء أستار الكمون، ناطقٌ بأخبار ما قد كان وما سيكون مصدقٌ لما بين يديه من الكتب المنزلة، مهيمنٌ عليها في أحكامها المجملة والمفصلة، لا يبقىٰ عنده شائبة اشتباه في أنه وحيٌ منزلٌ من عند الله»[(٣)].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا

---

(١) فتح القدير (٢/ ٤٣١).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٣٦٠).

(٣) تفسير أبي السعود (٤/ ١٣٠).

تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ [هود: ٥١]. «فقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ﴾ خاطب به كلُ نبيٍّ قومه، إزاحةً لما عسىٰ يتوهمونه، وإمحاضًا للنصيحة، فإنها ما دامت مشوبةً بالمطامع بمعزل عن التأثير وإيراد الموصول للتفخيم وجعل الصلة فعل الفطرة لكونه أقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالىٰ المستوجبة للشكر، والذي لا يتأتىٰ إلا بالجريان علىٰ موجب أمره الغالب معرضًا عن المطالب الدنيوية التي من جملتها الأجر. ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي أتغفلون عن هذه القضية، أو ألا تتفكرون فيها فلا تعقلونها، أو أتجهلون كل شيءٍ فلا تعقلون شيئًا أصلًا، فإن هذا مما لا ينبغي أن يخفىٰ علىٰ أحدٍ من العقلاء»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠].

وفي هذه الآية ذمٌّ لكفار قريشٍ لعدم استخدام عقولهم في التفكير في هذا القرآن الكريم الذي فيه ذكرهم. يقول السعدي: «﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا تعملون علىٰ ما فيه ذكركم، وشرفكم في الدنيا والآخرة؟ فلو كان لكم عقلٌ، لسلكتم هذا السبيل. فلمّا لم تسلكوه، وسلكتم غيره من الطرق، التي فيها ضعتكم وخستكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما، علم أنه ليس لكم معقولٌ صحيحٌ، ولا رأيٌ رجيحٌ»(٢).

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٢١٦).

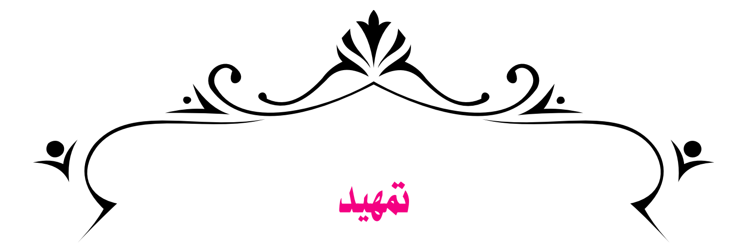
(٢) تفسير السعدي (١/ ٥١٩– ٥٢٠).

الفصل الثالث

أمورٌ حث القرآن الكريم على التفكير فيها

وهي في ستة مباحث:

- **المبحث الأول:** التفكير في الكون للتوصل لأسرار الوجود.
- **المبحث الثاني:** التفكير في أحوال الإنسان لأجل أن يمارس وظائفه بصورة أفضل.
- **المبحث الثالث:** التفكير في التاريخ والأجيال السابقة لأجل التعرف علىٰ السنن والقوانين التي وضعها الله تعالىٰ لحياة البشرية.
- **المبحث الرابع:** التفكير في الأمثال الدالة علىٰ وحدانية الله وقدرته.
- **المبحث الخامس:** التفكير في الأحكام الشرعية وحكمتها.
- **المبحث السادس:** التفكير في الموت والبعث، وفي حقيقة الدنيا والآخرة.



تمهيد

إن ما يميز الإنسان عن غيره من سائر المخلوقات، هو قدرته العقلية الإعجازية في التفكير والتطوير وعمارة الأرض.

والقرآن الكريم يحث الناس علىٰ التفكير في عدد من الظواهر في خلق الله ﷻ، مثل التفكير في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وفي خلق الإنسان، وفي خلق الحيوانات والطيور والنباتات، وفي البحار والأنهار، وفي الجبال والأرض، وفي القرآن الكريم وما فيه من قصصٍ وأمثالٍ، وحكمٍ وأحكامٍ، وفي الموت والحياة، وفي الدنيا والآخرة، وفي التاريخ والأجيال السابقة، إلىٰ غير ذلك من الأمور التي تدعو للتفكر.

و«القدرة علىٰ التفكير من خصائص الإنسان التي كرمه الله بها، فإذا أحسن الإنسان استخدام هذه الصفة ارتقىٰ في سلم النجاح، وإذا عطل التفكير كان ذلك من أهم أسباب الفشل في الحياة، بل يمكن أن تقول: إذا خلت الحياة من التفكير خلت من النجاح، وكما قال الفيلسوف ديكارت: «أنا أفكر إذن أنا موجود»[(١)].

ولابد من توظيف وتطوير وتنمية قدرتنا وقدرات المسلمين بشكل أفضل في التفكير ومعالجة نقاط الضعف، فربنا ﷻ خلق الإنسان وأودع فيه أمورًا عدةً: منها القدرة علىٰ التفكير، فلا بد من تفعيل هذه القدرة وعدم تعطيلها، ولذلك حث القرآن

---

(١) التفكير، عبدالله الصقهان، ص ٥.

الكريم علىٰ التفكير في أمورٍ عدةٍ هي مدار هذا الفصل.

والقرآن الكريم اهتم بمحاربة الأمية الفكرية أكثر من اهتمامه بمحاربة أمية القراءة والكتابة، ولذلك نرىٰ في القرآن الكريم آياتٍ كثيرةً تدعو إلىٰ التفكير والتدبر والتذكر والنظر إلىٰ غير ذلك من وسائل محاربة الأمية الفكرية، والقرآن الكريم يدعو إلىٰ التفكير في آيات الله المقروءة، وآياته المنظورة في الإنسان والكون والحياة.

«وأهل العقول السليمة لا يتفكرون فكرًا مجردًا ذاهلًا عن الواقع المحسوس، ولا يتفكرون بمعزل عن الله، إنما يتفكرون وهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلىٰ جنوبهم، ومن ثم يتصل الفكر عندهم بالله، ويتصل «العلم» كذلك بالله»(١).

و«لابد من ربط التفكير بالحس والنظر والتجربة؛ لأن التفكير النظري المجرد لا يؤدي إلا إلىٰ الجدل والمراء والبعد عن واقع الحياة، ومن ثم ربط القرآن بين الفكر وبين آيات الله في الكون ونظمه ونواميسه، وحذر من الانحراف عن هذا المنهج، وجعل من التاريخ عبرةً للبشرية، وطالب بالسير في الأرض والنظر في مصائر الأمم والحضارات السابقة والتفكير في سبب هلاكها وفنائها، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١](٢).

---

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ص ٩٨.

(٢) منهج القرآن في التربية، محمد شديد، ص ١٢٦.



المبحث الأول
التفكير في الكون للتوصل لأسرار الوجود

فربنا ﷻ بيّن أنه سيُري خلقه الآيات الدالة علىٰ وحدانيته في الخلق والملك والتدبير، وذلك من خلال النظر والتفكير في الآفاق وفي الأنفس، حتىٰ يعرفوه حق المعرفة، ويعبدوه كما يحب ويرضىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت: ٥٣]. «فالمراد بآيات الآفاق الآيات الفلكية والكوكبية وآيات الليل والنهار وآيات الأضواء والإظلال والظلمات وآيات عالم العناصر الأربعة وآيات المواليد الثلاثة، وقد أكثر الله منها في القرآن، وقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ المراد منها: الدلائل المأخوذة من كيفية تكون الأجنة في ظلمات الأرحام وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١].

يعني: نريهم من هذه الدلائل مرةً بعد أخرىٰ إلىٰ أن تزول الشبهات عن قلوبهم ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الإله القادر الحكيم العليم المنزّه عن المثل والضد»(١).

ولما كانت آيات الآفاق أعظم، قال رب العزة والجلال في خلق السماوات والأرض: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ١٤٠).

ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]. و «القرآن يدعو إلىٰ تدبر آيات الله في الكون، وفي حكمة التشريع ليهتدي إلىٰ الحق ويعمل بمقتضاه»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

وطريقة القرآن في تنبيه الحواس والمشاعر جديرةٌ بأن تفتح العين والقلب علىٰ عجائب هذا الكون، العجائب التي فقدناها نتيجة الألفة المتكررة لمشاهدة هذه الأمور، وفي تكرار الدعوة للنظر في الكون دعوةٌ للإنسان أن ينظر لهذا الكون كالذي يراه أول مرةٍ مفتوح العين، حي القلب. وكم في هذه المشاهد المكرورة من عجائب ومن غرائب، وكم تأملت العيون والقلوب وهي تطّلع عليها أول مرة؛ ثم تألفها فتفقد لذة النظرة، ودهشة المباغتة، وروعة النظرة الأولىٰ إلىٰ هذا الكون العجيب.

و«لما ذكر سبحانه التوحيد بقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [البقرة: ١٦٣] عقب ذلك بالدليل الدال عليه وهو هذه الأمور التي هي من أعظم صنعة الصانع الحكيم، مع علم كل عاقلٍ بأنه لا يتهيأ من أحدٍ من الآلهة التي أثبتها الكفار أن يأتي بشيءٍ منها، أو يقتدر عليه أو علىٰ بعضه، وهي خلق السماوات، وخلق الأرض، وتعاقب الليل والنهار، وجرىٰ الفلك في البحر، وإنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به، وبث الدواب منها بسببه وتصريف الرياح؛ فإن من أمعن نظره وأعمل

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ص ١٠٦.

فكره في واحدٍ منها انبهر له، وضاق ذهنه عن تصور حقيقته. وتحتم عليه التصديق بأن صانعه هو الله سبحانه»(١).

و«دلائل التوحيد محصورةٌ في قسمين: دلائل الآفاق، ودلائل الأنفس، ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم كما قال تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] ولما كان الأمر كذلك - لا جرم - أمر في هذه الآية بالفكر في خلق السموات والأرض لأن دلالتها أعجب وشواهدها أعظم»(٢).

وكم غفل الناس عن دقائق في المخلوقات السماوية والأرضية، وما بينهما وما فيهما، وما في الإنسان والحيوان والنبات والجماد ما لو تتبعوه لتجلىٰ لهم منها مَا يَمْلأ وصفُه الكتب، وكلما كان الإنسان أكثر تفكرًا وتأملًا في مخلوقات الله كلما كان أكثر معرفةً بعظمة الله وقدرته، واستحقاقه للطاعة والعبادة، والخضوع والتذلل.

❑ التفكير في خلق السموات والأرض:

ولقد جاءت آياتٌ عديدةٌ في القرآن الكريم تدعو إلىٰ التفكير في الكون عمومًا، ومن ذلك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

«أرشدنا الله - جل وعلا - إلىٰ النظر والتأمل في خلق السماوات والأرض، وما

---

(١) فتح القدير (١/ ١٦٣).

(٢) التفسير الكبير (٩/ ١١٢).

يكتنفه من مدلولاتٍ من أجل التواصل مع ما جرىٰ وما يجري في الكون؛ لأن ذلك التواصل هو وحده الذي يمد أفكارنا بالحياة»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١].

فالذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض هم الذين يبيتون لربهم قيامًا، ويذكرونه ويخشونه ويخافونه، وليس المقصود مجرد التدبر الإيماني المحض، فهذا من ضرورات تصحيح العقيدة ومن مستلزمات قيامها أصلًا، وإنما يُراد بذلك أيضًا التفكر العقلي الخالص والتأمل الذهني العميق الذي يفضي إلىٰ الكسب المعرفي الصحيح.

وفي القرآن الكريم نصوصٌ بينت هذه الآيات ومنها قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾[ق: ٦ – ٨]، وقوله تعالىٰ ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك: ٣ – ٥].

و«آية السماوات ارتفاعها بغير عمدٍ من تحتها ولا علائق من فوقها، ودل ذلك علىٰ القدرة وخرق العادة، ولو جاء نبيٌ فتحدىٰ بوقوف جبلٍ في الهواء دون علاقة

---

(١) ٢٠٣ بصيرة في العقل والوعي والتفكير، ص ٩٤.

كان معجزًا، ثم ما فيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة شارقةً وغاربةً نيرةً وممحوةً آيةٌ ثانيةٌ... وآية الأرض بحارها وأنهارها ومعادنها وشجرها وسهلها ووعرها»(١).

وذكر ابن كثيرٍ في تفسيره عند قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع»(٢).

ففي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ «حث العباد علىٰ التفكر فيها والتبصر بآياتها وتدبر خلقها وأبهم قوله: «آياتٍ» ولم يقل: علىٰ المطلب الفلاني، إشارةً لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين ويقنع المتفكرين ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة علىٰ جميع المطالب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه فلا يمكن لمخلوق أن يحصره ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة وانتظام السير والحركة يدل علىٰ عظمة خالقها وعظمة سلطانه وشمول قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنع ولطائف الفعل يدل علىٰ حكمة الله ووضعه الأشياء مواضعها وسعة علمه، وما فيها من المنافع للخلق يدل علىٰ سعة رحمة الله وعموم فضله وشمول بره ووجوب شكره»(٣).

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ١٩٢).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٢).
(٣) تفسير السعدي (١/ ١٦١)، مصدر سابق.

قال العلامة سينكا: «لا يستطيع المرء أن يرفع بصره نحو السماوات العلىٰ إلا ويغضه إجلالًا ووقارًا، إذ يرىٰ ملايين من النجوم الزاهرة الساطعة، ويراقب سيرها في أفلاكها، وتنقلها في أبراجها، وكل نجمٍ أو كوكبٍ وكل سديمٍ وأي سيارةٍ إنما هو دنيا قائمةٌ بذاتها، أكبر من الأرض وما فيها وما عليها وما حولها»(١).

وتسخير وتذليل ما في السماوات كالشمس والقمر والنجوم، وما في الأرض من حيوانٍ ونباتٍ ومعادن وغيرها «الظاهر منها والخفي» تسخيرها لفائدة البشر، دليلٌ علىٰ وحدانية الله وعظمته وقدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده، لكن لن يستدل علىٰ ذلك إلا من تفكر وتأمل في هذه الأمور.

وقال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ [الجاثية: ١٣]. «وهذا شاملٌ لأجرام السماوات والأرض، ولما أودع الله فيهما، من الشمس والقمر، والكواكب، والثوابت، والسيارات، وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمرات، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو معدٌّ لمصالح بني آدم ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آيته وحكمه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وجملة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها، دالٌّ علىٰ نفوذ مشيئة الله، وكمال قدرته وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنعة، وحسن الخلقة، دالٌّ علىٰ كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة، دالٌّ علىٰ سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات، دليلٌ علىٰ أنه الفعال لما يريد، وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية، دليلٌ علىٰ

(١) الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية، ص ٢٧، المؤلف: د/ أحمد مصطفىٰ متولي.

سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه وبره وكل ذلك دالٌ علىٰ أنه وحده، المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاؤوا به، فهذه أدلةٌ عقليةٌ واضحةٌ، لا تقبل ريبًا ولا شكًا»[١].

يقول الشوكاني: «وخص المتفكرين لأنه لا ينتفع بها إلا من تفكر فيها، فإنه ينتقل من التفكير إلىٰ الاستدلال بها علىٰ التوحيد»[٢].

ومن الأمور التي تحتاج إلىٰ تفكير: النظر في السموات والأرض وكيف أنشأت من غير مثالٍ سابقٍ مع الإحسان والإتقان في خلقهما كما قال تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة: ١١٧] يقول الطبري: «يعني جل ثناؤه بقوله بديع السماوات والأرض مبدعها... ومعنىٰ المبدع المنشئ والمحدث ما لم يسبقه إلىٰ إنشاء مثله وإحداثه أحدٌ، ولذلك سمي المبتدع في الدين مبتدعًا لإحداثه فيه ما لم يسبقه إليه غيره»[٣].

يقول ابن القيم: «وإذا نظرت إلىٰ الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشًا ومهادًا، وذللها لعباده وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم، وأرساها بالجبال فجعلها أوتادًا تحفظها لئلا تميد بهم ووسع أكنافها ودحاها فمدها وبسطها، وطحاها فوسعها من جوانبها وجعلها كفاتًا للأحياء تضمهم علىٰ ظهرها ما داموا أحياء، وكفاتًا للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا، فظهرها وطن للأحياء

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٧٧٦).

(٢) فتح القدير (٥/ ٦).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٥٠٨).

وبطنها وطن للأموات، وقد أكثر تعالىٰ من ذكر الأرض في كتابه ودعا عباده إلىٰ النظر إليها والتفكر في خلقها»(١).

❑ التفكير في اختلاف الليل والنهار:

ومن الأمور التي دعي الإنسان للتفكير فيها «اختلاف الليل والنهار» واختلافهما يشمل اختلافهما في النور والظلمة، والبرودة والحرارة، والطول والقصر، وكون الليل للنوم، والنهار للعمل، ولِلّيلِ حيواناتٌ وطيورٌ خاصةٌ به، وللنهار حيواناتٌ وطيورٌ خاصةٌ به، ومن المعاني أن كل واحدٍ يخلف الآخر ويتبعه في الذهاب والمجيء.

يقول ابن القيم: «ومن آياته سبحانه تعالىٰ الليل والنهار، وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته، ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن ويبديه كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان: ٤٧] وقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٣] وقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر: ٦١] وهذا كثيرٌ في القرآن. فانظر إلىٰ هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات علىٰ ربوبية الله وحكمته، كيف جعل الليل سكنًا ولباسًا يغشىٰ العالم فتسكن فيه الحركات وتأوي الحيوانات إلىٰ بيوتها، والطير إلىٰ أوكارها، وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعي والتعب، حتىٰ إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلىٰ معايشها وتصرفها جاء فالق الإصباح ﷻ بالنهار، يقدم جيشه بشير الصباح فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزقٍ،

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٩- ٢٠٠).

وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون، فانتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه، وخرجت الطيور من أوكارها، فياله من معادٍ ونشأةٍ دالٍ علىٰ قدرة الله سبحانه علىٰ المعاد الأكبر»(١).

ولقد جاءت آياتٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم تدعو إلىٰ التفكير والتأمل في اختلاف الليل والنهار، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾[آل عمران: ١٩٠]. يقول السعدي عن اختلاف الليل والنهار: «وهو تعاقبهما علىٰ الدوام، إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط وفي الطول والقصر والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم وجميع ما علىٰ وجه الأرض من أشجارٍ ونوابتٍ، كل ذلك بانتظامٍ وتدبيرٍ وتسخيرٍ تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول، ما يدل ذلك علىٰ قدرة مصرفها وعلمه وحكمته ورحمته الواسعة ولطفه الشامل، وتصريفه وتدبيره الذي تفرد به وعظمته وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أن يؤلّه ويعبّد ويفرد بالمحبة والتعظيم والخوف والرجاء وبذل الجهد في محابه ومراضيه»(٢).

وفي فتح القدير: «والمراد باختلاف الليل والنهار تعاقبهما بإقبال أحدهما وإدبار الآخر وإضاءة أحدهما وإظلام الآخر»(٣). وقال ابن كثير في تفسيره: «واختلاف الليل والنهار هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠٣).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٧٨).

(٣) فتح القدير (١/ ١٦٣).

لحظةً كما قال تعالىٰ: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: ٤٠] وتارةً يطول هذا ويقصر هذا، وتارةً يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان كما قال تعالىٰ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أي يزيد من هذا في هذا ومن هذا في هذا»(١).

ويقول صاحب التفسير الكبير: «ذكروا للاختلاف تفسيرين أحدها: أنه افتعال من قولهم خلفه يخلفه إذا ذهب الأول وجاء الثاني، فاختلاف الليل والنهار تعاقبهما في الذهاب والمجيء... وبهذا فسر قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ﴾ [الفرقان:٦٢] والثاني: أراد اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر والنور والظلمة والزيادة والنقصان.

وعندي فيه وجه ثالث: وهو أن الليل والنهار كما يختلفان بالطول والقصر في الأزمنة فهما يختلفان بالأمكنة، فإن عند من يقول الأرض كرة فكل ساعةٍ عينتها فتلك الساعة في موضعٍ من الأرض صبحٌ وفي موضعٍ آخر ظهرٌ وفي موضعٍ ثالثٍ عصرٌ وفي رابعٍ مغربٌ وفي خامسٍ عشاءٌ وهلم جرًا، هذا إذا اعتبرنا البلاد المخالفة في الأطوال، أما البلاد المختلفة بالعرض فكل بلدٍ تكون عرضه الشمالي أكثر كانت أيامه الصيفية أطول ولياليه الصيفية أقصر وأيامه الشتوية بالضد من ذلك»(٢).

يقول ابن عاشور: فقوله: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تذكيرٌ بآيةٍ أخرىٰ عظيمةٍ لا تخفىٰ علىٰ أحدٍ من العقلاء، وهي اختلاف الليل والنهار أعني اختلاف حالتي

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٢).
(٢) التفسير الكبير (٤/ ١٧٥).

الأرض في ضياء وظلمة، وما في الضياء من الفوائد للناس وما في الظلمة من الفوائد لهم لحصول سكونهم واسترجاع قواهم المنهوكة بالعمل.

وفي ذلك آيةٌ لخاصة العقلاء إذ يعلمون أسباب اختلاف الليل والنهار علىٰ الأرض وأنه من آثارٍ دوران الأرض حول الشمس في كل يوم، ولهذا جعلت الآية في اختلافهما وذلك يقتضي أن كلًا منهما آيةٌ... وللاختلاف معنىٰ آخر هو مرادٌ أيضًا، وهو تفاوتهما في الطول والقصر، فمرةً يعتدلان ومرةً يزيد أحدهما علىٰ الآخر، وذلك بحسب أزمنة الفصول وبحسب أمكنة الأرض في أطوال البلاد وأعراضها كما هو مقرر في علم الهيئة، وهذا أيضًا من مواضع العبرة لأنه آثار الصنع البديع في شكل الأرض ومساحتها للشمس قربًا وبعدًا، ففي اختيار التعبير بالاختلاف هنا سرٌ بديعٌ لتكون العبارة صالحة للعبرتين»[(١)].

ومن الأدلة التي توضح معنىٰ اختلاف الليل والنهار قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧١ – ٧٢].

والقرآن الكريم يدعو الناس للتأمل في الكون من حولهم ومشاهدِه العظيمة العجيبة؛ وذلك حين يخيل إليهم استمرار الليل أبدًا أو النهار أبدًا، وحين يخيفهم من عواقب هذا وذاك، وما يشعر الإنسان بقيمة الشيء إلا حين يفقده أو يخاف عليه الفقدان.

و«هذا امتنان من الله علىٰ عباده، يدعوهم به إلىٰ شكره، والقيام بعبوديته وحقه، أن جعل لهم من رحمته النهار ليبتغوا من فضل الله، وينتشروا لطلب أرزاقهم

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٧٩).

ومعايشهم في ضيائه والليل ليهدؤوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم وأنفسهم، من تعب التصرف في النهار، فهذا من فضله ورحمته بعباده، فهل أحدٌ يقدر علىٰ شيء من ذلك؟ وقال في الليل: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ وفي النهار: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾. لأن سلطان السمع في الليل أبلغ من سلطان البصر وعكسه النهار، وفي هذه الآيات تنبيهٌ إلىٰ أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه ويستبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وازن بين حالة وجودها، وبين حالة عدمها تنبه عقله لموضع المنة، بخلاف من جرىٰ مع العوائد، ورأىٰ أن هذا أمر لم يزل مستمرًا، ولا يزال، وعمي قلبه عن الثناء علىٰ الله بنعمه، ورؤية افتقاره إليه في كل وقت، فإن هذا لا يحدث له فكرة شكرٍ ولا ذكر»(١).

«ومن أبدع الاستدلال أن اختير للاستدلال علىٰ وحدانية الله هذا الصنع العجيب المتكرر كل يوم مرتين، والذي يستوي في إدراكه كل مميزٍ، والذي هو أجلىٰ مظاهر التغير في هذا العالم فهو دليل الحدوث، وهو مما يدخل في التكيف به جميع الموجودات في هذا العالم حتىٰ الأصنام فهي تظلم وتسود أجسامها بظلام الليل وتشرق وتضيء بضياء النهار، وكان الاستدلال بتعاقب الضياء والظلمة علىٰ الناس أقوىٰ وأوضح من الاستدلال بتكوين أحدهما لو كان دائمًا؛ لأن قدرة خالق الضدين وجاعل أحدهما ينسخ الآخر كل يوم أظهر منها لو لم يخلق إلا أقواهما وأنفعهما، ولأن النعمة بتعاقبهما دومًا أشد من الأنعام بأفضلهما وأنفعهما لأنه لو كان دائمًا لكان مسؤومًا ولحصلت منه طائفةٌ من المنافع، وفقدت منافع ضده. فالتنقل في النعم مرغوبٌ فيه ولو كان تنقلًا إلىٰ ما هو اهتمامًا بهذا التذكير لهذا الاستدلال ولاشتماله

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٦٢٣).

علىٰ ضدين متعاقبين، حتىٰ لو كانت عقولهم قاصرةً عن إدراك دلالة أحد الضدين لكان في الضد الآخر تنبيهًا لهم، ولو قصروا عن حكمة كل واحد منهما كان في تعاقبهما ما يكفي للاستدلال»[١].

«وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الرعد: ٣]. وقال تعالىٰ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٤﴾ [النور: ٤٤]. ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ من حرٍ إلىٰ بردٍ، ومن بردٍ إلىٰ حرٍ، ومن ليلٍ إلىٰ نهارٍ، ومن نهارٍ إلىٰ ليلٍ، ويديل الأيام بين عباده. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: لذوي البصائر، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلىٰ الأمور المشاهدة الحسية، فالبصير ينظر إلىٰ هذه المخلوقات نظر اعتبارٍ وتفكيرٍ، وتدبر لما أريد بها ومنها، والمعرض الجاهل، نظره إليها نظر غفلةٍ، بمنزلة نظر البهائم»[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٨٦﴾ [النمل: ٨٦].

ومشهد الليل الساكن، ومشهد النهار المبصر، جديران أن يوقظا في الإنسان وجدانًا دينيًا يدعو إلىٰ الاتصال بالله، الذي يقلب الليل والنهار، وهما آيتان كونيتان لمن استعدت نفسه للإيمان، ولكنهم لا يؤمنون.

ولو لم يكن هناك ليلٌ فكان الدهر كله نهارًا لانعدمت الحياة علىٰ وجه الأرض، وكذلك لو كان الدهر كله ليلًا، لا بل إنه لو كان النهار أو الليل أطول مما هما الآن

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٦٩).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٥٧١).

عشر مراتٍ فقط لحرقت الشمس في النهار كل نبات، ولتجمد في الليل كل نبات، وعندئذ تستحيل الحياة، ففي الليل والنهار بحالتهما الموافقة للحياة آياتٌ.

«إن من تأمل في تعاقب الليل والنهار واختلافهما علىٰ وجوهٍ بديعةٍ مبنيةٍ علىٰ حِكمٍ رائقة تحار في فهمها العقول ولا يحيط بها إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وشاهد في الآفاق تبدُّل ظلمة الليل المحاكية للموت بضياء النهار المضاهي للحياة، وعاين في نفسه تبدل النوم الذي هو أخو الموت بالانتباه الذي هو مثل الحياة قضىٰ بأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور قضاءً متقنًا، وجزم بأنه تعالىٰ قد جعل هذا أنموذجًا له ودليلًا يستدل به علىٰ تحققه، وأن الآيات الناطقة به وبكون حال الليل والنهار برهانًا عليه وسائر الآيات كلها حقٌّ نازلٌ من عند الله تعالىٰ»(١). «ووجه كون الآيات في ذلك كثيرة كما اقتضاه الجمع هو أن في نظام الليل آيات علىٰ الانفراد بخلق الشمس وخلق نورها الخارق للظلمات، وخلق الأرض، وخلق نظام دورانها اليومي تجاه أشعة الشمس وهي الدورة التي تكوّن الليل والنهار، وفي خلق طبع الإنسان بأن يتلقّىٰ الظلمة بطلب السكون لما يعتري الأعصاب من الفتور دون بعض الدواب التي تنشط في الليل كالهوام والخفافيش وفي ذلك أيضًا دلالة علىٰ تعاقب الموت والحياة، فتلك آياتٌ وفي كل آية منها دقائق ونظم عظيمة لو بسط القول فيها لأوعبَ مجلداتٍ من العلوم.

وفي جعل النهار مبصرًا آياتٌ كثيرة علىٰ الوحدانية ودقة صنع تُقابِل ما تقدم في آيات جعل الليل سَكنًا. وفيه دلالة علىٰ أن لا إحالة ولا استبعاد في البعث بعد

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ٣٠٣).

الموت، وأنه نظير بعث اليقظة بعد النوم، وفي جليل تلك الآيات ودقيقها عدة آيات فهذا وجهُ جعله ذلك آيات ولم يجعل آيتين»[١].

التفكير في خلق الشمس والقمر:

والشمس والقمر آيتان من آيات الله الكبرىٰ الدالة علىٰ عظيم قدرته، وبديع صنعته، وهي من الآيات الكونية التي يجب علىٰ المسلم التفكير ببديع صنعهما، والوظائف المنوطة بهما، فهما آيتان مسخرتان لخدمة الإنسان، وبقية المخلوقات، ولهما فوائد متعددة للكائنات الحية علىٰ وجه الأرض.

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ [الرعد: ٢]. يقول البيضاوي في تفسيره عند قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾: «لكي تتفكروا فيها وتتحققوا كمال قدرته فتعلموا أن من قدر علىٰ خلق هذه الأشياء وتدبيرها قدر علىٰ الإعادة والجزاء»[٢].

وحول تذليل الشمس والقمر والنجوم للإنسان يقول تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝١٢﴾ [النحل: ١٢]. أي: «سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم، وأنواع مصالحكم، بحيث لا تستغنون عنها أبدا، فبالليل تسكنون وتنامون، وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معايشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار، والنبات، وتجفيف الرطوبات، وإزالة

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٤٤).

(٢) تفسير البيضاوي (٣/ ٣١٦).

البرودة الضارة للأرض وللأبدان، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات، التابعة لوجود الشمس والقمر، وفيهما وفي النجوم من الزينة للسماء والهداية، في ظلمات البر والبحر، ومعرفة الأوقات، وحساب الأزمنة، ما تتنوع دلالاتها، وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن لهم عقولٌ يستعملونها في التدبر والتفكر، فيما هي مهيأةٌ له، مستعدةٌ، تعقل ما تراه، وتسمعه، لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظرة حظ البهائم التي لا عقل لها»[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]. «أي بتسخيره وتدبيره، الدال علىٰ ما له من أوصاف الكمال فخلقها وعظمها دالٌ علىٰ كمال قدرته، وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان، دالٌ علىٰ كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها، دالٌ علىٰ سعة رحمته وعلمه، وأنه الإله الحق، الذي لا تنبغي العبادة إلا له»[(٢)].

«والتّسخير حقيقته تذلِيل ذي عملٍ شاقٍ أو شاغلٍ بقهرٍ وتخويفٍ، أو بتعليمٍ وسياسةٍ بدون عوض، فمنه تسخير العبيد والأسرىٰ، ومنه تسخير الأفراس والرّواحل، ومنه تسخير البقر للحلب، والغنم للجزّ، ويستعمل مجازًا في تصريف الشّيء غير ذي الإرادة في عملٍ عجيبٍ أو عظيمٍ من شأنه أن يصعب استعماله فيه، بحيلةٍ أو إلهامٍ تصريفًا يصيّره من خصائصه وشؤونه، كتسخير الفُلك للمخرِ في البحر بالرّيح أو بالجذف، وتسخير السّحاب للأمطار، وتسخير النّهار للعمل،

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٣٧).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٢٩١).

والليل للسكون، وتسخير الليل للسير في الصيف، والشمس للدفء في الشتاء، والظل للتبرد في الصيف، وتسخير الشجر للأكل من ثماره حيث خلق مجردًا عن موانع تمنع من اجتنائه مثل الشوك الشديد، فالأسد غير مسخرٍ بهذا المعنىٰ، ولكنه بحيث يسخر إذا شاء الإنسان الانتفاع بلحمه أو جلده بحيلة لصيده بزُبية أو نحوها، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] باعتبار هذا المجاز علىٰ تفاوتٍ في قوة العلاقة. فقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أطلق التسخير فيه مجازًا علىٰ جعلها خاضعة للنظام الذي خلقها الله عليه بدون تغيير مع أنّ شأن عِظمها ألا يستطيعَ غيره تعالىٰ وضعها علىٰ نظامٍ محدودٍ منضبط»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس: ٥].

فهذان مشهدان واضحان من مشاهد الكون، ننساهما لطول الألفة، ونفقد وقعهما في القلب بطول التكرار، وإلا فكيف وهلة الإنسان وهو يشاهد أول مرةٍ أول شروق شمسٍ وأول غروب؟ وأول مطلع قمرٍ وأول مغيبٍ؟ هذان مشهدان مألوفان مكروران يردُّنا القرآن إليهما، ليثير في قلوبنا التأمل والتدبر، وليحيي في قلوبنا إحساس التطلع الحي للكون، والتأمل الذي لم يؤثر فيه التكرار، والتيقظ لما في خلقهما وطبيعة تكوينهما من التدبير المحكم.

ويقول السعدي: «وفي هذه الآيات الحث والترغيب علىٰ التفكر في مخلوقات الله

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٦٩).

والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوىٰ القريحة، وفي إهمال ذلك، تهاونٌ بما أمر الله به، وإغلاقٌ لزيادة الإيمان، وجمودٌ للذهن والقريحة»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان: ٤٥].

والقرآن يوجه القلب والعقل دائمًا إلىٰ مشاهدة عظمة هذا الكون؛ التي تدل علىٰ عظمة الخالق، ويدعو الإنسان أن يسير في هذا الكون ليتأمل الآيات المبثوثة في تضاعيفه المنتشرة في أرجائه، ويرىٰ فيها قدرة الله المدبر لهذا الكون، ويستشعر آثار هذه القدرة في كل ما تقع عليه عينه، وكل ما يلمسه حسه، وكل ما يلتقطه سمعه؛ أو ينظر إليه ببصره وبصيرته، ويتخذ من هذا كله مادةً للتدبر والتفكر، والاتصال بالله.

وحين يعيش الإنسان في هذا الكون مفتوح العين والقلب، مستيقظ الحس والروح، موصول الفكر والخاطر، فإن حياته ترتفع عن تفاهات الأرض الصغيرة، وشعوره بالحياة يتسامىٰ ويتضاعف معًا، وهو يحس في كل لحظةٍ أن آفاق الكون أفسح كثيرًا من رقعة هذه الأرض وأن كل ما يشهده صادرٌ عن عليم حكيم قدير.

ومن الأمور التي ينبغي للمسلم أن يتفكر فيها كون الشمس نورًا مع حرارة، والقمر نورًا بدون حرارة، كما قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٦١]، ففي خلق الشمس والقمر، وجمالهما، وسيرهما بانتظامٍ ودقةٍ، دليلٌ علىٰ عظمة الخالق، وما فيهما من المصالح والمنافع دليلٌ علىٰ إحسانه وكثرة خيراته للخلق.

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٥٨).

وفي خلق النجوم دليلٌ علىٰ عظمة الخالق لمن نظر إليها نظر تفكرٍ وتأملٍ، فهي مخلوقةٌ كما ذكر في القرآن الكريم، زينةً للسماء وعلاماتٍ يستدل بها في الليل علىٰ الجهات الأربع والأماكن، ورجومًا للشيطان، قال قَتَادَةُ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥] خلق هذه النجوم لثلاث، جعلها زينةً للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدىٰ بها، فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به[١].

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك: ٥]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ٦-١٠].

ونظرةٌ واحدة إلىٰ السماء كافيةٌ لرؤية هذه الزينة المبهرة؛ ولإدراك أن الجمال في بناء الكون عنصرٌ مقصودٌ؛ فالجمال في الكون شيء عميق لا عرضٌ سطحي؛ وتصميمه قائمٌ علىٰ جمال التكوين كما هو قائمٌ علىٰ كمال الوظيفة سواءً بسواء، فكل شيءٍ فيه بقدر، وكل شيءٍ فيه يؤدي وظيفته بدقة؛ وهو في مجموعه جميل.

وقال تعالىٰ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦]. وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٩٧﴾ [الأنعام: ٩٧]. فقوله تعالىٰ: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ «لقوم يتفكرون ويتأملون ويستدلون بالمحسوس علىٰ المعقول وينتقلون من الشاهد إلىٰ الغائب»[٢].

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١١٦٨).

(٢) التفسير الكبير (١٣/ ٨٣).

وتختلف وسائل الاهتداء بالنجوم من عصر لأخر، ويتسع مداها بالإكتشافات العلمية الحديثة والتجارب المنوعة. وتبقىٰ القاعدة ثابتة: قاعدة الاهتداء بهذه النجوم في ظلمات البر والبحر.. سواءً في ذلك؛ الظلمات الحسية أو الظلمات المعنوية؛ ظلمات التصور والفكر. ويبقىٰ النص القرآني يخاطب البشرية عند نزوله بهذه الحقيقة، فتجد مصداقها في واقع حياتها الذي تزاوله، ويخاطبها بها وقد فتح عليها ما أراد أن يفتح من الأسرار في الأنفس والآفاق، فتجدها كذلك مصداقَ قوله في واقع حياتها الذي تزاوله..

وتبقىٰ مزية المنهج القرآني في مخاطبة الفطرة بالحقائق الكونية، واقعًا حقيقيًا، لا نظريات أفتراضية.. صورةٌ تتجلىٰ من ورائها عظمة الخالق، وتقديره، ورحمته وتدبيره لهذا الكون. صورةٌ تؤثر في القلب السليم، دافعةٌ له إلىٰ التفكر وإلىٰ استخدام العلم والمعرفة للوصول إلىٰ معرفة الله وتعظيمه.. لذلك يعقب علىٰ آية النجوم التي جعلها الله للناس ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر هذا التعقيب الرائع: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

فالاهتداء بالنجوم في ظلمات البر والبحر يحتاج إلىٰ علمٍ بمسالكها ودوراتها ومواقعها ومداراتها، كما يحتاج إلىٰ قومٍ يعلمون دلالة هذا كله علىٰ الخالق الحكيم العليم. فالاهتداء هو الاهتداء في الظلمات الحسية الواقعية، وفي الظلمات المعنوية ظلمات التصور والفكر، والذين يستخدمون النجوم للاهتداء الحسي فقط، ثم لا يصلون ما بين دلالتها ومبدعها، هم قومٌ لم يهتدوا بها تلك الهداية الكبرىٰ؛ وهم الذين يقطعون بين الكون وخالقه، وبين آيات هذا الكون ودلالتها علىٰ الخالق العظيم.

❑ التفكير في البحار:

ومن الأمور التي تحتاج إلىٰ تأملٍ وتفكيرٍ البحار وما فيها من مخلوقاتٍ كثيرةٍ عظيمةٍ منوعةٍ، وكذلك التفكير بما يجري عليها من السفن الصغيرة، والبواخر الكبيرة، والتي فيها منافع للناس، ولذلك ذكرت الفلك التي تجري في البحر علىٰ أنها من الآيات التي يستفيد منها أصحاب العقول السليمة، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤]. «وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع علىٰ عجائبه، ولذلك قُدِّم علىٰ ذكر المطر والسحاب لأن منشأهما البحر في غالب الأمر»(١).

ووجه كون الفلك آيةً، تسخيرها للإنسان بصنعها، والاستفادة منها بنقلهم من قطرٍ إلىٰ آخر، ونقل بضائعهم، واستخدامها لصيد السمك وغيرها من الكائنات البحرية، واستخراج اللؤلؤ والمرجان، وكذلك سيرها ووقوفها علىٰ البحر مع ثقلها آيةٌ من آيات الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ٣٢﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وفي كون الفلك «آيةً من حيث إنها تجري في البحر، وفي كونها نعمةً من حيث إنها تجري بما ينفع الناس، فأما جريها في البحر فهو يتضمن آيتين: إحداهما: آية خلق

---

(١) تفسير أبي السعود (١/ ١٨٤).

البحر الذي تجري فيه الفلك خلقًا عجيبًا عظيمًا، إذ كان ماءً غامرًا لأكثر الكرة الأرضية، وما فيه من مخلوقاتٍ وما ركب في مائِهِ من الأملاح والعقاقير الكيمياوية، ليكون غير متعفنٍ بل بالعكس يخرج للهواء أجزاءً نافعةً للأحياء علىٰ الأرض، والثانية: آية سير السفن فيه وهو ماءٌ من شأنه أن يتعذر المشي عليه، فجري السفن آيةٌ من آيات إلهام الله تعالىٰ الإنسان للتفطن لهذا التسخير العجيب الذي استطاع به أن يسلك البحر كما يمشي في الأرض، وصُنْعُ الفلك من أقدم مخترعات البشر ألهمه الله تعالىٰ نوحًا عليه السلام في أقدم عصور البشر»[(١)].

والبحار كذلك مسخرةٌ مذللةٌ لبني آدم، يأكلون من لحومها، ويستخرجون من حليها، وتسير عليها سفنهم، لنقلهم وأمتعتهم، ونقل بضائعهم من قطرٍ إلىٰ آخر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤]. يقول ابن كثيرٍ في تفسيره: «يخبر تعالىٰ عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج ويمتن علىٰ عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حليةً يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه»[(٢)].

وكون لحم البحر طريًا له فائدةٌ كما ذكرها الرازي بقوله: «واعلم أن في ذكر الطري مزيد فائدة، وذلك لأنه لو كان السمك كله مالحًا، لما عرف به من قدرة الله

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٨٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٦٥).

تعالىٰ ما يعرف بالطري، فإنه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث لا بحسب الطبيعة، بل بقدرة الله وحكمته حيث أظهر الضد من الضد»(١).

ويقول ابن القيم: «وإذا تأملت عجائب البحر وما فيه من الحيوانات علىٰ اختلاف أجناسها وأشكالها ومقاديرها ومنافعها ومضارها وألوانها، حتىٰ إن فيها حيوانًا أمثال الجبال لا يقوم له شيءٌ، وحتىٰ إن فيه من الحيوانات ما يرىٰ ظهورها فيظن أنها جزيرة، فينزل الركاب عليها فتحس بالنار إذا أوقدت، فتتحرك فيعلم أنه حيوانٌ، وما من صنفٍ من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله، حتىٰ الإنسان والفرس والبعير وأصنافها، وفيه أجناسٌ لا يعهد لها نظير في البر أصلًا، هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان، فترىٰ اللؤلؤة كيف أودعت في كن كالبيت لها وهي الصدفة تكنها وتحفظها، ومنه اللؤلؤ المكنون وهو الذي في صدفه لم تمسه الأيدي، وتأمل كيف نبت المرجان في قعره في الصخرة الصماء تحت الماء علىٰ هيئة الشجر، هذا مع ما فيه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه... وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيها إلا الله سبحانه»(٢).

«ولو رأىٰ العبد ما في البحر من ضروب الحيوانات والجواهر والأصناف التي لا يحصيها إلا الله ولا يعرف الناس منها إلا الشيء القليل الذي لا نسبة له أصلًا إلىٰ ما غاب عنهم لرأىٰ العجب ولعلم سعة ملك الله وكثرة جنوده التي لا يعلمها إلا هو»(٣).

---

(١) التفسير الكبير (٢٠/ ٦).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠٤- ٢٠٥).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٥٢).

ومن الأمور التي تدل علىٰ عظمة الخالق وجود حواجز بين بعض البحار لا تُرىٰ بالعين المجردة، بل وُجِدت عيونُ ماءٍ حلوةٍ في وسط بعض البحار المالحة تم اكتشافها حديثًا، مع أنها مذكورةٌ في القرآن الكريم قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا، كما قال تعالىٰ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾[الرحمن: ١٩ – ٢٠]. وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان: ٥٣]. يقول الشنقيطي في تفسيره: «يوجد في بعض المواضع اختلاط الماء الملح والماء العذب في مجرىً واحد، ولا يختلط أحدهما بالآخر، بل يكون بينهما حاجزٌ من قدرة الله تعالىٰ، وهذا محقّق الوجود في بعض البلاد، ومن المواضع التي هو واقع فيها المحل الذي يختلط فيه نهر السنغال بالمحيط الأطلسي بجنب مدينة سان لويس، وقد زرت مدينة سان لويس عام ستّ وستّين وثلاثمائة وألفٍ هجرية، واغتسلت مرةً في نهر السنغال، ومرةً في المحيط، ولم آت محل اختلاطهما ولكن أخبرني بعض المرافقين الثقات أنه جاء إلىٰ محل اختلاطهما، وأنه جالس يغرف بإحدىٰ يديه عذبًا وفراتًا، وبالأخرىٰ ملحًا أُجاجًا، والجميع في مجرىً واحد، لا يختلط أحدهما بالآخر، فسبحانه جلَّ وعلا ما أعظمه، وما أكمل قدرته»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١]. و«اكتشفت الدراسات الحديثة أن البحار رغم أنها تبدو متجانسة، إلا أن هناك فروقًا كبيرة بين كتلها المائية، وفي المناطق التي يلتقي فيها بحران مختلفان يوجد حاجزٌ

---

(١) أضواء البيان (٦/ ٦٥).

بينهما، هذا الحاجز يفصل بين البحرين بحيث إن كل بحرٍ له حرارته وملوحته وكثافته الخاصة به... ومن أمثلة ذلك أنه توجد حواجز بين مياه البحر الأبيض المتوسط الساخنة والمالحة عند دخولها إلىٰ المحيط الأطلسي ذي المياه الباردة والأقل كثافةً، كما توجد مثل هذه الحواجز بين مياه البحر الأحمر ومياه خليج عدن. وهاهو أحد أكبر علماء فرنسا «جاكستو» صاحب الأفلام التلفزيونية عن البحار يقول: «اكتشفنا أن بين البحار المالحة حاجزًا من ماءٍ ثالث يختلف في تركيبه عن تركيب البحرين»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر: ١٢]. والحلية من اللؤلؤ والمرجان، واللؤلؤ يوجد في أنواع القواقع يتكون في أجسامها نتيجة دخول جسم غريب كحبة رمل أو نقطة ماء، فيفرز جسم القوقعة داخل الصدفة إفرازًا خاصًا يحيط بهذا الجسم الغريب، كي لا يؤذي جسم القوقعة الرخو، وبعد زمنٍ معينٍ يتصلب هذا الإفراز، ويتحول إلىٰ لؤلؤة! والمرجان نباتٌ حيوانيٌ يعيش ويكون شعابًا مرجانيةً تمتد في البحر أحيانًا عدة أميال، وتتكاثر حتىٰ تصبح خطرًا علىٰ الملاحة في بعض الأحيان؛ وخطرًا علىٰ كل حي يقع في براثنها! وهو يقطع بطرقٍ خاصةٍ وتتخذ منه الحلي!

❑ التفكير في السحاب:

ومن الآيات التي يستفيد منها أصحاب العقول السليمة المستقيمة، السحاب الموجود بين السماء والأرض، والذي سخر وذلل للخلق، والذي ينزل منه المطر

---

(١) الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية، ص ١٨١-١٨٢.

بإذن الله، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤].

والماء النازل من السماء هو المطر الذي به حياة العباد والبلاد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾ [الأنبياء: ٣٠]، «أي أحيينا بالماء الذي ينزل من السماء كل شيءٍ حي، أي من الحيوان ويدخل فيه النبات والشجر يعني أنه سببٌ لحياة كل شيء»[(١)]. فالماء سببٌ لحياة كل شيء، وكما قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

ونزول الماء من السماء يدل علىٰ الصانع من وجوه «أحدها: أن تلك الأجسام وما قام بها من صفات الرقة والرطوبة والعذوبة، ولا يقدر أحدٌ علىٰ خلقها إلا الله تعالىٰ... وثانيها: أنه تعالىٰ جعله سببًا لحياة الإنسان ولأكثر منافعه... وثالثها: أنه تعالىٰ كما جعله سببًا لحياة الإنسان جعله سببًا لرزقه قال تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢]، ورابعها: أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية العظام تبقىٰ معلقةً في جو السماء، وذلك من الآيات العظام، وخامسها: أن نزولها عند التضرع واحتياج الخلق إليها مقدرٌ بمقدار النفع من الآيات العظام»[(٢)].

(١) تفسير البغوي (٣/ ٢٤٣).
(٢) التفسير الكبير (٤/ ١٧٨).

وإحياء الأرض بعد موتها يكون بإنبات النبات والأزهار والأشجار والأعشاب وغير ذلك مما يخرج بعد نزول المطر، وهذه الأشياء التي تخرج من الأرض بعد نزول المطر لها أثرٌ في حياة دواب الأرض، كما أن لها أثرًا في جمال الأرض ونضارتها مما يعد نوعًا من أنواع الحياة للأرض. وفي إحياء الأرض بعد موتها دليلٌ علىٰ إحياء الموتىٰ بعد موتهم.

وحياة الأرض تكون من عدة جهاتٍ كما ذكرها الرازي بقوله: «فاعلم أن هذه الحياة من جهات: أحدها: ظهور النبات الذي هو الكلأ والعشب وما شاكلهما مما لولاه لما عاشت دواب الأرض، وثانيها: أنه لولاه لما حصلت الأقوات للعباد، وثالثها: أنه تعالىٰ ينبت كل شيءٍ بقدر الحاجة؛ لأنه تعالىٰ ضمن أرزاق الحيوانات بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾[هود: ٦]، ورابعها: أنه يوجد فيه من الألوان والطعوم والروائح وما يصلح للملابس؛ لأن ذلك كله مما لا يقدر عليه إلا الله، وخامسها: يحصل للأرض بسبب النبات حسنٌ ونضرةٌ ورواءٌ ورونقٌ فذلك هو الحياة»(١).

ويقول الرازي: «واعلم أن إحياء الأرض بعد موتها يدل علىٰ الصانع من وجوه أحدها: نفس الزرع؛ لأن ذلك ليس في مقدور أحدٍ علىٰ الحد الذي يخرج عليه. وثانيها: اختلاف ألوانها علىٰ وجه لا يكاد يُحد ويحصىٰ. وثالثها: اختلاف طعوم ما يظهر علىٰ الزرع والشجر. ورابعها: استمرار العادات بظهور ذلك في أوقاتها المخصوصة»(٢).

«وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض علىٰ خفته ولطافته، يحملُ الماء

---

(١) التفسير الكبير (٤/ ١٧٩).

(٢) التفسير الكبير (٤/ ١٧٩).

الكثير فيسوقه الله إلىٰ حيث شاء فيحيي به البلاد والعباد، ويروي التلول والوهاد، وينزله علىٰ الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرته أمسكه عنهم، فينزله رحمةً ولطفًا، ويصرفه عنايةً وعطفًا، فما أعظم سلطانه وأغزر إحسانه وألطف امتنانه. أليس من القبيح بالعباد أن يتمتعوا برزقه ويعيشوا ببره وهم يستعينون بذلك علىٰ مساخطه ومعاصيه؟ أليس ذلك دليلًا علىٰ حلمه وصبره وعفوه وصفحه وعميم لطفه؟ فله الحمد أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا»(١).

«وتصريف السحاب المسخر أي نقله من موضعٍ إلىٰ موضع. وهو عبرةٌ ومنةٌ أما العبرة ففي تكوينه بعد أن لم يكن وتسخيره وكونِه في الفضاء، وأما المنة ففي جميع ذلك، فتكوينه منةٌ، وتسخيره من موضع إلىٰ موضع منةٌ، وكونه بين السماء والأرض منةً؛ لأنه ينزل منه المطر علىٰ الأرض من ارتفاع فيفيد اختراق الماء في الأرض، ولأنه لو كان علىٰ سطح الأرض لاختنق الناس فهذا ما يبدو لكل أحد، وفي ذلك أيضًا عبرةٌ ومنةٌ لأهل العلم، فتكوينه عبرةٌ لهم، وذلك أنه يتكون من تصاعد أبْخرة البحار ورطوبة الأرض التي تُبخِّرها أشعة الشمس ولذا لم يخْلُ الهواءُ من بُخار الماء كما قدمناه، إلاّ أن بخار الماء شفافٌ غازيٌّ، فإذا جاور سطحًا باردًا ثقل وتكاثف فصار ضبابًا أو ندىٰ أو سحابًا، وإنما تكاثف لأن أجزاء البخار تجتمع فتقل قدرة الهواء علىٰ حمله، ثم إذا تكامل اجتماعه نزل مطرًا، ولكون البخار الصاعد إلىٰ الجو أكثر بخار البحر؛ لأن البحر أكثر سطح الكرة الأرضية كانت السحب أكثر ما تتكون من جهة البحار»(٢).

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٨٧).

«وسمي السحاب سحابًا لانسحابه في الهواء، ومعنىٰ التسخير التذليل، وإنما سماه مسخرًا لوجوه: أحدها: أن طبع الماء ثقيلٌ يقتضي النزول فكان بقاؤه في جو الهواء علىٰ خلاف الطبع، فلا بد من قاسرٍ قاهرٍ يقهره علىٰ ذلك فلذلك سماه بالمسخر. الثاني: أن هذا السحاب لو دام لعظم ضرره من حيث أنه يستر ضوء الشمس، ويكثر الأمطار والابتلال ولو انقطع لعظم ضرره لأنه يقتضي القحط وعدم العشب والزراعة، فكان تقديره بالمقدار المعلوم هو المصلحة فهو كالمسخر لله سبحانه، يأتي به في وقت الحاجة ويرده عند زوال الحاجة. الثالث: أن السحاب لا يقف في موضعٍ معينٍ بل يسوقه الله تعالىٰ بواسطة تحريك الرياح إلىٰ حيث أراد وشاء، فذلك هو التسخير فهذا هو الإشارة إلىٰ وجوه الاستدلال بهذه الدلائل»(١).

ولم يذكر في سورة البقرة كيف سخر السحاب، لكنه ذكر في آياتٍ أخرىٰ مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾[النور:٤٣].

❑ التفكير في الرياح:

وفي خلق الرياح وتصريفها آيةٌ من آيات الله الدالة علىٰ قدرته وحكمته، فللرياح أثرٌ في وجود الهواء الذي به حياة الإنسان وجميع الحيوانات، وبالرياح تتنقل السفن في البحار، والتفكير في ذلك يزيد الإيمان ويقوي اليقين، ولذلك ذكر الله ﷻ ضمن

(١) التفسير الكبير (٤/ ١٨٢).

الآيات التي يستفيد منها أصحاب العقول السليمة، الرياح وتصريفها، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤].

«والرياح تارةً تأتي بالرحمة، وتارةً تأتي بالعذاب، وتارةً تأتي مبشرةً بين يدي السحاب، وتارةً تسوقه، وتارةً تجمعه، وتارةً تفرقه، وتارةً تصرفه، ثم تارةً تأتي من الجنوب وهي الشامية، وتارةً تأتي من ناحية اليمن، وتارةً صبا وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارةً دبورًا وهي غربيةٌ تنفذ من ناحية دبر الكعبة»(١).

«وفي «تصريف الرياح» باردةً وحارةً وجنوبًا وشمالًا وشرقًا ودبورًا وبين ذلك، وتارةً تثير السحاب، وتارةً تؤلف بينه، وتارةً تلقحه، وتارةً تدره، وتارةً تمزقه وتزيل ضرره، وتارةً تكون رحمةً وتارةً ترسل بالعذاب. فمن الذي صرفها هذا التصريف وأودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه؟ وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات، وتصلح الأبدان والأشجار والحبوب والنوابت؟ إلا العزيز الحكيم الرحيم اللطيف بعباده، المستحق لكل ذلٍ وخضوعٍ ومحبةٍ وإنابةٍ وعبادة»(٢).

والمتأمل في الرياح المتحولة من جهةٍ إلىٰ جهة أخرىٰ، وذلك السحاب المحمول علىٰ الهواء المسخر بين السماء والأرض، الخاضع لتدبير الله الحكيم العليم.. ولا تلتفت للنظريات التي تتحدث عن أسباب هبوب الرياح ولا تتحدث عن مسببها،

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٢).
(٢) تفسير السعدي (١/ ٧٩).

وتتحدث عن طريقة تكون السحاب.. وتنسىٰ السر الأعمق الذي هو سر هذه الأسباب.. سر خلق هذا الكون بهذه الطبيعة وبهذه النسب وبهذه الأوضاع، التي تسمح بنشأة الحياة ونموها وتوفير الأسباب الملائمة لها من رياحٍ وسحابٍ ومطرٍ وتربة.. والتي لو اختلت واحدةٌ منها ما نشأت الحياة أو ما سارت هذه السيرة الدقيقة.. سر التدبير الآلهي الدقيق الذي يسير بدقة متناهية بتدبير من العليم الحكيم الرحيم.

وقال تعالىٰ: مبينًا فائدة من فوائد الرياح: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم: ٤٨]. ففي إرسال الرياح دليلٌ علىٰ قدرة الله وحكمته «أما القدرة فظاهرةٌ، فإن الهواء اللطيف الذي يشقه الودق يصير بحيث يقلع الشجر وهو ليس بذاته كذلك فهو بفعل فاعل مختار، وأما الحكمة ففي نفس الهبوب فيما يفضي إليه من إثارة السحب، ثم ذكر أنواع السحب فمنه ما يكون متصلًا ومنه ما يكون منقطعًا، ثم المطر يخرج منه والماء في الهواء أعجب علامةٍ للقدرة، وما يفضي إليه من إنبات الزرع وإدرار الضرع حكمةٌ بالغة، ثم إنه لا يعم بل يختص به قومٌ دون قومٍ وهو علامة المشيئة»(١).

والآية في الرياح من أربعة أوجه ذكرها ابن الجوزي وهي: «ابتداء كونه، وانتهاء تلاشيه، وقيامه بلا دعامة ولا علاقة، وإرساله إلىٰ حيث شاء الله تعالىٰ»(٢).

وذكر الرازي أوجه كون الرياح آيةً من آيات الله فقال: «وجه الاستدلال بها أنها مخلوقةٌ علىٰ وجه يقبل التصريف، وهو الرقة واللطافة، ثم إنه سبحانه يصرفها علىٰ وجه

---

(١) التفسير الكبير (٢٥/ ١١٧).

(٢) زاد المسير (١/ ١٦٩).

يقع به النفع العظيم في الإنسان والحيوان والنبات، وذلك من وجوه: أحدها: أنها مادة النفس الذي لو انقطع ساعة عن الحيوان لمات... وثانيها: لولا تحرك الرياح لما جرت الفلك وذلك مما لا يقدر عليه أحد إلا الله، فلو أراد كل من في العالم يقلب الريح من الشمال إلىٰ الجنوب أو إذا كان الهواء ساكنا أن يحركه لتعذر»(١).

وذكر ابن عاشور أوجه أخرىٰ تبين فوائد الرياح وكونها آيةً من آيات الله فقال: «وهو من آيات وجود الخالق وعظيم قدرته لأن هبوب الريح وركودها آيةٌ، واختلاف مهابِّها آيةٌ، فلولا الصانع الحكيم الذي أودع أسرار الكائنات لما هبت الريح أو لما ركدت، ولما اختلفت مهابُّها بل دامت من جهةٍ واحدةٍ وهذا موضع العبرة، ومن تصريف الرياح أيضًا موضع نعمة وهو أن هبوبها قد يحتاج إليه أهل موضع للتنفيس من الحرارة، أو لجلب الأسحبة، أو لطرد حشراتٍ كالجراد ونحوه، أو لجلب منافع مثل الطير. وقد يحتاج أهل مكان إلىٰ اختلاف مهابِّها لتجيء ريحٌ باردةٌ بعد ريحٍ حارةٍ، أو ريحٌ رطبةٌ بعد ريحٍ يابسةٍ، أو لتهب إلىٰ جهة الساحل فيرجعَ أهل السفن من الأسفار أو من الصيد، فكل هذا موضع نعمة، وهذا هو المشاهد للناس كلهم، ولأهل العلم في ذلك أيضًا موضع عبرةٍ أعجب وموضع نعمة، وذلك أن سبب تصريف الرياح أن الله أحاط الكرة الأرضية بهواء خلقه معها، به يتنفس الحيوان وهو محيط بجميع الكرة بَحْرِها وبرها، متصلٌ بسطحها ويشغل من فوق سطحها ارتفاعًا لا يعيش الحيوان لو صعد إلىٰ أعلاه، وقد خلقه الله تعالىٰ مؤلفًا من غازين هما «النيتروجين والأكسجين» وفيه جزءٌ آخر عارضٌ فيه وهو جانب من البخار المائي المتصاعد له من تبخر البُحار ورطوبة الأرض بأشعة الشمس، وهذا

---

(١) التفسير الكبير (٤/ ١٨١).

البخار هو غازٌ دقيقٌ لا يشاهد، وهذا الهواء قابلٌ للحرارة والبرودة بسبب مجاورة حارٍ أو بارد، وحرارته تأتي من أشعة الشمس ومن صعود حرارة الأرض حين تسخنها الشمس، وبرودته تجيء من قلة حرارة الشمس ومن برودة الثلوج الصاعدة من الأرض ومن الزمهرير الذي يتزايد بارتفاع الجو كما تقدم.

ولما كانت الحرارة من طبعها أن تُمَدِّد أجزاء الأشياء فتتلطف بذلك التمدد كما تقرر في الكيمياء، والبرودة بالعكس، كان هواء في جهةٍ حارةٍ كالصحراء وهواء في جهةٍ باردةٍ كالمنجمد، وقع اختلاف بين الهواءين في الكثافة فصَعِد الخفيف وهو الحار إلىٰ الأعلىٰ وانحدر الكثيف إلىٰ الأسفل، وبصعود الخفيف يترك فراغًا يخلفه فيه الكثيف طلبًا للموازنة فتحدث حركة تسمىٰ ريحًا، فإذا كانت الحركة خفيفةً لقرب التفاوت بين الهواءين سميت الحركة نسيمًا وإذا اشتدت الحركة وأسرعت فهي الزوبعة. فالريح جنسٌ لهاته الحركة، والنسيم والزوبعة والزعزع أنواعٌ له. ومن فوائد هاته الرياح الإعانة علىٰ تكوين السحاب ونقله من موضعٍ إلىٰ موضع، وتنقية الكرة الهوائية مما يحل بها من الجراثيم المضرة، وهذان الأمران موضع عبرةٍ ونعمةٍ لأهل العلم»[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: ٤٨ – ٥٠]. فالرياح تأتي مقدماتٍ لنزول المطر، فقوله: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: المطر كما ذكر ذلك بعض المفسرين ومنهم السعدي حين قال: «أي: هو وحده الذي رحم عباده، وأدر

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٨٥ – ٨٦).

عليهم رزقه، بأن أرسل الرياح مبشراتٍ بين يدي رحمته، وهو: المطر، فثار بها السحاب وتألف، وصار كسفًا، وألحقت وأدرته بإذن ربها، والمتصرف فيها، ليقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله، وليستعدوا له، قبل أن يفاجئهم دفعةً واحدة»[١].

ويقول الشنقيطي عن تصريف المطر عند قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾: «ولقد صرفنا ماء المطر بين الناس فأنزلنا مطرًا كثيرًا في بعض السنين علىٰ بعض البلاد، ومنعنا المطر في بعض السنين عن بعض البلاد، فيكثر الخصب في بعضها، والجدب في بعضها الآخر، وقوله: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾، أي: صرفناه بينهم لأجل أن يتذكّروا، أي: يتذكّر الذين أُخصبت أرضهم لكثرة المطر نعمة الله عليهم، فيشكروا له، ويتذكّر الذين أُجدبت أرضهم ما نزل بهم من البلاء، فيبادروا بالتوبة إلىٰ الله جلَّ وعلا ليرحمهم ويسقيهم، وقوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، أي: كفرًا لنعمة من أنزل عليهم المطر، وذلك بقولهم: مُطِرنا بنوء كذا»[٢].

ويقول ابن القيم: «وبالجملة فحياة ما علىٰ الأرض من نباتٍ وحيوانٍ بالرياح، فإنه لولا تسخير الله لها لعباده، لذوىٰ النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وأُنتن العالم وفسد، ألا ترىٰ إذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذي لو دام لأتلف النفوس، وأسقم الحيوان وأمرض الأصحاء، وأنهك المرضىٰ وأفسد الثمار، وعفن الزرع وأحدث الوباء في الجو؟ فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته»[٣].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٥٨٤).
(٢) أضواء البيان (٦/ ٦٣).
(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٧).

❑ التفكير في عالم الحيوانات والطيور والحشرات:

ومما ينبغي التفكير فيه عالم الحيوانات والطيور والحشرات، والمتأمل في عالم الحيوانات والطيور والحشرات يجد عجبًا، ففي كل صنفٍ أسرارٌ وطبائع، فأنواعٌ متعددة، وأشكالٌ مختلفة، وألوانٌ متميزة، خلقت وسخرت لهذا الإنسان، فيها عبرٌ وعظاتٌ لصاحب العقل الذي يفكر في هذه الأمور وغيرها، فيزداد إيمانًا وتعظيمًا للخالق، ثم يزداد بعد ذلك عبادةً وتقربًا لمولاه. و «يوجه القرآن أنظار الناس إلىٰ جمال الأشياء، فهذا الجمال يؤثر في الخيال والفكر، فالصور الممسوسة تولد أفكارًا تعكس جمال الوجود»(١).

و«جاءت الإشارة إلىٰ عددٍ من حيوانات الأرض في أكثر من مائةٍ وأربعين آية من آيات القرآن الكريم، وسمىٰ ربنا - تبارك وتعالىٰ - ستةً من سور هذا الكتاب العزيز بأسماء عدد من الحيوانات الأرضية المعروفة لنا وهي: البقرة، الأنعام، النحل، النمل، العنكبوت، والفيل.

وجاء ذكر الحيوانات بصفةٍ عامةٍ تحت مسمىٰ الدواب: أربع مرات، وتحت مسمىٰ دابة: «١٤» مرة، كما جاءت لفظة «الحيوان» بمعنىٰ الحياة مرّة واحدة»(٢).

يقول ابن القيم: «ومن آياته سبحانه خلق الحيوان علىٰ اختلاف صفاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه وألوانه وعجائبه المودعة فيه، فمنه الماشي علىٰ بطنه ومنه الماشي علىٰ رجليه ومنه الماشي علىٰ أربع، ومنه ما جعل سلاحه في رجليه وهو ذو المخالب، ومنه ما جعل سلاحه المناقير كالنسر والرخم والغراب، ومنه ما

---

(١) بعض أسس التفكير كما جاءت في القرآن الكريم، ص ٤٠.

(٢) من آيات الإعجاز العلمي (الحيوان في القرآن الكريم)، ص ٣٥، د/ زغلول راغب محمد النجار.

سلاحه الأسنان، ومنه ما سلاحه الصياصي وهي القرون يدافع بها عن نفسه من يروم أخذه، ومنه ما أعطىٰ منها قوةً يدفع بها عن نفسه لم يحتج إلىٰ سلاحٍ كالأسد فإن سلاحه قوته، ومنه ما سلاحه في ذرقه وهو نوع من الطير إذا دنا منه من يريد أخذه ذَرَقَ عليه فأهلكه»(١).

والمتتبع لنصوص القرآن الكريم يلاحظ ذكر مجموعةٍ كبيرةٍ من الحيوانات والطيور والحشرات، ومن النصوص الواردة في ذلك ما يلي: قال تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤]. فمن الأمور المحببة للناس الخيول والأنعام، فلو تفكر الناس في خلقها وتكوينها، واختلاف أجناسها وألوانها وأشكالها، وفي فوائدها وتسخيرها للإنسان، لعرف عظمة الخالق وقدرته، ولازداد إيمانه بالله، وكثرت عبادته لخالقه.

وقال تعالىٰ: عن بعض فوائد الأنعام والتي فيها عبرة وعظة لأصحاب العقول المفكرة: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل: ٥ – ٩]. فمن الأنعام «أي: الإبل والبقر والغنم» تؤخذ الأصواف والأشعار والجلود التي تصنع بها الملابس والفرش والأثاث والأمتعة، ومن ألبانها يشرب الناس الحليب واللبن، ويأخذون الجبن والزبد، ومن

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠٥).

لحومها يأكلون، وكون هذه الأنعام زينةً وجمالًا حين ينظر إليها بالبصر، فإن نظر إليها بالبصيرة كان لهذا النظر أثرٌ في حياة الإنسان، كما أن الإبل تحمل الناس وأمتعتهم قديمًا من مكانٍ إلىٰ مكان آخر، للحج والغزو والتجارة، لا يمكن أن يصلوا إلىٰ هذه الأماكن إلا بصعوبة، فكانت هذه الأنعام وسيلةً تسهل عليهم كثيرًا من المتاعب التي تحصل لهم عن التنقل، كما تستعمل بعضها لحراثة الأرض.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ دليلٌ علىٰ وسائل النقل الحديثة كما ذكر ذلك الشنقيطي حين قال: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يخلق ما لا يعلم المخاطبون وقت نزولها، وأبهم ذلك الذي يخلقه لتعبيره عنه بالموصول ولم يصرح هنا بشيء منه، ولكن قرينة ذكر ذلك في معرض الامتنان بالمركوبات تدل علىٰ أن منه ما هو من المركوبات، وقد شوهد ذلك في إنعام الله علىٰ عباده بمركوبات لم تكن معلومةً وقت نزول الآية، كالطائرات والقطارات، والسيارات.

ويؤيد ذلك إشارة النبيِّ ﷺ إلىٰ ذلك في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**واللهِ، لَيَنْزِلَنَّ ابنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عادِلًا، فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، ولَيَقْتُلَنَّ الخِنْزِيرَ، ولَيَضَعَنَّ الجِزْيَةَ، ولَتُتْرَكَنَّ القِلاصُ فلا يُسْعَىٰ عليها، ولَتَذْهَبَنَّ الشَّحْناءُ والتَّباغُضُ والتَّحاسُدُ، ولَيَدْعُوَنَّ إلىٰ المالِ فلا يَقْبَلُهُ أحَدٌ**». ومحل الشاهد من هذا الحديث الصحيح قوله ﷺ: «**ولتتركن القلاص فلا يسعىٰ عليها**» فإنه قسم من النَّبي ﷺ أنه ستترك الإبل فلا يسعىٰ عليها وهذا مشاهد الآن للاستغناء عن ركوبها بالمراكب المذكورة، وفي هذا الحديث معجزةٌ عظمىٰ تدل علىٰ صحة نبوته ﷺ وإن كانت معجزاته صلوات الله عليه وسلامه أكثر من أن تحصر»[(١)].

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٣٣٤-٣٣٥).

ويقول السعدي عند قوله تعالىٰ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ «مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر، والبحر، والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم فإنه لم يذكرها بأعيانها؛ لأن الله تعالىٰ لم يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره وأما ما ليس له نظيرٌ في زمانهم، فإنه لو ذُكر لم يعرفوه، ولم يفهموا المراد به، فيذكر أصلًا جامعًا، يدخل فيه ما يعلمون، وما لا يعلمون»[(١)].

وفي قوله تعالىٰ ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.. يُعقب بها علىٰ خلق الأنعام للأكل والحمل والجمال، وخلق الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة.. ليظل المجال مفتوحًا للبشر لتقبل أنماطٍ جديدةٍ من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة، فلا يغلق تفكيرهم خارج حدود البيئة، وخارج حدود الزمان الذي يعيشون فيه، ففي كل مكانٍ وزمانٍ تحصل صورٌ أخرىٰ قد لا تخطر علىٰ البال، يريد الله للناس أن يتوقعوا وأن يفكروا فيتسع تصورهم وإدراكهم، ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد أو حين تكشف فلا يعادوها ولا يجمدوا دون استخدامها والانتفاع بها ولا يقولوا: إنما استخدم آباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها، وإنما نص القرآن علىٰ هذه الأصناف فلا نستخدم ما عداها!.

إن الإسلام عقيدةٌ مفتوحةٌ مرنةٌ قابلةٌ لاستقبال طاقات الحياة كلها وكل جديد لا يخالف الشرع، ومن ثم يهيِّئ القرآن العقول والقلوب لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة البشرية، ويتمخض عنه العلم الإنساني، ويتمخض عنه المستقبل المشرق، استقباله بالوجدان الديني المتفتح المستعد لتلقي كل جديد في عجائب الخلق والعلم والحياة.

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٣٦).

ولقد وجدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة لم يعلمها أهل ذلك الزمان، لو حدثوا عنها لاستغربوها، وستجد وسائل أخرىٰ لا يعلمها أهل هذا الزمان، والقرآن يهيِّئ لها القلوب والأذهان لاستقبالها، بلا جمودٍ ولا تحجر ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

ويقول ابن عاشور عن هذه الآية: «فالذي يظهر لي أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنها إيماءٌ إلىٰ أن الله سيُلهم البشر اختراع مراكب هي أجدىٰ عليهم من الخيل والبغال والحمير، وتلك العجلات التي يركبها الواحد ويحركها برجليه وتسمىٰ «بسكلات» وأرتال السكك الحديدية، والسيارات المسيّرة بمصفّىٰ النفط وتسمىٰ «أطوموبيل»، ثم الطائرات التي تسير بالنفط المصفّىٰ في الهواء، فكل هذه مخلوقاتٌ نشأت في عصورٍ متتابعة لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كلٍ منها.

وإلهام الله الناس لاختراعها هو ملحقٌ بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم، وبما تدرجوا في سلّم الحضارة واقتباس بعضهم من بعضٍ إلىٰ اختراعها، فهي بذلك مخلوقةٌ لله تعالىٰ؛ لأن الكلّ من نعمته»(١).

ويقول ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾ [المؤمنون: ٢١ – ٢٢]. ففي الأنعام عبرةٌ وعظةٌ، وذكر في هذه الآيات أربعة أوجه للعبرة وهي:

أولًا: الانتفاع بألبانها الطيبة، ووجه العبرة خروجه من بين الفرث والدم بقدرة الله.

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ١١١).

ثانيًا: المنافع الحاصلة من الأنعام ببيعها والانتفاع بأثمانها، واستخدام أصوافها وأوبارها وأشعارها.

ثالثًا: أكل لحومها.

رابعًا: استخدامها للركوب ولحمل الأمتعة.

فهذه المخلوقات المسخرة للإنسان بقدرة الله وتدبيره، وتوزيعه للوظائف والخصائص في هذا الكون الكبير فيها عبرةٌ لمن ينظر إليها بالقلب المفتوح والحس البصير؛ ويتدبر ما وراءها من حكمةٍ ومن تقدير؛ ويرىٰ أن اللبن السائغ اللطيف الذي يشربه الناس منها خارجٌ من بطونها؛ فهو مستخلص من الغذاء الذي تهضمه وتمثله؛ فتحوله غدد اللبن إلىٰ هذا السائل السائغ اللطيف.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: ٦٦]. جاء «التأكيد في القرآن الكريم علىٰ أن الله - تعالىٰ - يخلق لنا اللبن في ضروع الحيوانات اللبونة ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾، والدراسات العلمية الحديثة أثبتت صدق ذلك؛ حيث اتضح أن حركة الدم بين معدة الاجترار «المحتوية علىٰ الفرث» وبين باقي أجزاء جسم الحيوان من النعم، حتىٰ يصل اللبن إلىٰ الضرع، هي عمليةٌ أساسيةٌ في إنتاج اللبن، يتم خلالها ضخ حوالي خمسمائة لتر من الدم إلىٰ الغدد اللبنية في ضرع الحيوان من الأنعام الكبيرة كالأبل والبقر لتوفير المواد اللازمة من البروتينات، والكربوهيدرات، والدهون، والعناصر الفلزية وغير الفلزية، والفيتامينات، والهرمونات اللازمة لراضعةٍ واحدةٍ أو حلبةٍ واحدةٍ كاملة، والتي يستخلصها الدم من الفرث»(١).

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي (الحيوان في القرآن الكريم)، د/ زغلول النجار، ص ٤٨٦.

❑ التفكير في خلق الإبل:

ومما ينبغي التفكير فيه، التفكير في خلق الإبل: قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧]. فهذه الآية فيها دعوةٌ للتأمل والتفكر في خلق الإبل، وما فيها من الصفات والطباع، والفوائد المتعددة التي يستفيد الإنسان منها، وهذا التأمل والتفكر يؤدي إلىٰ الاعتبار والانتفاع، وزيادة الإيمان. «يقول تعالىٰ آمرًا عباده بالنظر إلىٰ مخلوقاته الدالة علىٰ قدرته وعظمته: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ فإنها خلقٌ عجيب وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة وهي مع ذلك تميل للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها، ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل»[(١)].

ويقول الرازي: «وهنا مقامان؛ أما المقام الأول: فللإبل خواصٌ منها: أنه تعالىٰ جعل الحيوان الذي يقتني أصنافًا شتىٰ فتارةً يقتني ليؤكل لحمه، وتارةً ليشرب لبنه، وتارةً ليحمل الإنسان في الأسفار، وتارةً لينقل أمتعة الإنسان من بلدٍ إلىٰ بلد، وتارةً ليكون له به زينةٌ وجمالٌ، وهذه المنافع بأسرها حاصلةٌ في الإبل... وإن شيئًا من سائر الحيوانات لا يجتمع فيه هذه الخصال فكان اجتماع هذه الخصال فيه من العجائب. وثانيها: أنه في كل واحدٍ من هذه الخصال أفضل من الحيوان الذي لا يوجد فيه إلا تلك الخصلة؛ لأنها إن جعلت حلوبةً سقت فأروت الكثير، وإن جعلت أكولةً أطعمت وأشبعت الكثير، وإن جعلت ركوبةً أمكن أن يقطع بها من المسافات المديدة ما لا يمكن قطعه بحيوانٍ آخر، وذلك لما ركب فيها من قوة احتمال المداومة علىٰ السير والصبر علىٰ العطش والاجتزاء من العلوفات بما لا يجتزىء حيوان آخر، وإن

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٤).

جعلت حملةً استغلت بحمل الأحمال الثقيلة التي لا يستقل بها سواها، فهذه الصفات الكثيرة الموجودة فيها توجب علىٰ العاقل أن ينظر في خلقتها وتركيبها ويستدل بذلك علىٰ وجود الصانع الحكيم سبحانه، ثم إن العرب من أعرف الناس بأحوال الإبل في صحتها وسقمها ومنافعها ومضارها، فلهذه الأسباب حُسْنٌ من الحكيم تعالىٰ أن يأمر بالتأمل في خلقتها»(١).

«والإبل كانت - ولا تزال - من الحيوانات الأساسية في البيئة الصحراوية لأن الله - تعالىٰ - قد زوّدها بقدر من الصفات التي تميزها عن غيرها من الحيوانات الثديية المشيمية، وعن كلٍّ من الأبقار والغزلان والزرافات التي يضعها علماء تصنيف الحيوان مع الجمال في مجموعةٍ واحدة تعرف باسم «مجموعة الحيوانات الثديية المشيمية المجترة»، أو ما يسمىٰ باسم «ذوات الحافر مزدوج الأصابع»»(٢).

«والإبل بأنواعها تتميز عن جميع الأنعام بميزاتٍ بدنيةٍ، وتشريحيةٍ، ووظائفيةٍ عجيبة. وقد ثبت للدارسين والمراقبين أن الجمل العربي هو بحق سفينة الصحراء، وأنه أصلح الوسائل الفطرية للسفر والحمل والتنقل في الأراضي الصحراوية الجافة، فهو يستطيع قطع مسافة تصل إلىٰ الخمسين ميلًا في اليوم، متحملًا الجوع والعطش لعدة أيامٍ متتاليةٍ في شدة حرارة نهار صيف الصحراء، ويستطيع حمل أكثر من نصف طنٍ من المؤن والركاب والسير بهم وبها لأكثر من عشرين ميلًا في اليوم دون طعام أو شراب وذلك لعدة أيام متتالية، بما خصه الله - تعالىٰ - من ميزاتٍ جسديةٍ، وتشريحيةٍ، ووظائفيةٍ لا تتوفر لغيره من الحيوانات»(٣).

---

(١) التفسير الكبير (٣١/ ١٤٣- ١٤٤).

(٢) من آيات الإعجاز العلمي (الحيوان في القرآن الكريم)، د/ زغلول النجار، ص ٢٦٦.

(٣) من آيات الإعجاز العلمي (الحيوان في القرآن الكريم)، د/ زغلول النجار، ص ٢٧٣.

❑ التفكير في عالم الطيور:

ومما ينبغي التفكير فيه عالم الطيور فقد ورد في القرآن الكريم ثلاث آياتٍ محكماتٍ تحث علىٰ التفكر في الطير وهي قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: ٧٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١]. وقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: ١٩]. ففي هذه الآيات حثٌ علىٰ التفكير في الطيور وهي تحلق في السماء، كيف تطير؟ وكيف تصف أجنحتها وتقبضها؟ وكيف تثبت في الفضاء ما يمسكها إلا الله؟

هذا الحدث الذي يتكرر في كل لحظة، ينسينا ما تدل عليه من القدرة والعظمة الإلهية، ولكن عند التأمل في هذا الطير، وهو يصف جناحيه ويفردهما، ثم يقبضهما ويضمهما، وهو في الحالين: حالة الصف الغالبة، وحالة القبض العارضة يظل في الهواء، يسبح فيه سباحةً في يُسرٍ وسهولةٍ؛ ويأتي بحركاتٍ يخيل إلىٰ الناظر أحيانًا أنها حركات استعراضية لجمال التحليق والانقضاض والارتفاع!

تأمل هذا المشهد، ومتابعة كل نوع من الطير في حركاته الخاصة بنوعه، لا يمله النظر ولا يمله القلب، وهو متعةٌ فوق ما هو مثار تفكيرٍ وتدبرٍ في صنع الله البديع، الذي يتعانق فيه الكمال والجمال!

فأصحاب العقول هم المنتفعون بعقولهم، يفكرون بها في آيات الله، ومن ذلك الطيور التي خلقها الله صالحةً للطيران، بما خلق لها من الأجنحة، وبما أودع فيها من قوة الحركة التي تعينها علىٰ الطيران، والأسباب المعينة علىٰ ذلك، وسخر لها الهواء

تبسط أجنحتها وتقبضها ما يمسكها إلا الله مع ثقل جسدها وخفة الهواء، فهي لم تتعلق بشيءٍ من فوقها ولا اعتمدت علىٰ شيء تحتها، وهذا لطف من الله بها، فهي ضعيفة البنية، ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها، فجعل الله لها الطيران لتبتعد عن تناول ما يعدو عليها من البشر والدواب، ومن بديع خلقتها أنها تستطيع الطيران تارةً والمشي تارةً أخرىٰ بخلاف بقية المخلوقات، وفي ذلك دليلٌ علىٰ حكمة الله وعلمه الواسع، وكمال قدرته، وعنايته بجميع مخلوقاته، وأنه المستحق للعبادة.

«وإمساك الله إيّاها خلقه الأجنحة لها والأذنَاب، وجعله الأجنحة والأذناب قابلةً للبسط، وخلق عظامها أخفّ من عظام الدوابّ، بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابها ونهضت بأعصابها خفّتْ خفّةً شديدةً فسبحت في الهواء، فلا يصلح ثقلها لأن يخرق ما تحتها من الهواء إلا إذا قبضت من أجنحتها وأذنابها وقوّست أعصاب أصلابها عند إرادتها النّزول إلىٰ الأرض أو الانخفاضَ في الهواء، فهي تحوم في الهواء كيف شاءت ثم تقع متىٰ شاءت أو عييت، فلولا أن الله خلقها علىٰ تلك الحالة لما استمسكت»(١).

«إن الطيور من أكثر مخلوقات الله جمالًا، ومن أجملها نغمًا، ومن أكثرها استحواذًا علىٰ الإعجاب، توجد في كل بقعة من بقاع العالم، في أطراف المناطق القطبية، في قمم الجبال الشامخة، في أكثر البحار هيجانًا، في أكثر الغابات ظلمةً، في أكثر الصحاري عريًا، في أكثر المدن ازدحامًا.

عدَّ العلماء حتىٰ هذا التاريخ من أنواع الطيور ما يزيد علىٰ تسعة آلاف نوع، وقد زود الله ﷻ الطير بوزنٍ خفيفٍ، يعينه علىٰ الطيران، وأكياسٍ هوائيةٍ منتشرةٍ في

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٤/ ٢٣٥).

كل أماكن جسمه، تخفف من وزنه، وتبرد عضلاته الحارة، بسبب شدة الخفقان، وجعل عظامه مجوفة، وجعل ريشه خفيفًا، ليعينه علىٰ الطيران، وأمده بميزات يحتاجها في طيرانه»[١].

❑ التفكير في عالم النحل:

ومن الأمور التي ينبغي التفكير فيها عالم النحل كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨ – ٦٩]. فهذه الآية من الآيات التي ساقها الله تعالىٰ علىٰ سبيل التفكر والاعتبار، قبل أن تكون علىٰ سبيل الامتنان.

«وهذا القدر من الحرية الكبيرة الذي أعطاه الله تعالىٰ إلىٰ أمة نحل العسل في اختيار مسكنها – أي المكان الذي تبني فيه بيوتها من الجبال ومن الشجر ومما يعرشون – له حكمةٌ بالغةٌ؛ لأنه يتيح لهذه الحشرة الصغيرة الحجم فرصة الاستفادة بأكبر عددٍ ممكنٍ من البيئات المختلفة، وبما فيها من متنوع النبات حتىٰ تنوع ذلك الشراب المختلف الألوان الذي يخرج من بطونها والذي فيه شفاءٌ للناس، ويجعل الله من أنواعه المختلفة شفاءً لأمراض متباينة»[٢].

وأمة النحل تعمل بدقةٍ عجيبةٍ يعجز عن مثلها العقل المفكر سواءً في بناء خلاياها، أو في تقسيم العمل بينها، أو في طريقة إفرازها للعسل المصفَّىٰ.

---

(١) موسعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (آيات الله في الآفاق)، د/ محمد راتب النابلسي.

(٢) من آيات الإعجاز العلمي (الحيوان في القرآن الكريم)، د/ زغلول النجار، ص ٩٠.

«والآية القرآنية الكريمة.. تشير إلىٰ أفضلية أنواع عسل النحل الجبليّ علىٰ الشجريّ علىٰ عسل المناحل الاصطناعية»[١].

«ومن الغريب حقًا، أن يصل عدد من قدامىٰ المفسرين من أمثال الزمخشري «في الكشاف»، وأبو حيان «في تفسير المحيط»، والنسفي «في مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، والعز بن عبدالسلام في «فوائد في مشكل القرآن» إلىٰ تفسير قول الحق - تبارك وتعالىٰ -: ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ بالطرق التي يرشح منها الغذاء الذي تأكله شغالات النحل إلىٰ فمها فيخرج عسلًا، ويأتي العلم الحديث مؤكِّدًا أن الله - تعالىٰ - قد زوَّد شغالات النحل بأربع مجموعاتٍ من الغدد التي تنتقي من غذائها: العسل، والغذاء الملكي، والشمع، والخمائر، والسموم، وليس هذا لغير شغالات النحل»[٢].

و«اختلف العلماء في قوله تعالىٰ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ هل هو علىٰ عمومه أم لا؟ فقالت طائفة: هو علىٰ العموم في كل حالٍ ولكل أحدٍ، فروي عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحةً ولا شيئًا إلا جعل عليه عسلًا، حتىٰ الدمل إذا خرج عليه طلىٰ عليه عسلًا... وقالت طائفة: إن ذلك علىٰ الخصوص ولا يقتضي العموم في كل علةٍ وفي كل إنسانٍ، بل إنه خبرٌ عن أنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في بعضٍ، وعلىٰ حالٍ دون حالٍ، ففائدة الآية إخبارٌ منه في أنه دواءٌ لما كثر الشفاء به وصار خليطًا ومعينًا للأدوية في الأشربة والمعاجين، وليس هذا بأول لفظ خصص فالقرآن مملوءٌ منه، ولغة العرب يأتي فيها العام كثيرًا بمعنىٰ الخاص والخاص

(١) من آيات الإعجاز العلمي (الحيوان في القرآن الكريم)، د/ زغلول النجار، ص ٩١.
(٢) من آيات الإعجاز العلمي (الحيوان في القرآن الكريم)، د/ زغلول النجار، ص ٩٦.

بمعنىٰ العام، ومما يدل علىٰ أنه ليس علىٰ العموم أن «شفاء» نكرة في سياق الإثبات ولا عموم فيها باتفاق أهل اللسان ومحققي أهل العلم ومختلفي أهل الأصول، لكن قد حملته طائفةٌ من أهل الصدق والعزم علىٰ العموم، فكانوا يستشْفون بالعسل من كل الأوجاع والأمراض، وكانوا يُشْفون من عللهم ببركة القرآن وبصحة التصديق والإيقان»[(١)].

وذكر ابن كثير في تفسيره عند قوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾: أي في العسل شفاءٌ للناس أي من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم علىٰ الطب النبوي: لو قال: فيه الشفاء للناس لكان دواءً لكل داءٍ، ولكن قال: فيه شفاءٌ للناس، أي يصلح لكل أحدٍ من أدواءٍ باردةٍ فإنه حارٌ والشيء يداوىٰ بضده... وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنْهَىٰ أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ**».. وقال ابن ماجه عن عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله رسول الله ﷺ: «**عليكم بالشفاءين العسل والقرآن**»... وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلىٰ السلوك في هذه المهامة والاجتناء من سائر الثمار ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء لآيةً لقومٍ يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك علىٰ أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم»[(٢)].

ويقول ابن القيم: «ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات، فانظر إليها وإلىٰ اجتهادها في صنعة العسل وبنائها البيوت المسدسة التي هي من أتم

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ١٣٦– ١٣٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧٦– ٥٧٧).

الأشكال وأحسنها استدارةً، وأحكمها صنعًا، فإذا انضم بعضها إلىٰ بعض لم يكن بينها فرجةٌ ولا خللٌ، كل هذا بغير مقياسٍ ولا آلةٍ ولا بيكار، وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها وإيحائه إليها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ إلىٰ قوله ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾... ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل إلىٰ واحدٍ منها يتعجب منها كل العجب، ويعلم أن هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها فإن هذه أعمالٌ محكمةٌ متقنةٌ في غاية الإحكام والإتقان»[١].

«وجملة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ اختير وصف التفكّر هنا لأن الاعتبار بتفصيل ما أجملته الآية في نظام النحل محتاجٌ إلىٰ إعمال فكرٍ دقيق، ونظرٍ عميق»[٢].

و«من تفكر في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة المشتملة علىٰ حسن الصنعة وصحة القسمة التي لا يقدر عليها حذاق المهندسين إلا بآلاتٍ رقيقة، وأدواتٍ أنيقة، وأنظارٍ دقيقة جزم قطعًا بأن لها خالقًا قادرًا حكيمًا يلهمها ذلك ويهديها إليه جل جلاله»[٣].

❑ التفكير في عالم النمل:

ومن الأمور التي ينبغي التفكير فيها عالم النمل كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل: ١٨].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٨).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢١٠).
(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ١٢٦).

ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم تتنوع فيها الوظائف، وتؤدىٰ كلها بنظامٍ عجيب، يعجز البشر غالبًا عن اتباع مثله، علىٰ ما أوتوا من عقلٍ راقٍ وإدراكٍ عالٍ.

«وفي هذه الواقعة من الدلالة علىٰ وجود قدرٍ من الوعي والنطق والإدراك عند أمة النمل، وكذلك عند جميع المخلوقات وهي ما أكدته الدراسات العلمية في أواخر القرن العشرين»(١).

«ومن الدلالات العلمية للآية الكريمة: أولًا: أن النمل يحيا في جماعاتٍ منظمة، فإذا ضلت نملةٌ منها عن جماعتها أو انفصلت عنها بسبب من الأسباب، فإنها إما أن تنضم إلىٰ جماعةٍ أخرىٰ أو تموت.

وقد ثبت أن النمل يحيا في جماعاتٍ يتفاوت عدد أفرادها بين بضع عشرات، وعشرات الملايين، يحكمها تنظيم دقيق، تتنوع فيه المسؤوليات والوظائف والأعمال التي تؤدىٰ كلها بمستويات مبهرة من الإتقان في الأداء، والتفاني في العطاء، والثبات والاجتهاد والمثابرة التي يفتقر إليها كثير من الناس.

ثانيًا: أن لأمة النمل لغاتٍ خاصةً بها: وهذه الحقيقة أثبتتها الآية الكريمة التي نحن بصددها بقول الحق - تبارك وتعالىٰ -: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾ [النمل: ١٨].

وقد سمع نبي الله سليمان عليه السلام نصيحة النملة لرفاقها، وفهم لغاتها بنعمة من الله وفضل، ولغات النمل ظل عدد من علماء الحشرات يحاولون فك رموزها»(٢).

يقول ابن القيم: «ثم تأمل هذه النملة الضعيفة وما أعطيته من الفطنة أو الحيلة

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي (الحيوان في القرآن الكريم)، د/ زغلول النجار، ص ٥٤.

(٢) من آيات الإعجاز العلمي (الحيوان في القرآن الكريم)، د/ زغلول النجار، ص ٦٧.

في جمع القوت وادخاره وحفظه ودفع الآفة عنه، فإنك ترىٰ في ذلك عبرًا وآياتٍ، فترىٰ جماعة النمل إذا أرادت إحراز القوت خرجت من أسرابها طالبةً له، فإذا ظفرت به أخذت طريقًا من أسرابها إليه وشرعت في نقله، فتراها رفقتين: رفقةً حاملة، تحمله إلىٰ بيوتها سربًا ذاهبًا، ورفقةً خارجةً من بيوتها إليه لاتخالط تلك في طريقها، بل هما كالخيطين بمنزلة جماعة الناس الذاهبين في طريق والجماعة الراجعين من جانبهم، فإذا ثقل عليها حمل الشيء من تلك اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت علىٰ حملة بمنزلة الخشبة والحجر الذي تتساعد الفئة من الناس عليه فإذا كان الذي ظفر به منهن واحدة ساعدها رفقتها عليه إلىٰ بيتها وخلوا بينها وبينه، وإن كان الذي صادفه جماعة تساعدن عليه ثم تقاسمنه علىٰ باب البيت...

ومن عجيب أمر الفطنة فيها إذا نقلت الحب إلىٰ مساكنها كسرته لئلا ينبت، فإن كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته أربعًا، فإذا أصابه ندًا وبللٌ وخافت عليه الفساد أخرجته للشمس ثم ترده إلىٰ بيوتها، ولهذا ترىٰ في بعض الأحيان حبًا كثيرًا علىٰ أبواب مساكنها مكسرًا، ثم تعود عن قريب فلا ترىٰ منه واحدة. ومن فطنتها أنها لا تتخذ قريتها إلا علىٰ نشر من الأرض لئلا يفيض عليها السيل فيغرقها، فلا ترىٰ قرية نمل في بطن وادٍ ولكن في أعلاه، وما ارتفع عن السيل منه ويكفي في فطنتها ما نص الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه من قولها لجماعة النمل وقد رأت سليمان عليه الصلاة والسلام وجنوده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ فتكلمت بعشرة أنواعٍ من الخطاب في هذه النصيحة النداء والتنبيه والتسمية والأمر والنص والتحذير والتخصيص والتفهيم والتعميم والاعتذار، فاشتملت نصيحتها مع الاختصار علىٰ هذه الأنواع العشرة، ولذلك أعجب سليمان قولها وتبسم ضاحكا منه، وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع

كلامها، ولا تستبعد هذه الفطنة من أمةٍ من الأمم تسبح بحمد ربها كما في الصحيح عن النبي قال: نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ، فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ»[(١)].

❑ التفكير في عالم النبات:

ومما ينبغي التفكير فيه عالم النبات، فهو عالمٌ فسيحٌ متنوعٌ ومتناسقٌ مع هذا الكون، فأشكاله المتعددة، وألونه الزاهية، وثماره اليانعة، وأطواره العجيبة، تدعو إلىٰ التفكير والتأمل. والتفكير في هذا يهدي إلىٰ اليقين بأن هذا النبات خلقه خالقٌ قديرٌ مدبرٌ عليمٌ حكيم.

وهذه النباتات سخرها ربنا جل جلاله للإنسان، ليأكل منها، ويستمتع برؤيتها، وينشغل البعض بالعمل فيها، فتكون مصدر رزقٍ لهم. وكما أن بعض هذه النباتات طعامٌ للإنسان، فبعضها أيضًا طعامٌ للحيوانات. قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾ [النحل: ١٠ – ١١]. «بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن إنباته بالماء ما يأكله الناس من الحبوب والثمار، وما تأكله المواشي من المرعىٰ من أعظم نعمه علىٰ بني آدم ومن أوضح آياته الدالة علىٰ أنه هو المستحق لأن يعبد وحده. وأوضح هذا المعنىٰ في آياتٍ كثيرةٍ كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۝٢٧﴾ [السجدة: ٢٧].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٢– ٢٤٣).

وقوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤﴾ [طه: ٥٣ – ٥٤] وقوله ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣﴾ [النازعات: ٣٠ – ٣٣] وقوله ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١﴾ [ق: ٩ – ١١] وقوله ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠﴾ [النمل: ٦٠] وقوله ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦﴾ [النبأ: ١٤ – ١٦] والآيات بمثل هذا كثيرةٌ جدًا»[١].

ويقول الرازي: «اعلم أن أشرف أجسام العالم السفلي بعد الحيوان النبات، فلما قرر الله تعالىٰ الاستدلال علىٰ وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال الحيوانات، أتبعه في هذه الآية بذكر الاستدلال علىٰ وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال النبات»[٢]. ويقول: «إن الحبة الواحدة تقع في الطين، فإذا مضت علىٰ هذه الحالة مقاديرُ معينةٌ من الوقت نفذت في داخل تلك الحبة أجزاءٌ من رطوبة الأرض ونداوتها، فتنتفخ الحبة فينشق أعلاها وأسفلها، فيخرج من أعلىٰ تلك الحبة شجرةٌ صاعدةٌ من داخل الأرض إلىٰ الهواء، ومن أسفلها شجرةٌ أخرىٰ غائصةٌ في قعر الأرض، وهذه الغائصة هي المسماة بعروق الشجرة، ثم إن تلك الشجرة لا تزال

(١) أضواء البيان (٢/ ٣٣٧)
(٢) التفسير الكبير (١٩/ ١٨٥).

تزداد وتنمو وتقوىٰ، ثم يخرج منها الأوراق والأزهار والأكمام والثمار، ثم إن تلك الثمرة تشتمل علىٰ أجسام مختلفة الطبائع مثل العنب، فإن قشره وعجمه باردان يابسان كثيفان، ولحمه وماؤه حاران رطبان لطيفان.

إذا عرفت هذا فنقول: نسبة الطبائع السفلية إلىٰ هذا الجسم متشابهة ونسبة التأثيرات الفلكية والتحريكات الكوكبية إلىٰ الكل متشابهة، ومع تشابه نسب هذه الأشياء ترىٰ هذه الأجسام مختلفةً في الطبع والطعم واللون والرائحة والصفة، فدل صريح العقل علىٰ أن ذلك ليس إلا لأجل فاعلٍ قادرٍ حكيمٍ رحيمٍ فهذا تقدير هذه الدلالة»[(١)].

ويقول الألوسي: «فإن من تفكر في أن الحبة والنواة تقع في الأرض، وتصل إليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط في الأرض وربما انبسطت فيها وإن كانت صلبةً، وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة في الوقوع، فيخرج منها ساقٌ فينمو فيخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة علىٰ أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطبائع، وعلىٰ نواةٍ قابلةٍ لتوليد الأمثال علىٰ النمط المحرر لا إلىٰ نهاية، مع اتحاد الماء والأرض والهواء وغيرها بالنسبة إلىٰ الكل، علم أن هذه آثاره لا يمكن أن يشبه شيءٌ في شيءٍ من صفات الكمال، فضلًا عن أن يشاركه في أخص صفاته التي هي الألوهية واستحقاق العبادة أخس الأشياء كالجماد، تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وحيث كان الاستدلال بما ذكر لاشتماله علىٰ أمرٍ خفيٍ محتاج إلىٰ التفكر والتدبر لمن له نظرٌ سديدٌ ختم الآية بالتفكر»[(٢)].

---

(١) التفسير الكبير (١٩/ ١٨٧- ١٨٨).

(٢) روح المعاني (١٤/ ١٠٨).

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۡهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنۡ أَعۡنَٰبٍ وَزَرۡعٌ وَنَخِيلٌ صِنۡوَانٌ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٍ فِى ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد: ٣ – ٤].

«وفي هذه الدلالة علىٰ بديع صنعه وعظيم قدرته ما لا يخفىٰ علىٰ من له عقلٌ، فإن القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة علىٰ أنواع النبات مع كونها تسقىٰ بماءٍ واحدٍ، وتتفاضل في الثمرات في الأكل، فيكون طعم بعضها حلوًا والآخر حامضًا، وهذا في غاية الجودة وهذا ليس بجيد، وهذا فائقٌ في حسنه وهذا غير فائق، مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء أن السبب المقتضي لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جل سلطانه وتعالىٰ شأنه؛ لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلا لسببين: إما اختلاف المكان الذي هو المنبت أو اختلاف الماء الذي تسقىٰ به، فإذا كان المكان متجاورًا وقطع الأرض متلاصقةً، والماء الذي تسقىٰ به واحدًا، لم يبق سببٌ للاختلاف في نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب ولهذا قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ أي يعملون علىٰ قضية العقل وما يوجبه، غير مهملين لما يقتضيه من التفكر في المخلوقات والاعتبار في العبر الموجودات»(١).

و«رغم أن النبات يسقىٰ بماءٍ واحدٍ، فإن لكل نباتٍ طبيعةً وخصائص، واحتياجاتٍ وظروفًا مناخيةً، وميعادًا للزراعة، وأوانًا للإثمار، وفي الأرض الواحدة

(١) فتح القدير (٣/ ٦٥).

ومن الماء الواحد، تتجاور النباتات، وبعضها يكون أفضل من بعضٍ في شكله أو طعمه أو لونه رغم أن الكل يُسقىٰ بماء واحد.

عناصر الغذاء واحدةٌ، والتربة واحدةٌ، والماء واحدٌ، وبذور تناهت في الصغر، تخرج منها آلاف الأنواع والأشكال، ومختلف الروائح والأطعمة، وقد هيّأ الله لكل نباتٍ ما يتلاءم مع بيئته تلاؤمًا لا يمكن أن يكون إلا بتقدير العليم الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه.. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٩]. «والله تعالىٰ ذكر ههنا أربعة أنواعٍ من الأشجار، النخل والعنب والزيتون والرمان، وإنما قدم الزرع علىٰ الشجر لأن الزرع غذاء، وثمار الأشجار فواكه، والغذاء مقدمٌ علىٰ الفاكهة، وإنما قدم النخل علىٰ سائر الفواكه لأن التمر يجري مجرىٰ الغذاء بالنسبة إلىٰ العرب ولأن الحكماء بينوا أن بينه وبين الحيوان مشابهةً في خواص كثيرةٍ بحيث لا توجد تلك المشابهة في سائر أنواع النبات... وإنما ذكر العنب عقيب النخل لأن العنب أشرف أنواع الفواكه، وذلك لأنه من أول ما يظهر يصير منتفعًا به إلىٰ آخر الحال، فأول ما يظهر علىٰ الشجر يظهر خيوطًا خضرًا دقيقةً حامضة الطعم لذيذة المطعم، وقد يمكن اتخاذ الطبائخ منه، ثم بعده يظهر الحصرم، وهو طعام شريف للأصحاء والمرضىٰ، وقد يتخذ الحصرم أشربةً لطيفةَ المذاق نافعةً لأصحاب الصفراء،

(١) الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن والسنة النبوية، ص ٤١٠.

وقد يتخذ الطبيخ منه، فكأنه ألذ الطبائخ الحامضة. ثم إذا تم العنب فهو ألذ الفواكه وأشهاها، ويمكن ادخار العنب المعلق سنةً أو أقل أو أكثر وهو في الحقيقة ألذ الفواكه المدخرة ثم يبقىٰ منه أربعة أنواعٍ من المتناولات، وهي الزبيب والدبس والخمر والخل، ومنافع هذه الأربعة لا يمكن ذكرها إلىٰ في المجلدات، والخمر وإن كان الشرع قد حرمها، ولكنه تعالىٰ قال في صفتها: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ ثم قال: ﴿وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا﴾ فأحسن ما في العنب عجمه. والأطباء يتخذون منه جوارشنات عظيمة النفع للمعدة الضعيفة الرطبة، فثبت أن العنب كأنه سلطان الفواكه، وأما الزيتون فهو أيضًا كثير النفع لأنه يمكن تناوله كما هو، وينفصل أيضًا عنه دهنٌ كثيرٌ عظيم النفع في الأكل وفي سائر وجوه الاستعمال، وأما الرمان فحاله عجيب جدًا، وذلك لأنه جسمٌ مركبٌ من أربعة أقسام: قشره وشحمه وعجمه وماؤه.

أما الأقسام الثلاثة الأول وهي: القشر والشحم والعجم، فكلها باردةٌ يابسةٌ أرضية كثيفةٌ قابضةٌ عفصةٌ قويةٌ في هذه الصفات، وأما ماء الرمان، فبالضد من هذه الصفات. فإنه ألذ الأشربة وألطفها وأقربها إلىٰ الاعتدال وأشدها مناسبةً للطباع المعتدلة، وفيه تقويةٌ للمزاج الضعيف، وهو غذاءٌ من وجهٍ ودواءٌ من وجه، فإذا تأملت في الرمان وجدت الأقسام الثلاثة موصوفةً بالكثافة التامة الأرضية، ووجدت القسم الرابع وهو ماء الرمان موصوفًا باللطافة والاعتدال، فكأنه سبحانه جمع فيه بين المتضادين المتغايرين، فكانت دلالة القدرة والرحمة فيه أكمل وأتم.

واعلم أن أنواع النبات أكثر من أن تفي بشرحها مجلدات، فلهذا السبب ذكر الله تعالىٰ هذه الأقسام الأربعة التي هي أشرف أنواع النبات، واكتفي بذكرها تنبيهًا

علىٰ البواقي ولما ذكرها قال تعالىٰ: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ وفيه مباحث: الأول: في تفسير ﴿مُشْتَبِهًا﴾ وجوه:

الأول: أن هذه الفواكه قد تكون متشابهةً في اللون والشكل، مع أنها تكون مختلفةً في الطعم واللذة، وقد تكون مختلفةً في اللون والشكل، مع أنها تكون متشابهةً في الطعم واللذة، فإن الأعناب والرمان قد تكون متشابهةً في الصورة واللون والشكل، ثم إنها تكون مختلفةً في الحلاوة والحموضة وبالعكس.

الثاني: أن أكثر الفواكه يكون ما فيها من القشر والعجم متشابهًا في الطعم والخاصية، وأما ما فيها من اللحم والرطوبة فإنه يكون مختلفًا في الطعم.

والثالث: قال قتادة: أوراق الأشجار تكون قريبةً من التشابه، أما ثمارها فتكون مختلفةً، ومنهم من يقول: الأشجار متشابهةٌ والثمار مختلفة.

والرابع: أقول إنك قد تأخذ العنقود من العنب فترىٰ جميع حباته مدركةً نضيجةً حلوةً طيبةً إلا حباتٍ مخصوصةٍ منها بقيت علىٰ أول حالها من الخضرة والحموضة والعفوصة، وعلىٰ هذا التقدير: فبعض حبات ذلك العنقود متشابهة وبعضها غير متشابه»[١].

❑ التفكير في النخيل:

يقول ابن القيم: «تأمل هذه النخلة التي هي إحدىٰ آيات الله، تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك، فإنه لما قدر أن يكون فيه إناث تحتاج إلىٰ اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وإناثه، ولذلك اشتد شبهها من بين سائر

---

(١) التفسير الكبير (١٣/ ٨٩ – ٩٠).

الأشجار بالإنسان خصوصا بالمؤمن، كما مثله النبي وذلك من وجوهٍ كثيرة:

أحدها: ثبات أصلها في الأرض واستقراره فيها، وليست بمنزلة الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار.

الثاني: طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها، كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل فيه المنفعة لنفسه ولغيره.

الثالث: دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفًا ولا شتاءً، كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوىٰ وزينتها حتىٰ يوافي ربه تعالىٰ.

الرابع: سهولة تناول ثمرتها وتيسره، أما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها، وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلىٰ صعود الشجر الطوال وغيرها، فتراها كأنها قد هيئت منها المراقي والدرج إلىٰ أعلاها، وكذلك المؤمن خيره سهلٌ قريبٌ لمن رام تناوله، لا بالغر ولا باللئيم.

الخامس: أن ثمرتها من أنفع ثمار العالم فإنه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة، ويابسه يكون قوتًا وأدمًا وفاكهةً، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوىٰ، ويدخل في الأدوية والأشربة وعموم المنفعة به، وبالعنب فوق كل الثمار وقد اختلف الناس في أيهما أنفع وأفضل؟ وصنف الجاحظ في المحاكمة بينهما مجلدًا فأطال فيها الحجاج والتفضيل من الجانبين، وفصل النزاع في ذلك أن النخل في معدنه ومحل سلطانه أفضل من العنب وأعم نفعًا، وأجدىٰ علىٰ أهله كالمدينة والحجاز والعراق، والعنب في معدنه ومحل سلطانه أفضل وأعم نفعًا وأجدىٰ علىٰ أهله كالشام والجبال والمواضع الباردة التي لا تقبل النخيل.

الوجه السادس: من وجوه التشبيه أن النخلة أصبر الشجر علىٰ الرياح والجهد وغيرها

من الدوح العظام، تميلها الريح تارةً وتقلعها تارةً، وتقصف أفنانها ولا صبر لكثيرٍ منها علىٰ العطش كصبر النخلة، فكذلك المؤمن صبورٌ علىٰ البلاء لا تزعزعه الرياح.

السابع: أن النخلة كلها منفعةٌ لا يسقط منها شيءٌ بغير منفعةٍ، فثمرها منفعةٌ وجذعها فيه من المنافع مالا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك، وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ويستر به الفرج والخلل، وخوصها يتخذ منه المكاتل والزنابيل وأنواع الآنية، والحصر وغيرها وليفها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس، وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعةٍ منها صفةً في المسلم تقابلها، فلما جاء إلىٰ الشوك الذي في النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة علىٰ أعداء الله وأهل الفجور، فيكون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة ولينًا ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

الثامن: أنها كلما طال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله.

التاسع: أن قلبها من أطيب القلوب وأحلاه وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب.

العاشر: أنها لايتعطل نفعها بالكلية أبدًا، بل إن تعطلت منها منفعةٌ ففيها منافع أخر، حتىٰ لو تعطلت ثمارها سنةً لكان للناس في سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع، وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيءٍ من خصال الخير قط إن أجدب منه جانبٌ من الخير أخصب منه جانبٌ، فلا يزال خيره مأمولًا وشره مأمونًا. في الترمذي مرفوعًا إلىٰ النبي: «**خيرُكم مَن يُرجىٰ خيرُه ويُؤمَنُ شرُّه، وشرُّكم مَن لا يُرجىٰ خيرُه ولا يُؤمَنُ شرُّه**».

فتأمل خلقة الجذع الذي لها، كيف هو تجده كالمنسوج من خيوطٍ ممدودة كالسدا وأخرىٰ معترضةٍ كاللحمة كنحو المنسوج باليد، وذلك لتشتد وتصلب فلا تتقصف من حمل الحيوان الثقيل، وتصبر علىٰ هز الرياح العاصفة، ولبثها في السقوف والجسور والأواني وغير ذلك مما يتخذ منها، وهكذا سائر الخشب وغيرها إذا تأملته شبه النسج ولا تراه مصمتًا كالحجر الصلد، بل ترىٰ بعضه كأنه داخل بعضا طولًا وعرضًا كتداخل أجزاء اللحم بعضها في بعض، فإن ذلك أمتن له وأهيأ لما يراد منه، فإنه لو كان مصمتًا كالحجارة لم يمكن أن يستعمل في الآلات والأبواب والأواني والأمتعة والأسرة والتوابيت وما أشبهها. ومن بديع الحكمة في الخشب أن جُعل يطفو علىٰ الماء وذلك للحكمة البالغة، إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والأمتعة وتمخر البحر مقبلةً ومدبرةً، ولولا ذلك لما تهيأ للناس هذه المرافق لحمل هذه التجارات العظيمة والأمتعة الكثيرة»(١).

❑ التفكير في الثمار والحبوب والفواكه:

يقول ابن القيم: «تأمل الحكمة الإلهية في إخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقةً شيئًا بعد شيء متتابعةً، ولم يخلقها كلها جملةً واحدةً، فإنها لو خلقت كذلك علىٰ وجه الأرض ولم تكن تنبت علىٰ هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التي رتبت علىٰ تلاحقها وتتابعها. فإن كل فصلٍ وأوانٍ يقتضي من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر، فهذا حارٌ وهذا باردٌ وهذا معتدلٌ، وكلٌ في فصله موافقٌ للمصلحة لا يليق به غير ما خلق فيه. ثم إنه سبحانه خلق تلك الأقوات مقارنةً لمنافع أخرىٰ من العصف والخشب والورق والنور

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٠ – ٢٣٢).

والسعف والكرب وغيرها من منافع النبات والشجر غير الأقوات، كعلف البهائم وأداة الأبنية والسفن والرحال والأواني وغيرها، ومنافع النور من الأدوية والمنظر البهيج الذي يشوق الناظرين، وحسن مرائي الشجر وخلقتها البديعة المشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف.

ثم إذا تأملت إخراج ذلك النور البهي من نفس ذلك الحطب، ثم الورق الأخضر، ثم إخراج تلك الثمار علىٰ اختلاف أنواعها وأشكالها ومقاديرها وألوانها وطعومها وروائحها ومنافعها وما يراد منها، ثم تأمل أين كانت مستودعةً في تلك الخشبة وهاتيك العيدان؟ وجعلت الشجرة لها كالأم، فهل كان في قدرة الأب العاجز الضعيف إبراز هذا التصوير العجيب وهذا التقدير المحكم وهذه الأصباغ الفائقة وهذه الطعوم اللذيذة والروائح الطيبة وهذه المناظر العجيبة؟ فسل الجاحد من تولىٰ تقدير ذلك وتصييره وإبرازه وترتيبه شيئًا فشيئًا؟ وسوق الغذاء إليه في تلك العروق اللطاف التي يكاد البصر يعجز عن إدراكها وتلك المجاري الدقاق فمن الذي تولىٰ ذلك كله؟ ومن الذي أطلع لها الشمس؟ وسخر لها الرياح؟ وأنزل عليها المطر؟ ودفع عنها الآفات؟»(١).

ويقول: «وتأمل تقدير اللطيف الخبير فإن الأشجار لما كانت تحتاج إلىٰ الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان، ولم يكن لها قوةُ أفواهٍ كأفواه الحيوان، ولا حركةٌ تنبعث بها لتناول الغذاء، جعلت أصولها مركوزةً في الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الثرىٰ، فتؤديه إلىٰ أغصانها، فتؤديه الأغصان إلىٰ الورق والثمر، كلٌ له شربٌ معلومٌ لا يتعداه، يصل إليه في مجارٍ وطرقٍ قد أحكمت غاية الإحكام، فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقها كما يلتقم الحيوان غذاءه بفمه، ثم تقسمه

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٢٤).

علىٰ حملها بحسب ما يحتمله، فتعطىٰ كل جزءٍ منه بحسب ما يحتاج إليه لا تظلمه ولا تزيده علىٰ قدر حاجته، فسل الجاحد من أعطاها هذا؟ ومن هداها إليه ووضعه فيها؟ فلو اجتمع الأولون والآخرون هل كانت قدرتهم وإرادتهم تصل إلىٰ تربية ثمرةٍ واحدةٍ منها هكذا بإشارةٍ أو نصاعةٍ أو حيلةٍ أو مزاولةٍ؟ وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعاته ودلت عليه آياته»(١).

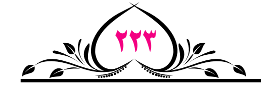
❑ التفكير في خلق الرمان:

«تأمل خلقة الرمان وماذا فيه من الحكم والعجائب، فإنك ترىٰ داخل الرمانة كأمثال القلال شحمًا متراكمًا في نواحيها، وترىٰ ذلك الحب فيها مرصوفًا رصفًا ومنضودًا نضدًا لا تمكن الأيدي أن تنضده، وترىٰ الحب مقسومًا أقسامًا وفرقًا، وكل قسمٍ وفرقةٍ منه ملفوفًا بلفائف وحجبٍ منسوجةٍ أعجب نسج وألطفه وأدقه علىٰ غير منوال إلا منوال «كن فيكون»، ثم ترىٰ الوعاء المحكم الصلب قد اشتمل علىٰ ذلك كله، وضمه أحسن ضمٍ فتأمل هذه الحكمة البديعة في الشحم المودع فيها، فإن الحب لا يمد بعضه بعضًا إذ لو مد بعضه بعضًا لاختلط وصار حبةً واحدةً فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء والدليل عليه أنك ترىٰ أصول الحب مركوزةً في ذلك الشحم»(٢).

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٢٤– ٢٢٦).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٢٧)، مصدر سابق.





المبحث الثاني
التفكير في أحوال الإنسان نفسه
لأجل أن يمارس وظائفه بصورة أفضل

«القرآن الكريم يخاطب الناس ويوجههم إلىٰ النظر والتأمل في أنفسهم، وبالحديث عن أصل الإنسان وحقيقته وكيفية نشأته وتكاثره. فأول الآيات القرآنية نزولًا تعريف بالإنسان وجوهره، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ١ – ٢]... وجميع المعارف التي يكتسبها الإنسان إنما هي فرعٌ لمعرفةٍ سابقةٍ، هي معرفته لذاته... وبقدر ما تكون معرفتك لذاتك دقيقةً سليمةً، فإن معرفتك لحقائق الكون ووظائفه تكون دقيقةً سليمةً... والقرآن لا يحفل بتحليل شيءٍ من مظاهر الكون بتفصيلٍ ودقةٍ واهتمامٍ كما يفعل ذلك عند حديثه عن الإنسان وعن نشأته وكيفية تطوره»(١).

والإنسان أفضل مخلوقات الله، ولذلك شرفه الله وكرمه علىٰ جميع المخلوقات كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠]. فمن تكريم الله لبني آدم أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ومنحوا العلم والعقل والروح والنطق، والصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش

(١) منهج تربوي فريد في القرآن، د/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص ٢١ – ٢٦.

والمعاد، وسُخِّر لهم ما في الكون، ورزقهم من النعم الظاهرة والباطنة ما لا يعد ولا يحصىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وصورته من أحسن الصور وأبدعها، فقامته معتدلة، وعقله عجيب، وروحه أعجب كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤﴾ [التين: ٤].

وتخصيص الإنسان في هذه الآية وفي مواضع أخرىٰ في القرآن بحسن التركيب، وحسن التقويم وحسن التعديل.. فيه دليل علىٰ فضل هذا المخلوق والعناية به.

وعناية الله بأمر الإنسان علىٰ ما به من ضعفٍ وما يقع منه من انحرافٍ عن الفطرة السوية والفساد في المعتقد والسلوك لتشير إلىٰ أن له شأنًا عند الله، وتتجلىٰ هذه العناية في خلقه وتركيبه علىٰ هذا النحو الرائع العجيب، سواءً في تكوين جسمه البالغ الدقة والتعقيد، وفي تكوين عقله الفريد، وكذلك في تكوين روحه العجيب.

والتركيز في هذه الآيات علىٰ خصائصه الروحية، لأنها هي التي تنتكس إلىٰ أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة المستقيمة، ويحيد عن الإيمان الصحيح معها، إذ إنه من الواضح أن خلقته البدنية لا علاقة لها بالإنتكاس إلىٰ أسفل سافلين. وشرفه بالعقل كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

فالإنسان مخلوقٌ متميزٌ ومتفردٌ في خلقه وتكوينه وتكليفه، وجعله جِبلّة من الروح والعقل والجسم.

ورب العزة والجلال أمر بالتأمل والتفكر في خلق الإنسان فقال تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١].

والإنسان مخلوق عجيب في هذه الأرض، وهوغافل عن قيمته الحقيقية، وعن

الأسرار الكامنة في كيانه، بسبب غفلة قلبه عن الإيمان وبعده عن نعمة اليقين.

والإنسان عجيب في ظاهره، وعجيب في باطنه، فظاهره أعضاء متناسقة، وباطنه روح لطيفة، ونفس عجيبة.

وتــــزعم أنـــك جـــرمٌ صـــغيرٌ وفيـــك انطـــوى العـــالم الأكبـــر

وكلما وقف الإنسان يتأمل ويفكر في عجائب نفسه وجد أمورًا تدهش وتحير، في تكوين أعضائه وتوزيعها، ووظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف، عملية الهضم والامتصاص، عملية التنفس والاحتراق، الدورة الدموية في القلب والعروق، الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم، الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه، تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها وتجاوبها الكامل الدقيق، وكل عجيبةٍ من هذه تنطوي تحتها عجائب، وفي كل عضوٍ وكل جزءٍ من عضو خارقةٌ تحير الألباب.

وأسرار روحه العجيبة وطاقاتها المعلومة والمجهولة.. إدراكه للمدركات وطريقة إدراكها وحفظها وتذكرها، هذه المعلومات والصور المختزنة، أين خُزّنت؟ وكيف خُزّنت؟ هذه الصور والرؤىٰ والمشاهد كيف انطبعت؟ وكيف تُستدعىٰ فتجيء؟.. وذلك في الجانب المعلوم من هذه القوىٰ، فأما المجهول منها فهو أكبر وأكثر، تظهر آثاره بين الحين والحين في لمساتٍ وإشراقاتٍ تدل علىٰ ما وراء الظاهر من المغيب المجهول.

ثم تأمل وفكّر في أسرار هذا الجنس وكيف يتوالد ويتوارث الصفات الجسدية والنفسية، خليةٌ واحدةٌ فقط تحمل كل رصيد الجنس البشري من وخصائصه؛ وتحمل معها خصائص الأبوين والأجداد، فأين تكمن هذه الخصائص في تلك

الخلية الصغيرة؟ وكيف تهتدي بذاتها إلىٰ طريقها التاريخي الطويل، فتمثله أدق تمثيلٍ، وتنتهي إلىٰ إعادة هذا الكائن الإنساني العجيب؟!

فوقفةً واحدة أمام اللحظة الأولىٰ التي يبدأ فيها الجنين حياته علىٰ الأرض، وهو ينفصل عن أمه ويعتمد علىٰ نفسه، ويؤذن لقلبه ورئتيه بالحركة لبدء الحياة، إن وقفة تأمل أمام هذه اللحظة وأمام هذه الحركة تدهش العقول وتحير الألباب، وتغمر النفس بفيضٍ من الدهش وفيضٍ من الإيمان، لا يقف له قلبٌ ولا يتماسك له وجدان!

ولو وقف الإنسان مرةً أخرىٰ أمام اللحظة التي يتحرك فيها لسان الوليد لينطق بهذه الحروف والمقاطع والكلمات ثم بالعبارات لتعجب، بل لو تأمل في النطق ذاته - نطق هذا اللسان، وتصويت تلك الحنجرة - إنها عجيبةٌ، عجيبةٌ تفقد وقعها لأنها تمر بنا كثيرًا، ولكن الوقوف أمامها لحظةً في تدبر يجدد وقعها، إنها خارقةٌ، خارقةٌ مذهلةٌ تنبئ عن القدرة التي لا تكون إلا لله.

وكل جزئيةٍ في حياة هذا المخلوق تقفنا أمام خارقةٍ من الخوارق، لا ينقضي منها العجب ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾.

وكل فردٍ من هذا الجنس عالمٌ وحده، لا يتكرر أبدًا علىٰ مدار الدهور، ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعًا لا في شكله وملامحه، ولا في عقله ومداركه، ولا في روحه ومشاعره، ولا في صورة الكون كما هي في حسه وتصوره، ففي هذا المخلوق الإلهي العجيب الذي يضم ملايين الملايين، كل فردٍ نموذجٌ خاصٌ، وطبعةٌ فريدةٌ لا تتكرر، كما لا توجد بصمة أصابعٍ مماثلةٌ لبصمة أصابعٍ أخرىٰ في هذه الأرض في جميع العصور!

وكثيرٌ من عجائب الإنسان مكشوفةٌ للبصر، تراه العيون لكن الناس في غفلة، ولذلك أمرهم الله فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾.

«وتقديم «في أنفسكم» المعنىٰ: ألا تتفكرون في خلق أنفسكم؛ كيف أنشأكم الله من ماءٍ وكيف خلقكم أطوارًا، أليس كل طورٍ هو إيجاد خلقٍ لم يكن موجودًا قبل، فالموجود في الصبي لم يكن موجودًا فيه حين كان جنينًا، والموجود في الكهل لم يكن فيه حين كان غلامًا وما هي عند التأمل إلا مخلوقاتٌ مستجدةٌ كانت معدومةً فكذلك إنهاء الخلق بعد الموت.

وهذا التكوين العجيب كما يدل علىٰ إمكان الإيجاد بعد الموت، يدل علىٰ تفرّد مكونه تعالىٰ بالإلهية، إذ لا يقدر علىٰ إيجادِ مثلِ الإنسان غيرُ الله تعالىٰ، فإن بَواطن أحوال الإنسان وظواهرها عجائِبٌ من الانتظام والتناسب، وأعجبها خلق العقل وحركاته، واستخراج المعاني، وخلق النطق والإلهام إلىٰ اللغة، وخلق الحواس، وحركة الدورة الدموية، واتساق الأعضاء الرئيسة وتفاعلها، وتسوية المفاصل والعضلات والأعصاب والشرايين، وحالها بين الارتخاء واليبس فإنه إذا غلب عليها التيبس جاء العجز وإذا غلب الارتخاء جاء الموت»[1].

وقال تعالىٰ: آمرًا بالتفكر في خلق الإنسان: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾[الروم:٨]. «أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسل الله ولقائه «في أنفسهم» فإن في أنفسهم آياتٍ يعرفون بها أن الذي أوجدهم من العدم سيعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطوارًا من نطفةٍ إلىٰ علقةٍ إلىٰ مضغةٍ إلىٰ آدميٍ قد نفخ فيه

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٥٣– ٣٥٤).

الروح إلىٰ طفلٍ إلىٰ شابٍ إلىٰ شيخٍ إلىٰ هرمٍ غير لائقٍ أن يتركهم سدىً مهملين لا ينهون ولا يؤمرون ولا يثابون ولا يعاقبون»[(١)].

فالقرآن الكريم يدعو إلىٰ التفكير في مبدأ خلق الإنسان ووسطه وآخره، وفي ذلك من العجائب ما تنقضي الأعمار في الوقوف علىٰ بعضه، والعلم الحديث يكتشف يومًا بعد يوم أمورًا عدة من عجائب خلق الإنسان، الظاهرة الباطنة، والتي تدل علىٰ عظمة الخالق، وحسن تدبيره للخلق.

ومن الأمور التي ينبغي التفكير فيها التفكير في أصل الإنسان وتكوينه: فقد ذكر في القرآن الكريم أصل الإنسان، وبداية خلقه فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١]. وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨﴾ [الأنعام: ٩٨]. وقال تعالىٰ: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فأصل الإنسان هو آدم، خُلق من ترابٍ ثم من طينٍ ثم من صلصال، والطين هو التراب إذا أضيف إليه الماء، والصلصال هو الطين اليابس، فكلها ترابٌ بإضافة الماء أو بدون إضافته.

يقول الشنقيطي: «فاعلم أن الله جل وعلا أوضح في كتابه أطوار هذا الطين الذي خلق منه آدم، فبين أنه أولًا ترابٌ بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٦٣٧).

كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾[غافر: ٦٧] إلىٰ غير ذلك من الآيات ثم أشار إلىٰ أن ذلك التراب بُلّ فصار طينًا يعلق بالأيدي في مواضع أُخر كقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ [الصافات: ١١] وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢] وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة: ٧] إلىٰ غير ذلك من الآيات، وبين أن ذلك الطين أسودٌ وأنه متغيرٌ بقوله هنا: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وبين أيضًا أنه يبس حتىٰ صار صلصالًا، أي تسمع له صلصلةٌ من يبسه بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ [الحجر: ٢٦] وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: ١٤][(١)].

فأما خلق الإنسان من تراب فوردت نصوصٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم تبين ذلك منها قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠]. «فأصلكم من ترابٍ ثم من ماءٍ مهينٍ ثم تصوّر فكان علقةً ثم مضغةً ثم صار عظامًا شكله علىٰ شكل الإنسان، ثم كسا تلك العظام لحمًا، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميعٌ بصيرٌ، ثم خرج من بطن أمه صغيرًا ضعيف القوىٰ والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتىٰ آل به الحال إلىٰ أن صار يبني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم ويركب متن البحور ويدور أقطار الأرض ويكتسب ويجمع الأموال، وله فكرةٌ وغورٌ، ودهاءٌ ومكرٌ، ورأيٌ وعلمٌ واتساعٌ في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٢٧٤-٢٧٥).

في فنون المعايش والمكاسب وفاوت بينهم في العلوم والفكرة والحسن والقبح والغنى والفقر والسعادة والشقاوة ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾ [الروم: ٢٠][1].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧﴾ [الكهف: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]. و «أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوي على ما تحتويه الأرض من العناصر، فهو يتكون من الكربون والأوكسجين، والهيدروجين، والفسفور والكبريت، والآزوت، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والمغنسيوم، والحديد والمنجنيز، والنحاس، واليود، والفلورين، والكوبالت، والسليكون، والألومنيوم. وهذه نفسها العناصر المكونة للتراب، وإن اختلفت نسبتها في إنسان عن آخر، وفي الإنسان عن التراب، إلا أن أصنافها واحدة»[2].

ورد في بعض نصوص القرآن الكريم أن الإنسان خلق من صلصالٍ كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤﴾ [الرحمن: ١٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾ [الحجر: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨﴾ [الحجر: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣﴾ [الحجر: ٣٣]. فقوله: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ «أي: من طين قد يبس، بعدما خمر حتى صار له

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٠).

(٢) الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية، ص ٢٧٠.

صلصلةً وصوت، كصوت الفخار. والحمأ المسنون، الطين المتغير لونه وريحه، من طول مكثه»[(١)].

ومن الأمور التي ينبغي التفكير فيها، التفكير في حال الإنسان في بطن أمه؛ فخلق الإنسان يمر عبر مراحل من التقدير الإلهي اللطيف الذي به يرعاه بقدرته، فمع نشأته الجنينية ورحلته العجائبية، يتنقل هذا المخلوق المكرم من طورٍ إلىٰ طور، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [الحج: ٥].

والمسافة بين خلق آدم من تراب، وبين النطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية مسافةٌ هائلةٌ، تضمر في طياتها سر الحياة، السر الذي لم يعرف البشر قديمًا عنه شيئًا يذكر، والذي لا سبيل إلىٰ أكثر من ملاحظته وتسجيله، دون التطلع إلىٰ خلقه وإنشائه، مهما طمح الإنسان، وتعلق بأهداب المحال!

ثم يبقىٰ بعد ذلك سر تحول تلك النطفة إلىٰ علقة، وتحول العلقة إلىٰ مضغة، وتحول المضغة إلىٰ إنسان! فما تلك النطفة؟ إنها ماء الرجل، والنقطة الواحدة من هذا الماء تحمل ألوف الحيوانات المنوية. وحيوانٌ واحدٌ منها هو الذي يلقح البويضة من ماء المرأة في الرحم ويتحد بها فتعلق في جدار الرحم.

وفي هذه البويضة الملقحة بالحيوان المنوي، وبقدرة الله تكمن جميع خصائص الإنسان المقبل: صفاته الجسدية وسماته من طولٍ وقصرٍ، وضخامةٍ وضآلةٍ، وقبحٍ ووسامةٍ، وآفةٍ وصحة.

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٣١).

كما تكمن صفاته العصبية والعقلية والنفسية: من ميولٍ ونزعاتٍ، وطباعٍ واتجاهاتٍ، وانحرافاتٍ واستعدادات.

تأمل وتفكر فكل ما ذكر كامنٌ في تلك النقطة العالقة، وهذه النقطة الصغيرة الضئيلة هي هذا الإنسان المعقد المركب، الذي يختلف كل فردٍ من جنسه عن الآخر فلا يتماثل اثنان في هذه الأرض في جميع الأزمان؟!

ومن العلقة إلىٰ المضغة، وهي قطعةٌ من دمٍ غليظٍ لا تحمل سمةً ولا شكلًا، ثم تخلق فتتخذ شكلها بتحولها إلىٰ هيكلٍ عظميٍ يُكسىٰ باللحم؛ أو يلفظها الرحم قبل ذلك إن لم يكن مقدرًا لها التمام.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤].

وفي هذه الآيات بيانٌ أن النطفة طورٌ من أطوار النشأة الإنسانية، وهي حقيقة عجيبة غريبة تدعو إلىٰ التأمل، فهذا الإنسان الضخم يُختصر ويُلخص بكل عناصره وبكل خصائصه في تلك النطفة.

ومن النطفة إلىٰ العلقة، حينما تمتزج خلية الذكر ببويضة الأنثىٰ، وتعلق هذه بجدار الرحم نقطةً صغيرةً في أول الأمر، تتغذىٰ بدم الأم، ومن العلقة إلىٰ المضغة، حينما تكبر تلك النقطة العالقة، وتتحول إلىٰ قطعةٍ من دمٍ غليظٍ مختلط.

ويمضي هذا المخلوق في ذلك الخط الثابت الذي لا ينحرف ولا يتحول، ولا تتوانىٰ حركته المنظمة، وبتلك القوة الكامنة في الخلية المستمدة من قوة الله وقدرته وتدبيره، حتىٰ تجيء مرحلة العظام.. ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا﴾ فمرحلة كسوة

العظام باللحم: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾.. وهنا يقف الإنسان مدهوشًا أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تُعرف علىٰ وجه الدقة إلا أخيرًا بعد تقدم علم الأجنة التشريحي. ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم. وقد ثبت أن خلايا العظام هي التي تتكون أولًا في الجنين. ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور العظام، وتمام الهيكل العظمي للجنين، وهي الحقيقة التي يسجلها النص القرآني: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾.. فسبحان العليم الخبير! ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾.. هذا هو الإنسان ذو الخصائص المتميزة. فجنين الإنسان يشبه جنين الحيوان في أطواره الجسدية. ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقًا آخر، ويتحول إلىٰ تلك الخليقة المتميزة، المستعدة للارتقاء، ويبقىٰ جنين الحيوان في مرتبة الحيوان، مجردًا من خصائص الارتقاء والكمال، التي يمتاز بها جنين الإنسان.

إن الجنين الإنساني مزودٌ بقدرة الله بخصائص معينة هي التي تسلك به طريقه الإنساني فيما بعد، فينشأ «خلقًا آخر» في آخر أطواره الجنينية؛ بينما يقف الجنين الحيواني عند التطور الحيواني؛ لأنه غير مزودٍ بتلك الخصائص، ومن ثم فإنه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبته الحيوانية، فيتطور إلىٰ مرتبة الإنسان تطورًا آليًا كما تقول النظريات المادية. فهما نوعان مختلفان، اختلفا بتلك النفخة الإلهية التي بها صارت سلالة الطين إنسانًا، واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتي ينشأ بها الجنين الإنساني «خلقًا آخر» ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ الذي أودع فطرة الإنسان تلك القدرة علىٰ السير في هذه الأطوار، وفق السنة الإلهية التي لا تتبدل ولا تنحرف ولا تتخلف، حتىٰ تبلغ بالإنسان ما هو مقدرٌ له من مراتب الكمال الإنساني، علىٰ أدق ما يكون النظام!.

ويقول تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٥-٧].

«**والنظر**: نظر العقل، وهو التفكر المؤدي إلىٰ علم شيءٍ بالاستدلال... وجعل الإنسان مخلوقًا من ماء الرجل لأنه لا يتكوّن جسم الإنسان في رحم المرأة إلا بعد أن يخالطها ماء الرجل، فإذا اختلط ماء الرجل بما يُسمىٰ ماء المرأة، وهو شيءٌ رطب كالماء يحتوي علىٰ بُوَيضاتٍ دقيقةٍ يثبت منها ما يتكوّن منه الجنين ويُطرح ما عداه.

وهذا مخاطبةٌ للناس بما يعرفون يومئذٍ بكلامٍ مجملٍ، مع التنبيه علىٰ أن خلق الإنسان من ماء الرجل وماءِ المرأة بذكر الترائب لأن الأشهر أنها لا تطلق إلا علىٰ ما بين ثديي المرأة.

ولا شك أن النسل يتكون من الرجل والمرأة فيتكون من ماء الرجل، وهو سائلٌ فيه أجسامٌ صغيرةٌ تسمىٰ في الطب الحيوانات المنوية، وهي خيوطٌ مستطيلةٌ مؤلفةٌ من طرفٍ مسطحٍ بيضوي الشكل وذَنبٍ دقيقٍ كخيط، وهذه الخيوط يكون منها تلقيح النسل في رحم المرأة، ومقرها الأنثيان وهما الخصيتان فيندفع إلىٰ رحم المرأة.

ومن ماءٍ هو للمرأة كالمني للرجل ويسمىٰ ماء المرأة، وهو بويضاتٌ دقيقةٌ كرويةُ الشكل تكون في سائل مقره حُويصلة من حويصلات يشتمل عليها مبيضان للمرأة وهما بمنزلة الأنثيين للرجل، فهما غدتان تكونان في جانبي رحم المرأة، وكل مبيضٍ يشتمل علىٰ عددٍ من الحُويصلات يتراوح من عشرٍ إلىٰ عشرين، وخروج البويضة من الحُويصلة يكون عند انتهاء نمو الحويصلة فإذا انتهىٰ نموها انفجرتْ فخرجت البويضة في قناة تبلغ بها إلىٰ تجويف الرحم، وإنما يتم بلوغ البويضة النموَّ وخروجُها من الحويصلة في وقت حيض المرأة، فلذلك يكثر العلوق إذا باشر الرجل المرأة بقرب انتهاء حيضها.

وأصل مادة كِلا الماءين مادةٌ دمويةٌ تنفصل عن الدماغ، وتنزل في عرقين خلف الأذنين، فأما في الرجل فيتصل العرقان بالنخاع، وهو الصلب ثم ينتهي إلىٰ عرقٍ يسمىٰ الحَبْل المَنَوي، مؤلف من شرايين وأوْرِدَةٍ وأعصابٍ، وينتهي إلىٰ الأنثيين وهما الغدتان اللتان تُفرزانِ المني فيتكون هنالك بكيفية دُهنية وتبقىٰ منتشرة في الأنثيين إلىٰ أن تفرزها الأنْثيان مادةً دهنيةً شحمية، وذلك عند دغدغة ولَذع القضيب المتصل بالأنثيين فيندفق في رحم المرأة.

وأما بالنسبة إلىٰ المرأة فالعرقان اللذان خلف الأذنين يمران بأعلىٰ صدر المرأة وهو الترائب؛ لأن فيه موضع الثديين، وهما من الأعضاء المتصلة بالعروق التي يسير فيها دم الحيض الحاملُ للبويضات التي منها النسل، والحيض يسيل من فَوهات عروقٍ في الرحم، وهي عروقٌ تنفتح إبان حلول المحيض وتنقبض عقب الطُّهر، والرحم يأتيها عصب من الدماغ.

وهذا من الإعجاز العلمي في القرآن الذي لم يكن علمٌ به للذين نزل بينهم، وهو إشارةٌ مجملةٌ وقد بينها حديث مسلم عن أم سلمة وعائشة: «أن رسول الله ﷺ سئل عن احتلام المرأة، فقال: تغتسل إذا أبصرت الماء فقيل له: أترىٰ المرأة ذلك فقال: «وهل يكون الشبه إلا من قِبَل ذلك إذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل أشبه الولد أخواله وإذا علا ماء الرجل ماءَها أشبه أعمامه»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ

(١) تفسير التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٦١- ٢٦٤).

ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝٦﴾ [الزمر: ٦]. فقوله: ﴿خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ أي طورًا من الخلق بعد طورٍ آخر يخالفه وهذه الأطوار عشرة:

الأول: طور النطفة، وهي جسمٌ مُخاطِيٌّ مستديرٌ أبيض، خالٍ من الأعضاء يشبه دودة، طولُه نحو خمسة مليميترات.

الثاني: طور العلَقة، وهي تتكون بعد ثلاثةٍ وثلاثين يومًا من وقت استقرار النطفة في الرحم وهي في حجم النملة الكبيرة، طولها نحو ثلاثة عشر مليمترًا، يلوح فيها الرأس وتخطيطات من صُور الأعضاء.

الثالث: طور المضغة، وهي قطعَةٌ حمراء في حجم النحْلة.

الرابع: عند استكمال شهرين يصير طوله ثلاثة سنتيمترات، وحجم رأسه بمقدار نصف بقيته، ولا يتميز عنقه ولا وجهه ويستمر احمراره.

الخامس: في الشهر الثالث يكون طوله خمسة عشر سنتيمترًا، ووزنه مائة غرام، ويبدو رسم جبهته وأنفه وحواجبه وأظافره ويستمر احمرار جلده.

السادس: في الشهر الرابع يصير طوله عشرين سنتيمترًا، ووزنه ٢٤٠ جرامًا، ويظهر في الرأس زغبٌ، وتزيد أعضاؤه البطْنية علىٰ أعضائه الصدْرية، وتتضح أظافره في أواخر ذلك الشهر.

السابع: في الشهر السادس يصير طوله نحو ثلاثين سنتيمترًا، ووزنه خمسمائة غرامٍ، ويظهر فيه مطبقًا وتتصلب أظافره.

الثامن: في الشهر السابع يصير طوله ثمانيةً وثلاثين سنتيمترًا، ويقلّ احمرار جلده، ويتكاثف جلده، وتظهر علىٰ الجلد مادةٌ دُهنيةٌ دسمةٌ ملتصقة، ويطول شعر رأسه ويميل إلىٰ الشقرة، وتتقبب جمجمته من الوسط.

التاسع: في الشهر الثامن يزيد غلظه أكثر من ازدياد طوله، ويكون طوله نحو أربعين سنتيمترًا، ووزنه نحو أربعة أرطال أو تزيد، وتقوىٰ حركته.

العاشر: في الشهر التاسع يصير طوله من خمسين إلىٰ ستين سنتيمترًا، ووزنه من ستة إلىٰ ثمانية أرطال، ويتم عظْمه، ويتضخّم رأسه، ويكثف شعره، وتبتدئ فيه وظائف الحياة في الجهاز الهضمي والرئة والقلب، ويصير نماؤه بالغذاء، وتظهر دورة الدم فيه المعروفة بالدورة الجَنِينِية.

و﴿ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾: ظلمة بطن الأم، وظلمة الرحم، وظلمة المَشِيمة، وهي غشاء من جلد يخلق مع الجنين محيطًا به ليقيه وليكون به استقلاله مما ينجر إليه من الأغذية في دورته الدموية الخاصة به دون أمه، وفي ذكر هذه الظلمات تنبيه علىٰ إحاطة علم الله تعالىٰ بالأشياء ونفوذ قدرته إليها في أشدَّ ما تكون فيه من الخفاء»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٥٩].

إن دور الإنسان في أمر هذا الخلق لا يزيد علىٰ أن يودع الرجل ما يُمنىٰ في رحمَ المرأة، ثم ينقطع عمله وعملها، وتأخذ قدرة الله في العمل وحدها في هذا الماء المهين، تعمل وحدها في خلقه وتنميته، وبناء هيكله، ونفخ الروح فيه. ومنذ اللحظة الأولىٰ وفي كل لحظةٍ تاليةٍ تتم المعجزة الإلهية، وتقع الخارقة التي لا يصنعها إلا الله، والتي لا يدري البشر كنهها وطبيعتها؛ كما لا يعرفون كيف تقع، ولا يستطيعون أن يشاركوا فيها!

وهذا القدر من التأمل يدركه كل إنسان، وهذا يكفي لتقدير هذه المعجزة والتأثر

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٣٣- ٣٣٤).

بها ولكن قصة هذه الخلية الواحدة منذ أن تمنىٰ، إلىٰ أن تصير خلقًا، قصةٌ أغرب من الخيال. قصةٌ لا يصدقها العقل لولا أنها تقع فعلًا، ويشهد وقوعها كل إنسان!

يقول ابن القيم: «ارجع إلىٰ النطفة وتأمل حالها أولًا وما صارت إليه ثانيًا، وأنه لو اجتمع الإنس والجن علىٰ أن يخلقوا لها سمعًا أو بصرًا أو عقلًا أو قدرةً أو علمًا أو روحًا، بل عظمًا واحدًا من أصغر عظامها، بل عرقًا من أدق عروقها، بل شعرةً واحدةً لعجزوا عن ذلك، بل ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرةٍ من ماءٍ مهين»(١).

ومن الأمور التي ينبغي التفكير فيها، التفكير في تطور خلق الإنسان بعد الولادة: خلق الله آدم في أجمل صورة، وأحسن تقويم، إذ جعل الله بقدرته وتدبيره الطين بشرًا مدركًا مفكرًا سميعًا بصيرًا، وخلق له زوجه، وجعله متناسلًا، وجعل نسله من ماءٍ مهين وخلقه في أطوارٍ عجيبةٍ من غير حولٍ له ولا قوة.

وخلق له الأعضاء والحواس، وجعل له الرأس والوجه واللسان والأسنان والفم والحلق والحنجرة، والأظفار واليدين والرجلين، والبطن والصدر والظهر، واللحم والجلد، والدّم والأعصاب والعروق، وجعل له الأجهزة الكثيرة التي تعمل في تناسقٍ وانتظامٍ بوظائف مختلفة.

وخلق الإنسان قائمًا منتصبًا معتدلًا غير مكبوبٍ علىٰ وجهه، ولا مُلقىً علىٰ ظهره ليباشر أعماله بيديه وجوارحه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦ – ٨]. «**والخَلق:** الإيجاد علىٰ مقدارٍ مقصود. **والتسْوية:** جعل الشيء سويًّا، أي قويمًا سليمًا، ومن

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٦).

التسوية جعل قواه ومنافعه الذاتية متعادلةً غير متفاوتةٍ في آثار قيامها بوظائفها، بحيث إذا اختل بعضها تطرق الخلل إلىٰ البقية فنشأ نقصٌ في الإدراك أو الإحساس، أو نشأ انحرافُ المزاج أو ألمٌ فيه، فالتسوية جامعةٌ لهذا المعنىٰ العظيم.

والتعديل: التناسب بين أجزاء البدن مثل تناسب اليدين، والرجلين، والعينين، وصورة الوجه، فلا تفاوت بين متزاوجها، ولا بشاعة في مجموعها، وجعَلَه مستقيم القامة، فلو كانت إحدىٰ اليدين في الجنب، والأخرىٰ في الظهر لاختلّ عملهما، ولو جعل العينان في الخلف لانعدمت الاستفادة من النظر حال المشي، وكذلك مواضع الأعضاء الباطنة من الحَلق والمعدة والكبد والطحال والكليتين، وموضع الرئتين والقلب وموضع الدماغ والنخاع.

وخلق الله جسد الإنسان مقسمةً أعضاؤه وجوارحه علىٰ جهتين لا تفاوت بين جهة وأخرىٰ منهما، وجعل في كل جهةٍ مثل ما في الأخرىٰ من الأوردة والأعصاب والشرايين»[(١)].

إن خلق الإنسان بهذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة، الكاملة الشكل والوظيفة أمرٌ يستحق التدبر والتفكر الطويل، والشكر العميق، والثناء المستمر، والأدب الرفيع، ومحبة الله الكريم، الذي أكرمه بهذه الخلقة، تفضلًا منه ورعاية ومنة، فقد كان قادرًا أن يركبه في أية صورةٍ أخرىٰ يشاؤها، فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة.

وإن الإنسان لمخلوقٌ جميل التكوين، سوي الخلقة، معتدل التصميم، وإن عجائب الإبداع في خلقه لأضخم من إدراكه هو، وأعجب من كل ما يراه حوله.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٣٠/ ١٧٥– ١٧٦).

وإن الجمال والسواء والاعتدال لتبدو في تكوينه الجسدي، وفي تكوينه العقلي، وفي تكوينه الروحي سواء، وهي تتناسقُ في كيانه في جمال واستواء!

«وهذه بعض الحقائق الموجزة المجملة التي وقف عليها العلم الحديث في خلق الإنسان وما فيه من الآيات البينات ليزداد تبصرةً ومعرفةً بنفسه:

- **الدماغ**: وجد فيه ثلاثة عشر مليار خلية عصبية، ومائة ألف مليارخلية دبقية استنادية تشكل سدًا منيعًا لحراسة الخلايا العصبية من التأثر بأية مادة، ويحتاج الدماغ يوميًا إلىٰ كمية من الدم لا تقل عن ألف لتر!

- **العين**: وجد في العين الواحدة نحو مائةٍ وأربعين مليون مستقبل حساس للضوء، ويخرج من العين نصف مليون ليفٍ عصبي ينقل الصورة بشكلٍ ملون، ويتم تنظيف العين عن طريق إفراز الغدد الدمعية سوائل مالحة تُدِرُّ حسب الحاجة إليها!

- **الأذن**: وهي أهم من العين لوظائفها الكثيرة التي يُعتمد عليها في توجيه النطق، والبصر والحركة والتوازن، والانتباه من النوم، والتعلم والتربية، وقد ورد السمع مقدمًا علىٰ البصر في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، ويوجد في الأذن نحو ثلاثين ألف خليةٍ سمعيةٍ، وتفرز الغدد السمعية سائلًا لزجًا مرًا لحماية الأذن وتنظيفها من الغبار!

- **الأنف**: يستطيع أن يميز نحو أربعة آلاف رائحةٍ مختلفةٍ: منها الكريهة ومنها الطيبة.

- **اللسان**: يوجد فيه تسعة آلاف خليةٍ ذوقيةٍ لتمييز الطعم الحلو والحامض والمر والمالح.

- **المعدة**: فيها خمسة وثلاثون مليون غدةٍ معقدة التركيب لأجل الإفراز!

- **القلب**: عضلة تزن نحو ثلاثمائة وخمسة وعشرين غرامًا، وتعمل علىٰ ضخ الدم عبر مائة ألف كيلو مترًا من الأوعية الدموية يوميًا!

- يستهلك الجسم من خلاياه نحو مائة وخمسة وعشرين مليون خلية في الثانية الواحدة، ويتشكل العدد نفسه في الثانية الواحدة.

- وجد تحت سطح الجلد بين خمسة إلىٰ خمسة عشر مليون مكيّف لحرارة البدن!

- يتنفس الإنسان كل يوم نحو خمسة وعشرين ألف مرة يسحب فيها مائة وثمانين مترًا مكعبًا من الهواء يتسرب منها نحو ستة أمتار ونصف من الأوكسجين للدم!

- وفي بنان الإنسان سرٌ وإعجازٌ؛ إذ لا يمكن للبصمة أن تتطابق أو تتماثل في شخصين في العالم حتىٰ في التوائم المتماثلة التي أصلها من بويضةٍ واحدةٍ، وصدق الله العظيم: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة: ٣-٤].

وسبحان الله الذي قدر فهدىٰ، والذي خلق فأتقن، وصوَّر فأحسن: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران: ١٩١][(١)].

وجعل حياته في مراحل متعاقبةٍ من طفولةٍ وشبابٍ وكهولةٍ وشيخوخة، وفترات ضعفٍ وقوّة، وجعل له أجلًا مسمًّىٰ وفي هذا مجالٌ لأهل العقول للتأمل والتفكير قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [غافر: ٦٧].

---

(١) مجلة البيان عدد ١٤٢، أكتوبر ١٩٩٩، ص ١١٠.

ويقول تعالىٰ عن حال الإنسان بعد الولادة: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

تأمل في حال الإنسان وهو في بطن أمه تلك المدة الطويلة والتي تصل إلىٰ تسعة أشهر، وكيف كانت بدايته من نطفة لا تُرىٰ بالعين المجردة، ثم تأمل في حاله بعد الولادة وكيف يتدرج في مراحله العمرية ويصبح مخلوقًا بشريًا ذو الأعضاء والجوارح، والسمات والملامح، والصفات والاستعدادات، والميول والنزعات.

هذه المسافة بين خلق الإنسان من نطفة إلىٰ أن يُرد إلىٰ أرذل العمر إن لم يمت قبل ذلك، تجعل العاقل يتفكر فيرىٰ عظمة الله في خلق الإنسان، ويتأمل فيقف خاشعًا أمام قدرة الله الحكيم العليم الرحيم.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ فيتوقف النمو العضلي، والنمو العقلي، والنمو النفسي، وبين هذه الفترة والتي قبلها مسافات من الزمن تسير وفق تدبير القدير العظيم الحكيم العليم. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾. فأما من يتوفىٰ فهو صائرٌ إلىٰ نهاية كل حي. وأما من يُرد إلىٰ أرذل العمر فهي صفحةٌ مفتوحةٌ للتدبر، فبعد العلم والرشد والوعي والاكتمال، إذا هو يرتد طفلًا، طفلًا في عواطفه وانفعالاته وفي وعيه ومعلوماته وفي تقديره وتدبيره، طفلًا أقل شيءٍ يرضيه وأقل شيءٍ يبكيه، طفلًا في حافظته فلا تمسك شيئًا، وفي ذاكرته فلا تستحضر شيئًا، طفلًا في أخذه الأحداث والتجارب فرادىٰ لا يربط بينها رابطٌ ولا تؤدي في حسه ووعيه إلىٰ نتيجة؛ لأنه ينسىٰ أولها قبل أن يأتي علىٰ آخرها: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]. وإن الناس ليقفون دهشين، حين يصنع الإنسان جهازًا يتبع طريقًا خاصًا في تحركه، دون تدخلٍ مباشرٍ من الإنسان.. فأين هذه الدهشة من سير الجنين في مراحله تلك وأطواره وتحولاته؟ غير أن البشر يمرون علىٰ هذه الخوارق مغمضي العيون، مغلقي القلوب؛ لأن طول الألفة أنساهم أمرها الخارق العجيب، وإن مجرد التفكر في هذه الحقيقة التي تتكرر كل لحظةٍ لكافٍ وحده أن يفتح مغاليق القلوب علىٰ ذلك التدبير العجيب الغريب.

ومما ينبغي التفكير فيه من خلق الإنسان ما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾ [القيامة: ٣ – ٤]. «إن الخطوط المميزة لبصمات الأصابع، والتي لا تتكرر بين إنسانٍ وإنسانٍ في أي زمانٍ أو مكانٍ، حقيقةٌ علميةٌ لم يكتشفها الطب الشرعي إلا في القرن التاسع عشر.

وقد اعتمد عليها علم الجريمة بعد ذلك في كشف الجرائم... وذكر البنان لما فيه من غرابة الوضع ودقة الصنع؛ لأن الخطوط والتجاويف الدقيقة لا تماثلها خطوطٌ أخرىٰ، وأثبت العلم الحديث أنه لا تتشابه بصمتا بنانين»(١).

ومن الأمور التي ينبغي التفكير فيها: التفكير في نهاية الإنسان في الدنيا، فالمتتبع للنصوص القرآنية والواقع يرىٰ أن نهاية الإنسان، بل كل حيٍ علىٰ وجه الأرض هو الموت، والحياة في هذه الأرض محدودةٌ بأجل، والجزاء والكسب والخسارة يوم القيامة، ومن النصوص الواردة في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[آل عمران: ١٨٥]، فالموت مصير كل حيٍ علىٰ وجه الأرض، فمن

---

(١) الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية، ص ٢٩٩.

لم يمت اليوم فسيموت غدًا، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره، تعددت الأسباب والموت واحد.

وتذكر الموت مما يزيل الهموم والغموم الدنيوية، وهو أيضًا مما يزهد في الدنيا ويرغب في الآخرة، ويبين كذلك حقارة الدنيا وعلو شأن الآخرة، وتذكر الموت يجعل المسلم يزداد يقينًا بأن وراء هذه الحياة حياةً أخرىٰ أفضل وأعظم، يجازىٰ المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ويرىٰ كل منهما جزاء عمله.

إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس: حقيقةُ أن الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودةٌ بأجل؛ ثم تأتي نهايتها حتمًا.. يموت الصالحون والطالحون، يموت المجاهدون والقاعدون، يموت الشجعان الذين يأبون الضيم، ويموت الجبناء الحريصون علىٰ الحياة بأي ثمن.. يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص الكل يموت.. ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾.. كل نفسٍ تذوق هذه الجرعة، وتفارق هذه الحياة.. لا فارق بين نفسٍ ونفس في تذوق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة علىٰ الجميع، إنما الفارق في شيء آخر.

الفارق في قيمةٍ أخرىٰ، الفارق في المصير الأخير: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].. هذه هي القيمة التي يكون فيها الافتراق. وهذا هو المصير الذي يفترق فيه فلانٌ عن فلان. القيمة الباقية التي تستحق السعي والكد، والمصير المخوف الذي يستحق أن يحسب له ألف حساب.

ومهما تحصن الإنسان في أي مكانٍ فإن الموت مدركه لا محالة كما قال تعالىٰ:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، فلا يُغني حذر من قدر، فالموت حتمٌ في موعده المقدر، ولا علاقة له بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد أو قلة حصانته، والموت مدركُ الإنسان لا محالة، ولو كان في أقوىٰ الحصون وأمنعها وأحكمها بناءً، وما دام الأمر كذلك فليكن الموت والإنسان مقبلٌ في سبيل الله خيرٌ من أن يكون وهو مدبر.

ومها فرّ الإنسان عن الموت وهرب منه وكرهه فإنه ملاقيه كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [الجمعة: ٨]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق: ١٩].



المبحث الثالث

التفكير في التاريخ والأجيال السابقة لأجل التعرف على السنن والقوانين التي وضعها الله تعالى لحياة البشرية

لقد ورد في القرآن الكريم ذكر قصص الأنبياء والمرسلين، وقصص الطغاة والظالمين، وقصص الأمم السابقة، من آمن منهم ومن كفر، وما حلّ بهؤلاء من الثبات علىٰ دين الله حتىٰ الممات، والنعيم الدائم في الدنيا والآخرة، وما حل بهؤلاء من الشقاء والعذاب الدائم في الدنيا والآخرة، وكان القصد من ذلك أن يسلك العقلاء طريق المؤمنين السابقين فيسعدوا برضوان الله، ويتجنبوا سبيل العاصين لينجوا من سخط الله وعقابه.

يقول الله جل جلاله حاثًا علىٰ التفكير في القصص: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٦]، فالنبي ﷺ أُمر بأن يقص هذه القصة وغيرها من القصص لعل قومه ومن يقرأ القرآن الكريم أن يتفكروا فيتعظوا ويعتبروا، ويبتعدوا عن طرق الضلال والهلاك، ويتبعوا طرق الهداية والنجاة، وفي هذه القصة بالذات تحذيرٌ من عقاب الله لمن سار سيرة ذلك العالم، وزاغ مثل زيغه.

يقول ابن عاشور عند هذه الآية: «أي اقصص هذه القصة وغيرها، وهذا تذييلٌ للقصة الممثل بها يشملها وغيرها من القصص التي في القرآن، فإن في القصص تفكرًا وموعظة فيرجىٰ منه تفكرهم وموعظتهم؛ لأن للأمثال واستحضار النظائر شأنًا عظيمًا في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفية إلىٰ النفوس الذاهلة أو المتغافلة، لما

في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس»[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، والذي يعنيننا في هذا الفصل بعض القصص التي عقّب عليها القرآن الكريم أو قرن بها الحث علىٰ التفكير فيها لأخذ العظة والعبرة. «وكرر القرآن الدعوة إلىٰ التفكير مبينًا أن الاجتماع الإنساني تُسيِّره سننٌ كونية، سنن القوة والضعف والنصر والهزيمة والعمران والتخلف، وأن هذه السنن لا تتبدل ولا تتحول: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٢ – ٢٣][(٢)] «فلا بد من دراسة تاريخ الأنبياء والأمم السابقة دراسةً واعيةً متفتحةً بصيرةً مُعتبرة، لمعرفة عوامل الفناء والبقاء في المجتمعات... دراسة تاريخ الأنبياء والأمم السابقة للنظر والاعتبار، وللاستفادة من تجارب البشرية السابقة، دراسةً ذات منهجٍ مرسوم»[(٣)].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]. وفي قصص السابقين من الرسل والأنبياء والأمم والأفراد دروسٌ وعبرٌ للمتفكرين، الذين يستخدمون عقولهم كما ينبغي.

ويشبع التفكير في القرآن الكريم لدىٰ الفرد حب الاستطلاع والرغبة في معرفة

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٧٩).

(٢) بعض أسس التفكير كما جاءت في القرآن الكريم، د/ محمد العبدة، ص١٠.

(٣) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ص ١١٣.

المزيد من الحقائق والمعلومات عن جوانب الحياة المتعددة، سواءً في الماضي الذي لم يؤرخ في الحضارات القديمة وما آلت إليه وأخذ العبر، أو في الحاضر المستمر، أو في مستقبلٍ لم يأت وعن غيبٍ لم يكشف، ولذلك ففي القرآن الكريم أمورٌ تاريخيةٌ ينبغي التفكير فيها ومنها:

❑ التفكير في قصص الأنبياء:

وردت في القرآن الكريم قصصٌ كثيرةٌ للأنبياء والرسل، فيها دروس وعبر لمن ألقىٰ السمع وهو شهيد، وتفكر فيها واعتبر، وهذه القصص نبراس ونور لمن أراد أن يعيش عيشة سعيدة دائمة في الدنيا والآخرة.

ومن النصوص الواردة في القرآن الكريم حول هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾[يوسف: ١١١]. ففي قصص الرسل والأنبياء عامةً، وفي قصة يوسف عليه السلام خاصةً عبرةٌ للمعتبرين، وعظةٌ للمتعظين، أصحاب العقول النيرة، والبصائر المتفتحة، الذين يتأملون ويفكرون في هذه القصص وكيف أنجا الله الرسل وأتباعهم، وكيف أهلك الكافرين.

يقول السعدي في تفسيره: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم، ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يعتبرون بها، أهل الخير، وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم، ناله ما نالهم من كرامةٍ، أو إهانةٍ، ويعتبرون بها أيضًا، ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له. وقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: ما كان هذا القرآن، الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص، من الأحاديث المفتراة المختلقة، ﴿وَلَٰكِن﴾ كان

تصديق ﴿ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتب السابقة، يوافقها، ويشهد لها بالصحة، ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَىۡءٍ﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين. ﴿وَهُدًى وَرَحۡمَةً لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ فإنهم بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره يحصل لهم الهدىٰ، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل، تحصل لهم الرحمة»(١).

وفي فتح القدير عند قوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِى قَصَصِهِمۡ﴾ أي قصص الرسل ومن بعثوا إليه من الأمم أو في قصص يوسف وإخوته وأبيه ﴿عِبۡرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ والعبرة الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة، وقيل: هي نوعٌ من الاعتبار وهىٰ العبور من الطرف المعلوم إلىٰ الطرف المجهول، وأولو الألباب هم ذوو العقول السليمة الذين يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه مصالح دينهم، وإنما كان هذا القصص عبرةً لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة بين النبي ﷺ وبين الرسل، الذين قص حديثهم ومنهم يوسف وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع علىٰ أخبارهم ولا اتصل بأحبارهم»(٢).

وقصص الرسل والأنبياء من أحسن القصص كما قال تعالىٰ: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾[يوسف: ٣] وحسن هذه القصص نابعٌ من كونها كلام العليم الحكيم، فالعبارات سهلة وسلسة، والمعاني عظيمةٌ ومفيدةٌ، ونظمه حسنٌ، وأسلوبه معجزٌ، والعبر والحكم تُستنبط عند التأمل والتفكر.

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٠٧).

(٢) فتح القدير (٣/ ٦١).

وقصة يوسف ﷺ بالذات: «من أحسن القصص وأوضحها، وأبينها، لما فيها من أنوع التنقلات، من حالٍ إلىٰ حالٍ، ومن محنةٍ إلىٰ منحةٍ، ومن محنةٍ إلىٰ محنةٍ ومنةٍ، ومن ذلٍ إلىٰ عزٍ ومن رقٍ إلىٰ مُلكٍ، ومن فرقةٍ وشتاتٍ، إلىٰ اجتماعٍ وائتلافٍ، ومن حزنٍ إلىٰ سرورٍ، ومن رخاءٍ إلىٰ جدبٍ، ومن جدبٍ إلىٰ رخاءٍ، ومن ضيقٍ إلىٰ سعةٍ، ومن إنكارٍ إلىٰ إقرارٍ، فتبارك من قصها، فأحسنها، ووضحها وبينها»(١).

وسمىٰ الله قصة يوسف ﷺ خاصةً «أحسن القصص»: «لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا، من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر علىٰ أذىٰ الأعداء وحسن التجاوز عنهم بعد الالتقاء وغير ذلك من الفوائد»(٢).

«فأحسن ما يقص من الأنباء هي قصة آل يعقوب ﷺ، ووجه أحسنيتها اشتمالها علىٰ حاسدٍ ومحسودٍ، ومالكٍ ومملوكٍ، وشاهدٍ ومشهودٍ، وعاشقٍ ومعشوقٍ، وحبسٍ وإطلاقٍ، وخصبٍ وجدبٍ، وذنبٍ وعفوٍ، وفراقٍ ووصالٍ، وسقمٍ وصحةٍ ورحلٍ وارتحالٍ وذلٍ وعزٍ، وقد أفادت أنه لا دافع لقضاء الله تعالىٰ ولا مانع من قدره، وأنه سبحانه إذا قضىٰ لإنسان بخيرٍ ومكرمةٍ، فلو أن أهل العالم اجتمعوا علىٰ دفع ذلك لم يقدروا، وأن الحسد سبب الخذلان والنقصان، وأن الصبر مفتاح الفرج، وأن التدبير من العقل وبه يصلح أمر المعاش، إلىٰ غير ذلك مما يعجز عن بيانه بنان التحرير»(٣).

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٠٧).
(٢) تفسير البغوي (٢/ ٤٠٨).
(٣) روح المعاني (١٢/ ١٧٦).

وجعل هذا القَصص أحسن القصص، لأنّ بعض القصص لا يخلو عن حسنٍ ترتاح له النفوس. وقصص القرآن أحسن من قصص غيره من جهة حسن نظمه وإعجاز أسلوبه وبما يتضمّنه من العبر والحكم، فكلّ قصصٍ في القرآن هو أحسن القصص في بابه، وكلّ قصةٍ في القرآن هي أحسن من كلّ ما يقصّه القاصّ في غير القرآن. وليس المراد أحسن قصص القرآن حتىٰ تكون قصّة يوسف عليه السلام أحسن من بقيّة قصص القرآن كما دلّ عليه قوله: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

و«القصص الوارد في القرآن كان أحسن لأنّه وارد من العليم الحكيم، فهو يوحي ما يعلم أنّه أحسن نفعًا للسّامعين في أبدع الألفاظ والتراكيب، فيحصل منه غذاء العقل والروح، وابتهاج النفس والذّوق، ممّا لا تأتي بمثله عقول البشر»[(١)].

وقصص القرآن هو القصص الحق الذي لا شك فيه، فلا مجال فيه لإنكار منكر، ولا لجدال مجادل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٢﴾ [آل عمران: ٦٢]. وليست كل قصص الرسل والأنبياء واردةً في القرآن الكريم، بل هناك قصصٌ لم تُذكر لحكمةٍ يعلمها العليم الحكيم كما قال تعالىٰ: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء:١٦٤]. «وإنَّما ذكر الله تعالىٰ هنا الأنبياء الذين اشتهروا عند بني إسرائيل لأنّ المقصود محاجّتهم، وإنَّما ترك الله أن يقصّ علىٰ النبي ﷺ أسماء كثيرٍ من الرسل للاكتفاء بمن قصّهم عليه؛ لأن المذكورين هم أعظم الرسل والأنبياء قصصًا ذات عبر»[(٢)].

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠٤).

(٢)التحرير والتنوير (٦/ ٣٥).

«وهذا يدل علىٰ كثرتهم، وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم، بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين من عصىٰ الله، وخالفهم بشقاوة الدارين»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [غافر: ٧٨].

ومما ينبغي التفكير فيه، التفكير في قصص المكذبين من الأمم السابقة:

والمتأمل لكتاب الله تعالىٰ يجد أنه ذكر قصصًا للأمم السابقة، وكيف كان موقفهم من الدعوات التي جاءت من عند الله، وكيف تعاملوا مع رسل الله، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وذكر مصير المؤمنين في الدنيا قبل الآخرة، وكذلك مصير الكافرين والمكذبين والمعانين.

وهذه القصص ذكرت لأخذ العظة والعبرة، فالمسلم الواعي يفعل ما فعله السابقون من الاقتداء بالأنبياء ومناصرتهم والوقوف معهم، حتىٰ يسعد في الدنيا والآخرة، ويتجنب ما وقع فيه المكذبون المعاندون حتىٰ لا يصاب بما أصيبوا فيه من العقوبات المتنوعة في الدنيا مع ما أعده الله لهم في الآخرة من الخلود في النار وبئس المصير.

وجاءت آياتٌ عديدةٌ في القرآن الكريم تدعو إلىٰ السير في الأرض، والنظر للاعتبار بأحوال الأمم الماضية، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١١]، وقال تعالىٰ:

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٢١٥).

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم: ٤٢]. والأمر بالسير في الأرض ينقسم إلىٰ قسمين، سير بالأقدام وسير بالقلب. يقول محمد بن عثيمين: «أما السير بالقدم فأن يسير الإنسان في الأرض علىٰ أقدامه أو علىٰ راحلة، وأما السير بالقلب فهذا يكون بالتأمل وبالتفكر في أخبارهم»(١).

فالقرآن الكريم يدعو إلىٰ السير بالقلوب والأقدام للنظر في عاقبة المكذبين، وما حلّ عليهم من العقوبات، بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم للرسل، فيقول تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٠٩]، ففي هذه الآية دعوةٌ إلىٰ السير بالقلوب والأبدان، والنظر بالبصائر والأبصار، لمعرفة العقوبات التي حصلت للأمم المكذبة، ولزيادة اليقين بأن الآخرة خيرٌ من الدنيا وما فيها لمن اتقىٰ الله، وفي هذه الآية دعوةٌ لاستخدام العقل في مثل هذه الأمور. وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩].

وفي هذه الآية دعوةٌ إلىٰ التأمل في مصائر السابقين؛ وهم كغيرهم بشر، وخلقٌ من خلق الله، كانوا أشد قوة وعمارة للأرض ممن خاطبهم القرآن، وسنة الله ماضية في إهلاك المكذبين المعاندين، وسنة الله حقٌ ثابت يقوم عليه هذا الوجود، بلا محاباةٍ لجيلٍ من الناس دون جيل.

والقرآن الكريم يدعو المكذبين المستهزئين بآيات الله أن يسيروا في الأرض فلا

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥٤٨).

ينعزلوا في مكانهم كالقوقعة؛ وأن يتدبروا عاقبة أولئك المكذبين المستهزئين ويتوقعوا مثلها؛ وأن يدركوا أن سنة الله واحدةٌ وأنها لا تحابي أحدًا؛ وأن يوسعوا آفاق تفكيرهم فيدركوا وحدة البشرية، ووحدة الدعوة، ووحدة العاقبة في أجيال البشرية جميعًا، وهذا هو التصور الذي يحرص الإسلام علىٰ أن يطبع به قلب المؤمن وعقله، ويكرر القرآن التذكير حوله كثيرًا.

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤]. وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١]. وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: ٨٢]. وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠].

يقول السعدي: «أي: أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ، ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب، فإنهم لا يلتفتون يمنةً ولا يسرةً إلا وجدوا من كان قبلهم قد بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب والكفر، فخمدوا، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم، وللكافرين في كل زمانٍ ومكانٍ، أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الذميمة، وأما المؤمنون، فإن الله تعالىٰ ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير الثواب. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ

ءَامَنُواْ﴾ [محمد: ١١] فتولاهم برحمته، فأخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، وتولىٰ جزاءهم، ونصرهم. ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [محمد: ١١] بالله تعالىٰ، حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدوا علىٰ أنفسهم رحمته ﴿لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١١] يهديهم إلىٰ سبل السلام، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه، بل أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلىٰ الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»(١).

إذًا فمن مجالات التفكير، التفكير في مصارع الأمم السابقة الوارد ذكرها في القرآن الكريم، كيف كانت حياتهم؟ وماذا كان مصيرهم؟وما سبب هذا المصير؟ قال تعالىٰ: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨﴾ [القصص: ٥٨]. أبادهم الله مع ما وصلوا إليه من قوةٍ وجبروت، نحتوا الجبال، وبنوا القصور، ووضعوا السدود، وما فعلوا ذلك إلا لما أعطاهم الله من بسطةٍ في الجسم والمال، فأهلكهم الله، فأصبحوا عبرةً للمعتبرين، وفي هلاكهم آياتٌ للسائلين، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥﴾ [فصلت: ١٥].

لقد كان مصيرهم ومصير من سار علىٰ دربهم الهلاك والدمار، بسبب كفرهم وتكذيبهم، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ [الفجر: ٦ – ١٤].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٧٨٥– ٧٨٦).

وورد في السنة النبوية النهي عن دخول ديار من أهلكهم الله إلا لمن يبكي ويتفكر فعن عبد اللهِ بن عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «**لا تدخلوا علىٰ هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم**»(١).

قال ابن حجر في فتح الباري: «أي خشية أن يصيبكم، ووجه هذه الخشية أن البكاء يبعثه علىٰ التفكر والاعتبار، فكأنه أمرهم بالتفكر في أحوالٍ تُوجب البكاء من تقدير الله تعالىٰ علىٰ أولئك بالكفر، مع تمكينه لهم في الأرض وإمهالهم مدةً طويلةً، ثم إيقاع نقمته بهم وشدة عذابه وهو سبحانه مقلب القلوب، فلا يأمن المؤمن أن تكون عاقبته إلىٰ مثل ذلك والتفكر أيضًا في مقابلة أولئك نعمة الله بالكفر وإهمالهم إعمال عقولهم فيما يوجب الإيمان به والطاعة له، فمن مر عليهم ولم يتفكر فيما يوجب البكاء اعتبارًا بأحوالهم فقد شابههم في الإهمال ودل علىٰ قساوة قلبه وعدم خشوعه، فلا يأمن أن يجره ذلك إلىٰ العمل بمثل أعمالهم فيصيبه ما أصابهم»(٢).

وقال النووي: «وفيه الحث علىٰ المراقبة عند المرور بديار الظالمين ومواضع العذاب ومثله الإسراع في وادي محسر؛ لأن أصحاب الفيل هلكوا هناك، فينبغي للمار في مثل هذه المواضع المراقبة والخوف والبكاء والاعتبار بهم وبمصارعهم وأن يستعيذ بالله من ذلك»(٣).

---

(١) صحيح البخاري (١/ ١٦٧).
(٢) فتح الباري (١/ ٥٣١).
(٣) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (١٨/ ١١١).

ويقول تعالىٰ مبينًا إهلاك الأمم السابقة المكذبة، وذلك بالدعوة إلىٰ الرؤية البصرية والرؤية القلبية: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٦﴾ [الأنعام:٦]. فهناك قرونٌ سبقت أهل مكة ومن بعدهم، أهلكوا مع أنهم مكنوا في الأرض تمكينًا لم يمكن له أهل مكة، وأعطاهم الله من أسباب القوة والتمكين ما لم تعط قبيلة قريش في مكة وغيرها من القبائل التي وصلتها دعوة الإسلام، فكان الماء ينزل علىٰ من سبقهم من السماء فتحيا به الأرض وينبت الزرع ويخرج العشب، وترعىٰ البهائم، فيفيض عليهم الرزق، وتنتعش النفوس، والأنهار تجري من تحتهم، لكنهم مع ذلك أهلكوا بسبب ذنوبهم، وجاءت بعدهم قرونٌ كثيرةٌ متتابعة، ورثوا الأرض من بعدهم، ومضىٰ من كذب وأذنب بعد هلاكهم، فما أهون المكذبين المعاندين علىٰ الله إذا هم عصوه وخالفوا أمره، حتىٰ ولو كانوا من أصحاب القوة والتمكين، فقوتهم لا تساوي شيئًا أمام قوة الله تعالىٰ، وعظمتهم لا تساوي شيئًا أمام عظمة الله، يهلكهم الله فما تحس بهم الأرض، وكأن أحدًا لم يسكن عليها.

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١﴾ [يس: ٣١]، فأين من يتعظ بمن أهلك الله من الأمم المكذبة للرسل، فلا رجعة لهم لهذه الدنيا مرةً أخرىٰ، ففي هذا عظةٌ وعبرةٌ لمن يتفكر.

«ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة، التي أهلكها الله تعالىٰ وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك، فلم يرجع إلىٰ الدنيا، ولن يرجع إليها، وسيعيد اللّه الجميع خلقًا جديدًا، ويبعثهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالىٰ،

ليحكم بينهم بحكمه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠](١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ۝١٣﴾ [محمد:١٣]. يقول ابن كثير: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ يعني مكة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ وهذا تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوةً من هؤلاء فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأُخرىٰ؟ فإنه رفع عن كثيرٍ منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفر علىٰ الكافرين في معادهم «يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٣٨﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

«أفليس لكم عقولٌ تتدبرون بها وتتفكرون، فتعلمون أن من سلك من عباد الله في الكفر به وتكذيب رسله مسلك هؤلاء الذين وصف صفتهم من قوم لوطٍ نازلٌ بهم من عقوبة الله مثل الذي نزل بهم علىٰ كفرهم بالله وتكذيب رسوله، فيزجركم ذلك عما أنتم عليه من الشرك بالله وتكذيب محمدٍ عليه الصلاة والسلام»(٣).

و«بين تعالىٰ في هذه الآية الكريمة أن فيما أوقع من النكال بقوم لوطٍ آياتٌ

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٦٩٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٦).

(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ٩٧).

للمتأملين في ذلك، تحصل لهم بها الموعظة والاعتبار والخوف من معصية الله أن ينزل بهم مثل ذلك العذاب، الذي أنزل بقوم لوطٍ لما عصوه وكذبوا رسوله، وبين هذا المعنىٰ في مواضع أُخر كقوله في العنكبوت: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٥] وقوله في الذاريات: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾[الذاريات: ٣٧] وقوله هنا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥] وقوله في الشعراء بعد ذكر قصة قوم لوط: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء: ٨]، كما صرح بمثل ذلك في إهلاك قوم نوحٍ وقوم هودٍ وقوم صالحٍ وقوم شعيبٍ في الشعراء»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر: ٧٥ - ٧٧]. أي: «إن في الذي فعلنا بقوم لوطٍ من إهلاكهم وأحللنا بهم من العذاب لعلاماتٍ ودلالاتٍ للمتفرسين المعتبرين بعلامات الله وعبره علىٰ عواقب أمور أهل معاصيه والكفر به.

وإنما يعني تعالىٰ ذكره بذلك قوم نبي الله ﷺ من قريش، يقول: فلقومك يا محمدُ في قوم لوطٍ وما حل بهم من عذاب الله حين كذبوا رسولهم وتمادوا في غيهم وضلالهم معتبر»[2].

و«كل من آمن بالله وصدق الأنبياء والرسل عرف أن ذلك إنما كان لأجل أن الله تعالىٰ انتقم لأنبيائه من أولئك الجهال، أما الذين لا يؤمنون بالله فإنهم يحملونه علىٰ حوادث العالم ووقائعه، وعلىٰ حصول القرانات الكوكبية والاتصالات الفلكية والله أعلم»[3].

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٢٨٦).

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ٤٥).

(٣) التفسير الكبير (١٩/ ١٦٢).

وحين يتأمل ويتفكر الإنسان في العقوبات الإلهية التي وقعت عبر التاريخ، أو التي تقع في الوقت الحاضر يجد أنها بسبب ظلم الناس لأنفسهم بفعل المعاصي ومن أشدها الشرك، أو بظلم بعضهم لبعض بالاعتداء على الأموال أو الأبدان أو الأعراض، ومن أمثلة ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝١٦٠ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١﴾ [النساء: ١٦٠ – ١٦١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ [غافر: ٣٤ – ٣٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾ [القصص: ٥٩]، وقوله تعالىٰ ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين: ١٤].

يقول ابن القيم: «وتأمل حكمة الله تعالىٰ في صرفه الهدىٰ والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه فصدهم عنه كما صدوا عباده صدًا بصد ومنعًا بمنع.

وتأمل حكمته تعالىٰ في محق أموال المرابين وتسليط المتلفات عليها كما فعلوا بأموال الناس، ومحقوها عليهم وأتلفوها بالربا، جوزوا إتلافًا بإتلاف، فقلّ أن ترىٰ مرابيًا إلا وآخرته إلىٰ محقٍ وقلةٍ وحاجة.

وتأمل حكمته تعالىٰ في تسليط العدو علىٰ العباد إذا جار قويهم علىٰ ضعيفهم، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم

وضعفائهم سواء، وهذه سنة الله تعالىٰ منذ قامت الدنيا إلىٰ أن تطوىٰ الأرض ويعيدها كما بدأها»(١).

وقال تعالىٰ: مبينًا هلاك مجموعةٍ من الأمم بأنواع من الهلاك: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ومن الأمور التي ينبغي التفكير فيها، التفكير في مصير الطغاة والمكذبين وما حل بهم من عقوباتٍ إلهية:

فمن أكبر الطغاة عبر التاريخ وممن ورد ذكرهم في القرآن «فرعون»، وفي سورة الأعراف ذكر بعض العقوبات التي حلت به وبقومه، وكانت نهايتهم الإغراق في البحر، حين كذبوا موسىٰ عليه السلام وعصوه فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٥٣- ٢٥٥).

ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠ – ١٣٧]. «وفي هذه الآية تنبيهٌ للأمة للنظر فيما يحيط بها من دلائل غضب الله، فإن سلب النعمة للمُنعَم عليهم تنبيه لهم علىٰ استحقاقهم إعراض الله تعالىٰ عنهم»(١).

يقول الرازي: «لا جرم بدأ ههنا بذكر ما أنزله بفرعون وبقومه من المحن، حالًا بعد حال إلىٰ أن وصل الأمر إلىٰ الهلاك، تنبيهًا للمكلفين علىٰ الزجر عن الكفر، والتمسك بتكذيب الرسل، خوفًا من نزول هذه المحن بهم»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٠ – ٩٢].

والعذاب مستمرٌ علىٰ فرعون ومن كفر معه في البرزخ، ويوم القيامة يكون مصيرهم دخول النار كما قال تعالىٰ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥ – ٤٦].

وممن طغىٰ وتجبر بماله «قارون»، وبُيِّن في سورة القصص قصته وكيف تم

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٦٤).

(٢) التفسير الكبير (١٤/ ١٧٥).

إهلاكه وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: ٧٦ – ٨٣].

وقصة قارون تعرض سلطان المال، وكيف ينتهي هذا السلطان بالبوار مع البطر والاستكبار علىٰ الخلق، وعدم شكر نعمة الخالق وجحودها، وتقرر حقيقة قيمة المال والزينة إلىٰ جانب قيمة الإيمان والصلاح؛ مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علوٍ في الأرض ولا فساد... ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾. هكذا في جملةٍ قصيرة، وفي لمحةٍ سريعة: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ فابتلعته وابتلعت داره، وهوىٰ في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاءً وفاقًا.

يقول السعدي: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ جزاءً من جنس عمله، فكما رفع نفسه علىٰ عباد اللّه، أنزله اللّه أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثاثه، ومتاعه»[(١)].

ومن الطغاة الذين أهلكهم الله «النمروذ» الذي ملك الناس في زمن نبي الله إبراهيم عليه السلام، وذكرت قصته في سورة البقرة حيث قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وذكر بعض المفسرين قصة النمروذ ومنهم صاحب فتح القدير حيث قال: «عن زيد بن أسلم أن أول جبار كان في الأرض نمروذ، وكان الناس يخرجون يمتارون من عنده الطعام، فخرج إبراهيم عليه السلام يمتار مع من يمتار، فإذا مر به ناسٌ قال: من ربكم؟ قالوا: أنت، حتىٰ مر به إبراهيم فقال: من ربك؟ قال: الذي يحيىٰ ويميت، قال: أنا أحيي وأميت، قال: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب. فبُهت الذي كفر فرده بغير طعامٍ، فرجع إبراهيم إلىٰ أهله فمر علىٰ كثيب من رملٍ أصفر فقال: ألا آخذ من هذا فآتي به أهلي فتطيب أنفسهم حين أدخل عليهم؟ فأخذ منه فأتىٰ أهله فوضع متاعه ثم نام، فقامت امرأته إلىٰ متاعه ففتحته، فإذا هي بأجود طعامٍ رآه آخذ، فصنعت له منه فقربته إليه، وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام، فقال: من أين هذا؟ قالت: من الطعام الذي جئت به، فعرف أن الله رزقه، فحمد الله.

ثم بعث الله إلىٰ الجبار ملكًا أن آمِن وأتركك علىٰ ملكك قال: فهل ربٌّ غيري؟

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٦٢٣).

فجاءه الثانية فقال له ذلك، فأبىٰ عليه، ثم أتاه الثالثة فأبىٰ عليه، فقال له الملك: فاجمع جموعك إلىٰ ثلاثة أيام، فجمع الجبار جموعه فأمر الله الملك ففتح عليه بابًا من البعوض وطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها، فبعثها الله عليهم فأكلت شحومهم وشربت دماءهم فلم يبق إلا العظام، والملك كما هو لا يصيبه من ذلك شيءٌ، فبعث الله عليه بعوضةً فدخلت في منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه ثم ضرب بهما رأسه، وكان جبارًا أربعمائة سنة فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ثم أماته الله»[1].

---

(١) فتح القدير (١/ ٢٧٨).



المبحث الرابع
التفكير في الأمثال الدالة على وحدانية الله وقدرته

فكثيرًا ما يضرب القرآن الكريم الأمثال للدلالة علىٰ وحدانيته وقدرته وملكه إلىٰ غير ذلك من أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ وأفعاله العظمىٰ، كما يضربها أحيانًا لإثبات البعث، وللكشف عن حقائق يجب ألا يشك في صدقها عاقل، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزمر: ٢٧]. وهذه الأمثال تأتي أحيانًا مقترنة بالحث علىٰ التفكير، أو تقدير أهل العلم والتفكير، أو بالسخرية من الجهال والأغبياء.

والقرآن الكريم دعا إلى التفكير في الأمثال فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١]. فالأمثال الكثيرة الواردة في القرآن الكريم، تبهر العقول، وتنير البصائر، وتدل السائر، وتريح المحتار، وتأخذ بيد التائه، وهذه الأمثال تضرب لكي يتفكر فيها أصحاب البصائر النيرة، والعقول المستقيمة، فيعملوا بما تقتضيه من توجيهاتٍ حكيمة، وأحكامٍ بليغةٍ، ومواعظٍ سديدةٍ، وإرشاداتٍ نافعة.

وأما تعريف الأمثال: «فالأمثال: جمع مثل، والمثل: الشيء الذي يضرب لشيءٍ مثلًا فيجعل مثله»(١). «والمثل: تشبيه شيءٍ بشيءٍ في حكمه، وتقريب المعقول

---

(١) لسان العرب (١١/ ٦١١).

من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر»(١).

«فالأمثال نموذجات الحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار لتهدي النفوس بما أدركت عيانًا»(٢). «وقال إبراهيم النظام: يجتمع في المثل أربعةٌ لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وأصابه المعنىٰ، وحسن التشبيه، وجودة الكناية؛ فهو نهاية البلاغة»(٣).

وأما فوائد ضرب الأمثال في القرآن الكريم: فمنها: أن الأمثال تكون: «لتقريب المراد وتفهيم المعنىٰ وإيصاله إلىٰ ذهن السامع، وإِحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به، فإنه قد يكون أَقرب إلَىٰ تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره، فإن النفس تأنس بالنظائر والأَشباه الأُنس التَّام وَتَنْفِرُ من الغربة والوحدة وعدم النظير، ففي الأَمثال من تأْنيس النَّفس وسرعة قبولها وانْقيادها لما ضُرِبَ لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحدٌ ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأَمثال ازداد المعنىٰ ظهورًا ووضوحًا فالأَمثال شواهد المعنىٰ المراد ومزكية له فهي ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٩] وهي خاصة العقل ولبه وثمرته»(٤).

«وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمورٌ كثيرة: التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وترتيب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس بحيث

(١) الأمثال في القرآن (١/ ٩)، المؤلف: أبو عبدالله شمس الدين بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي.
(٢) الأمثال من الكتاب والسنة (١/ ١٤)، المؤلف: أبوعبدالله محمد بن علي الحكيم الترمذي.
(٣) مجمع الأمثال (١/ ٦).
(٤) إعلام الموقعين (١/ ٢٣٩-٢٤٠)، المؤلف: ابن قيم الجوزية.

يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلىٰ الحس. وتأتى أمثال القرآن مشتملةً علىٰ بيان تفاوت الأجر، وعلىٰ المدح والذم، وعلىٰ الثواب والعقاب، وعلىٰ تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلىٰ تحقيق أمرٍ وإبطال أمرٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥] فامتن علينا بذلك لما تضمنت هذه الفوائد وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨] وقال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣]... ومن حكمته تعليم البيان، وهو من خصائص هذه الشريعة. والمثل أعون شيءٍ علىٰ البيان... وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود مالا يخفىٰ، إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والشاهد بالغائب، فالمرغب في الإيمان مثلًا إذا مثل له بالنور تأكد في قلبه المقصود، والمزهد في الكفر إذا مثل له بالظلمة تأكد قبحه في نفسه»(١).

قال السعدي «اعلم أن القرآن الكريم احتوىٰ علىٰ أعلىٰ وأكمل وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوىٰ علىٰ أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلىٰ القلوب بأيسر شيءٍ وأوضحه. فمن أنواع تعاليمه العالية: ضرب الأمثال، وهذا النوع يذكره الباري سبحانه في الأمور المهمة، كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحال أهله والأعمال العامة الجليلة، ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة، ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي العين، وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه»(٢).

وضرب الأمثال من الأساليب المؤثرة في النفس البشرية، وهو من أقوىٰ

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٨٦- ٤٨٨)، المؤلف: محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي أبو عبدالله.
(٢) القواعد الحسان في تفسير القرآن (١/ ٦٩)، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

أساليب الإيضاح والبيان في إبراز الحقائق المعقولة في صورة الأمر المحسوس، وذكرت في القرآن الكريم للتذكر والتفكر، والعظة والعلم. «والمقصود من ضرب المثل تقريب الأمر للمخاطب، وترسيخه في ذهنه لتحصل العبرة والعظة من ذلك.

وكل أمثال القرآن عظيمةٌ مؤثرةٌ، تأخذ بالقلوب، وتهز النفوس، وتجسِّد المعاني في صورٍ ماثلةٍ للعيان كأن المرء يحسها ويلمسها بيده»[(١)]. ويقول الشوكاني: «وفي ضرب الأمثال زيادة تذكيرٍ وتفهيمٍ وتصويرٍ للمعاني» [(٢)]. ويقول السعدي: «فإن في ضرب الأمثال تقريبًا للمعاني المعقولة، من الأمثال المحسوسة، ويتبين المعنىٰ الذي أراده الله، غاية البيان، ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته، وحسن تعليمه. فلله أتم الحمد وأكمله وأعمه»[(٣)].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤]. «أي رددنا وكثرنا تصريف الأمثال بعباراتٍ مختلفةٍ، وأساليب متنوعةٍ في هذا القرآن للناس ليهتدوا إلىٰ الحق، ويتعظوا، فعارضوا بالجدل والخصومة. والمثل: هو القول الغريب السائر في الآفاق، وضرب الأمثال كثيرٌ في القرآن جدًا»[(٤)].

وقال الزمخشري: «ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأنٌ ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتىٰ تريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد.

---

(١) خطبة الجمعة ودورها في تربية الأمة (١/ ٢٩ – ٣٠).

(٢) فتح القدير (٣/ ١٠٦).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٤٢٥).

(٤) أضواء البيان (٣/ ٢٩٩).

وفيه تبكيتٌ للخصم الألد، وقمعٌ لسورة الجامح الأبي، ولأمرٍ ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء»[١].

و«المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف علىٰ ماهيته، ويصير الحس مطابقًا للعقل وذلك في نهاية الإيضاح»[٢].

وبين تعالىٰ في موضع من القرآن الكريم «أن الحكمة في ضربه للأمثال أن يتفكر الناس فيها فيفهموا الشيء بنظرة وهو قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١] ونظيره قوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٥] وبين في موضع آخر أن الأمثال لا يعقلها إلا أهل العلم وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣] وبين في موضع آخر أن المثل المضروب بجعله الله سبب هدايةٍ لقومٍ فهموه وسبب ضلالٍ لقومٍ لم يفهموا حكمته وهو قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦] وبين في موضعٍ آخرٍ أنه تعالىٰ لا يستحي أن يضرب مثلًا ما ولو كان المثل المضروب بعوضةً فما فوقها، قيل فما هو أصغر منها؛ لأنه يفوقها في الصغر، وقيل: فما فوقها أي فما هو أكبر منها هو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا

---

(١) الكشاف (١/ ١٠٩).

(٢) التفسير الكبير (٢/ ٦٦).

بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] ولذلك ضرب المثل بالعنكبوت في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١] وضربه بالحمار في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] وضربه بالكلب في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦] إلىٰ غير ذلك والعلم عند الله تعالىٰ»(١).

و«للأمثال واستحضار النظائر شأنًا عظيمًا في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفية إلىٰ النفوس الذاهلة أو المتغافلة، لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس»(٢).

«وفي هذه الأمثال وأشباهها في القرآن عبرٌ ومواعظُ وزواجرُ عظيمةٌ جدًا، لا لبس في الحق معها، إلا أنها لا يعقل معانيها إلا أهل العلم. كما قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]»(٣).

والأمثال أكثر من يستفيد منها العلماء كما قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]. فقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾: «أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم لكونها من الطرق الموضحة للعلوم؛ لأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة فيتضح المعنىٰ

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٢٦٤).
(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٧٩).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٣٠٠).

المطلوب بسببها، فهي مصلحةٌ لعموم الناس لكن ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ﴾ بفهمها وتدبرها وتطبيقها علىٰ ما ضربت له وعقلها في القلب ﴿إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ أي إلا أهل العلم الحقيقي الذين وصل العلم إلىٰ قلوبهم، وهذا مدحٌ للأمثال التي يضربها، وحثٌّ علىٰ تدبرها وتعقلها ومدحٌ لمن يعقلها، وأنه عنوانٌ علىٰ أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين، والسبب في ذلك أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها لاعتناء الله بها وحثه عباده علىٰ تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها، وأما من لم يعقلها مع أهميتها فإن ذلك دليلٌ علىٰ أنه ليس من أهل العلم؛ لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة فعدم معرفته غيرها من بابٍ أولىٰ وأحرىٰ ولهذا أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها»(١).

و«كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون: إن رب محمدٍ يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك، فلذلك قال: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ أي لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها إلا هم؛ لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلىٰ المعاني المحتجبة في الأستار حتىٰ تبرزها وتكشف عنها وتصورها للأفهام كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد»(٢).

قال ابن كثير: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت:٤٣] أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه. وعن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآيةٍ من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأني سمعت الله

(١) تفسير السعدي (١/ ٦٣١).
(٢) الكشاف (٣/ ٤٥٩).

تعالىٰ يقول: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣][١].

وقال الشوكاني: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ﴾ أي يفهمها ويتعقل الأمر الذي ضربناها لأجله ﴿إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ بالله الراسخون في العلم المتدبرون المتفكرون لما يتلىٰ عليهم وما يشاهدونه»[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٥).

(٢) فتح القدير (٤/ ٢٠٤).



المبحث الخامس
التفكير في الأحكام الشرعية وحكمتها

القرآن الكريم يدعو المسلمين إلىٰ التفكر في علل التشريع، والحكمة من وراء التحليل والتحريم، والتفكر كذلك في الفوائد المترتبة لتطبيق الحدود الشرعية. و«القرآن يدعو إلىٰ تدبر آيات الله في الكون، وفي حكمة التشريع ليهتدي إلىٰ الحق ويعمل بمقتضاه»[(١)].

والمتتبع لبعض نصوص الأحكام الشرعية يجد أنها مقرونةٌ بالتفكير في أسرارها، وفي آثارها وحكمتها، وهي دعوةٌ للناس ليعرفوا فضل الله عليهم، وليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، وليسارعوا لتطبيق أوامر الله واجتناب نواهيه. و «عُني القرآن بإيقاظ العقل البشري لتدبر بعض آيات التشريع، وفهمها، ووعيها، حتىٰ يستطيع تطبيقها علىٰ خير وجه ومصلحة أريدت بالعباد في معاشهم ومعادهم وهم في ذلك درجاتٌ لا يحصيها إلا الله»[(٢)].

وهذا المبحث يتناول التفكير في الأحكام الشرعية وحكمتها، والشرائع فرضت لتحقيق العبودية لله وحده، ومع ذلك فإن للشرائع حِكَمًا وفوائد عدةً يخفىٰ علينا الكثير منها، ونعرف الشيء اليسير عند التأمل والتفكير في النصوص الواردة في ذلك.

---

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ص ١٠٦.

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٥).

وهذه الفوائد منها ما هو دنيويٌ ومنها ما هو أخرويٌ، ومنها ما هو دنيويٌ وأخرويٌ معًا، ومنها ما هو نافعٌ للفرد، ومنها ما هو نافعٌ للمجتمع، ومنها ما هو نافعٌ للفرد والمجتمع معًا، ونحن ملزمون بفعل الأوامر الواجبة، وترك النواهي المحرمة ولو لم نعرف الحكم والفوائد منها، لكن لمعرفة الحكم والفوائد أثرًا في التطبيق.

يقول عبد القادر عودة: «وأحكام القرآن علىٰ تنوعها وتعددها أنزلت بقصد إسعاد الناس في الدنيا والآخرة، ومن ثم كان لكل عملٍ دنيويٍ وجهٌ أخروي، فالفعل التعبدي أو المدني أو الجنائي أو الدستوري أو الدولي له أثره المترتب عليه في الدنيا من أداء الواجب، أو إفادة الحل والملك أو إنشاء الحق أو زواله، أو توقيع العقوبة، أو ترتيب المسئولية... إلخ ولكن هذا الفعل الذي يترتب عليه أثره في الدنيا له أثرٌ آخر مترتبٌ عليه في الآخرة، وهو المثوبة أو العقوبة الأخروية، وينبني علىٰ كون الشريعة مقصودًا بها إسعاد الناس في الدنيا والآخرة أن يعتبر وحدةً لا تقبل التجزئة، أو جملةً لا تقبل الانفصال؛ لأن أخذ بعضها دون بعض لا يؤدي إلىٰ تحقيق الغرض منها»(١).

ويقول عبدالرحمن الدوسري: «فإن لم يكن البشر واعين لحكمة التشريع الإلهي وثمراته في الدنيا قبل الآخرة، فإنهم لن يطبقوه علىٰ تمامه، أو علىٰ الوجه الصحيح»(٢).

ومن الأمور التي ينبغي التفكير فيها:

❑ أولًا: التفكير في حِكَم الوضوء وفوائده:

فللوضوء حكمٌ وفوائد، ولذلك أمر الله عباده بالوضوء عند بعض العبادات وخاصةً الصلاة كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ

(١) التشريع الجنائي في الإسلام (١/ ١٧٩ – ١٨٠).

(٢) صفوة الآثار والمفاهيم (٣/ ٨٤)، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد الدوسري.

وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ [المائدة: ٦]. وللوضوء فوائد عدة تتبين لمن يمعن النظر فيه، فديننا دين النظافة عمومًا، والوضوء يركز على الأعضاء الظاهرة من جسم الإنسان، الوجه ومنه الفم والأنف، واليدان، والرأس ومنه الأذنان، والرجلان، وهذه الأعضاء هي التي تتعرض للميكروبات المتنوعة، ولذلك شرع الوضوء تحقيقًا للعبودية، ولحصول الطهارة النفسية بأمثال أمر الله، وتكفير الذنوب الحاصلة من هذه الأعضاء، والطهارة الحسية بتنظيف الأعضاء الظاهرة من جسم الإنسان، حتى لا تتضرر بالميكروبات الواقعة عليها.

«فقوله: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنّ من حكمة الأمر بالغسل والوضوء التطهير وهو تطهيرٌ حسّيٌ لأنّه تنظيف، وتطهيرٌ نفسيٌ جعله الله فيه لمّا جعله عبادة؛ فإنّ العبادات كلّها مشتملةٌ على عدّة أسرارٍ: منها ما تهتدي إليه الأفهام ونعبر عنها بالحكمة؛ ومنها ما لا يعلمه إلاّ الله، ككون الظهر أربع ركعات، فإذا ذُكرت حكمٌ للعبادات فليس المراد أنّ الحكمَ منحصرةً فيما علمناه وإنّما هو بعض من كلّ وظنّ لا يبلغ منتهى العلم»(١).

إن الصلاة لقاءٌ مع الله، ووقوفٌ بين يديه - سبحانه - ودعاءٌ مرفوعٌ إليه، ونجوى وإسرارٌ، فلا بد لهذا الموقف من استعداد، لا بد من تطهرٍ جسدي يصاحبه تهيؤٌ روحي.

(١) التحرير والتنوير (٦/ ١٣٢).

فليس الوضوء والغسل مجرد تنظيف للجسد، إنما هي نظافة الجسم وطهارة الروح في عملٍ واحد؛ وفي عبادةٍ واحدةٍ يتوجه بها المؤمن إلىٰ ربه، وجانب التطهر الروحي أقوىٰ؛ لأنه عند تعذر استخدام الماء يستعاض بالتيمم، الذي لا يحقق إلا هذا الشطر الأقوىٰ، وذلك كله فضلًا علىٰ أن هذا الدين منهجٌ عامٌ ليواجه جميع الحالات، وجميع البيئات، وجميع الأطور، بنظامٍ واحدٍ ثابتٍ فتتحقق حكمته في جميع الحالات والبيئات والأطوار؛ في صورةٍ من الصور، بمعنىٰ من المعاني ولا تبطل هذه الحكمة أو تتخلف في أية حال.

فلنحاول أن نتفهم أسرار هذه العقيدة قبل أن نفتي فيها بغير علمٍ ولا هدًىٰ ولا كتابٍ منيرٍ، ولنحاول أن نكون أكثر أدبًا مع الله؛ فيما نعلم وفيما لا نعلم علىٰ السواء.

ويقول ابن القيم مبينًا فوائد الوضوء في تكفير الذنوب، وتنظيف أعضاء الوضوء: «فتأمل محاسن الوضوء بين يدي الصلاة وما تضمنه من النظافة والنزاهة ومجانبة الأوساخ والمستقذرات، وتأمل كيف وضع علىٰ الأعضاء الأربعة التي هي آلة البطش والمشي ومجمع الحواس التي تعلق أكثر الذنوب والخطايا بها، ولهذا خصها النبي ﷺ بالذكر في قوله: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ المَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّىٰ وَتَشْتَهِي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ**»[(١)]، وفي لفظ: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ لَهُ حَظُّهُ مِنَ الزِّنَا، فَزِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا الْيَدَيْنِ الْبَطْشُ، وَزِنَا الرِّجْلَيْنِ الْمَشْيُ، وَزِنَا الْفَمِ الْقُبَلُ، وَالْقَلْبُ يَهْوَىٰ وَيَتَمَنَّىٰ، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ الْفَرْجُ**»[(٢)]، فلما كانت هذه الأعضاء هي أكثر

---

(١) أخرجه البخاري (ح٦٢٤٣)، ومسلم (ح٢٦٥٧) عن أَبي هُرَيْرَةَ.

(٢) رواه أحمد (ح١٠٩٢٠).

الأعضاء مباشرةً للمعاصي، كان وسخ الذنوب ألصق بها وأعلق من غيرها، فشرع أحكم الحاكمين الوضوء عليها ليتضمن نظافتها وطهارتها من الأوساخ الحسية وأوساخ الذنوب والمعاصي، وقد أشار النبي إلىٰ هذا المعنىٰ بقوله: «**مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوضوءَ، خَرَجَت خَطَايَاهُ مِنْ جسَدِهِ حتَّىٰ تَخْرُجَ مِنْ تحتِ أَظفارِهِ**» رواه مسلم من حديث عثمان بن عفان، وفي رواية له: عن أبي هريرةَ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إذا تَوَضَّأَ العبدُ المُسلِم أَوِ المؤْمِنُ فَغَسل وجهَهُ خَرجَ مِنْ وَجهِهِ كلُّ خطِيئَة نَظَر إلَيْهَا بِعيْنيْهِ مَعَ الماءِ أَوْ معَ آخرِ قَطْرِ الماءِ، فَإذا غَسل يديهِ، خَرج مِنْ يديهِ كُلُّ خَطيئَةٍ كانَ بطَشَتْهَا يداهُ مَعَ المَاءِ أَوْ مَعَ آخِر قَطْرِ الماءِ، فَإذا غَسلَ رِجَليْهِ، خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتها رِجلاه مَعَ الماءِ أَوْ مَع آخرِ قَطرِ الماءِ، حَتَّىٰ يخرُجَ نَقِيًّا مِن الذُّنُوبِ**».

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين ورحمته أن شرع الوضوء علىٰ هذه الأعضاء التي هي أكثر الأعضاء مباشرةً للمعاصي، وهي الأعضاء الظاهرة البارزة للغبار والوسخ أيضًا، وهي أسهل الأعضاء غسلًا فلا يشق تكرار غسلها في اليوم والليلة، فكانت الحكمة الباهرة في شرع الوضوء عليها دون سائر الأعضاء»(١).

ويقول أيضًا: «فكم في الطهارة من حكمةٍ ومنفعةٍ للقلب والبدن، وتفريحٍ للقلب، وتنشيطٍ للجوارح، وتخفيفٍ من أحمال ما أوجبته الطبيعة وألقاه عز النفس من درن المخالفات، فهي منظفة للقلب والروح والبدن»(٢).

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣ - ٢٤).

(٢) شفاء العليل (١/ ٢٢٨)، المؤلف: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي.



❑ ثانيًا: التفكير في حِكَم الصلاة وفوائدها:

ولقد تحدث العلماء قديمًا وحديثًا عن حِكم وفوائد الصلاة، فمنهم من ركز علىٰ الفوائد الروحية، مبينًا أثر الصلاة في تحقيق العبودية لله، وزيادة الإيمان، والراحة والطمأنينة عند أدائها، وبعد أدائها، ومنهم من بين أثر الصلاة في تعويد المسلمين علىٰ الانضباط والسمع والطاعة، وحسن المتابعة للإمام، ومنهم من بين أثرها في الترابط والتكافل الاجتماعي في لقاء المصلين خمس مراتٍ في اليوم والليلة، ومنهم من تكلم عن فوائدها من الناحية الرياضية في الحركات التي تكون أثناء الصلاة، وتتبين هذه الأمور وغيرها لمن يفكر في حِكم الصلاة وفوائدها.

يقول ابن القيم مبينًا بعضًا من فوائد الصلاة: «ويكفي العاقل البصير الحي القلب، فكرةٌ في فرع واحد من فروع الأمر والنهي، وهو الصلاة، وما اشتملت عليه من الحكم الباهرة والمصالح الباطنة والظاهرة، والمنافع المتصلة بالقلب والروح والبدن والقوىٰ، التي لو اجتمع حكماء العالم قاطبةً، واستفرغوا قواهم وأذهانهم لما أحاطوا بتفاصيل حكمها وأسرارها وغاياتها المحمودة، بل انقطعوا كلهم دون أسرار الفاتحة وما فيها من المعارف الإلهية، والحكم الربانية، والعلوم النافعة، والتوحيد التام، والثناء علىٰ الله بأصول أسمائه وصفاته، وذكر أقسام الخلقة باعتبار غاياتهم ووسائلهم، فإن منزلة الصلاة من القلب منزلة الغذاء والدواء، فإذا تناول الجائع الشديد الجوع من اللقمة أو اللقمتين كان غناؤها عنه وسدها من جوعه يسيرًا جدًا، وكذلك المرض الذي يحتاج إلىٰ قدرٍ يغني من الدواء إذا أخذ منه المريض قيراطًا من ذلك لم يزل مرضه بالكلية وأزال بحسبه، فما حصل الغذاء أو الشفاء للقلب بمثل الصلاة وهي لصحته ودوائه بمنزلة غذاء البدن ودوائه»(١).

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٢٧- ٢٢٩).

والمتتبع للنصوص الواردة في الصلاة والمتفكر فيها يجد أن لها آثارًا حميدة، ومنافع عديدة في الدنيا والآخرة، علىٰ الأفراد والمجتمعات، ومن ذلك ما يلي:

أولًا: للصلاة التي يؤديها المسلم كما ينبغي أثرًا كبيرًا في تكفير السيئات وعدم العقوبة عليها في الدنيا والآخرة، كما أن لها أثرًا في حجز المسلم عن الوقوع في السيئات والإقدام عليها كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤] فبعد أن أمر الله تعالىٰ في الآية السابقة لهذه الآية بالاستقامة وترك الطغيان، ونهىٰ عن الركون إلىٰ الظالمين بقوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٢ – ١١٣]، دل عباده المؤمنين إلىٰ ما يعينهم علىٰ ذلك فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤]، فالمحافظة علىٰ الصلوات الخمس، والتي هي من أكبر الحسنات، وغيرها من الأعمال الصالحة، تذهب العقوبات المترتبة علىٰ فعل السيئات في الدنيا والآخرة، كذلك لفعل الحسنات والمواظبة عليها أثرٌ في البعد عن السيئات وعدم فعلها، كما قال ابن عاشور في تفسيره: «وإذهاب السيّئات يشمل إذهاب وقوعها بأن يصير انسياق النّفس إلىٰ ترك السيّئات سَهْلًا وهيّنًا كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ويكون هذا من خصائص الحسنات كلّها، ويشمل أيضًا محو إثمها إذا وقعت، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلّها فضلًا من الله علىٰ عباده الصالحين»(١).

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٨٠).

وورد عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا أصاب من امرأة قبلةً فأتىٰ النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: ١١٤] فقال الرجل: ألي هذا؟ قال: «**لجميع أمتي كلهم**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أرأيتم لو أن نهرًا ببابِ أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقىٰ من درنه شيءٌ؟**» قالوا: لا يبقىٰ من درنه شيءٌ. قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا**»(٢).

وعن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من امرئٍ مسلمٍ تحضره صلاةٌ مكتوبةٌ فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارةً لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرةٌ وذلك الدهر كله**»(٣).

ثانيًا: لأداء الصلاة كما ينبغي أثرٌ في نهي المسلم عن الفواحش والمنكرات، فكلما واظب المسلم عليها مع جماعة المسلمين في المسجد، وحرص علىٰ إتمام وضوئها، والعناية بقيامها وركوعها وسجودها والقراءة فيها، مع التركيز علىٰ الإخلاص لله، والخشوع وتدبر الآيات التي تتلىٰ والأذكار التي تقرأ، كان لها الأثر الكبير في النهي عما لا يليق كما قال تعالىٰ: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾ [العنكبوت: ٤٥]. «وعن ابن عباس : من لم تأمره صلاته

---

(١) صحيح البخاري (ح٥٠٣).
(٢) صحيح البخاري (ح ٥٠٥).
(٣) صحيح مسلم (ح ٢٢٨).

بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بُعدًا. وعن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، فليست صلاته بصلاة، وهي وبالٌ عليه. وقيل: من كان مراعيًا للصلاة جرّه ذلك إلىٰ أن ينتهي عن السيئات يومًا ما»(١).

«وعن أبي العالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ قال: الصلاة فيها ثلاث خلال: الإخلاص والخشية وذكر الله، فكل صلاةٍ ليس فيها من هذه الخلال فليست بصلاة، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه»(٢).

وقال السعدي: «ووجه كون الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر: أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها، وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوىٰ رغبته في الخير، وتقل أو تنعدم رغبته في الشر، فبالضرورة مداومتها والمحافظة عليها علىٰ هذا الوجه تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر. فهذا من أعظم مقاصد الصلاة وثمراتها، وثم في الصلاة مقصودٌ أعظم من هذا وأكبر وهو: ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب، واللسان، والبدن، فإن الله تعالىٰ، إنما خلق العباد لعبادته، وأفضل عبادةٍ تقع منهم الصلاة. وفيها من عبوديات الجوارح كلها ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾(٣).

و«الصلاة تشتمل علىٰ مذكِّراتٍ بالله من أقوالٍ وأفعالٍ من شأنها أن تكون للمصلي كالواعظ المذكر بالله تعالىٰ، إذ ينهىٰ سامعه عن ارتكاب ما لا يرضي الله... ففي الصلاة

---

(١) الكشاف (٣/ ٤٦٠).

(٢) الدر المنثور (٦/ ٤٦٤)، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي.

(٣) تفسير السعدي (١/ ٦٣٢).

من الأقوال تكبيرٌ لله وتحميده وتسبيحه والتوجيه إليه بالدعاء والاستغفار وقراءة فاتحة الكتاب المشتملة علىٰ التحميد والثناء علىٰ الله، والاعتراف بالعبودية له، وطلب الإعانة والهداية منه واجتناب ما يغضبه وما هو ضلال، وكلها تذكر بالتعرض إلىٰ مرضاة الله والإقلاع عن عصيانه وما يفضي إلىٰ غضبه فذلك صدٌ عن الفحشاء والمنكر.

وفي الصلاة أفعالٌ هي خضوعٌ وتذللٌ لله تعالىٰ من قيامٍ وركوعٍ وسجودٍ، وذلك يذكر بلزوم اجتلاب مرضاته والتباعد عن سخطه، وكل ذلك مما يصد عن الفحشاء والمنكر.

وفي الصلاة أعمالٌ قلبيةٌ من نيةٍ واستعدادٍ للوقوف بين يدي الله، وذلك يُذكِّر بأن المعبود جديرٌ بأن تُمتثل أوامره وتُجتنب نواهيه، فكانت الصلاة بمجموعها كالواعظ الناهي عن الفحشاء والمنكر... ثم الناس في الانتهاء متفاوتون، وهذا المعنىٰ من النهي عن الفحشاء والمنكر هو من حكمة جعل الصلوات موزعةً علىٰ أوقاتٍ من النهار والليل، ليتجدد التذكير وتتعاقب المواعظ، وبمقدار تكرر ذلك تزداد خواطر التقوىٰ في النفوس وتتباعد النفس من العصيان حتىٰ تصير التقوىٰ ملكةً لها، ووراء ذلك خاصيةٌ إلهيةٌ جعلها الله في الصلاة يكون بها تيسير الانتهاء عن الفحشاء والمنكر»(١).

«وإقامة الصلاة تتمثل في الإخلاص فيها لله تعالىٰ أولًا، ثم بطهارة القلب من الالتفات إلىٰ غير الرب تعالىٰ أثناء أدائها ثانيًا، ثم بأدائها في أوقاتها المحددة لها وفي المساجد بيوت الله، ومع جماعة المسلمين عباد الله وأوليائه، ثم بمراعاة أركانها من قراءة الفاتحة والركوع والطمأنينة فيه، والاعتدال والطمأنينة فيه، والسجود علىٰ الجبهة والأنف والطمأنينة فيه، وآخر أركانها الخشوع وهو السكون ولين القلب

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٦٠)، مصدر سابق.

وذرف الدمع. هذه هي الصلاة التي توجِد طاقة النور التي تحول دون الانغماس في الشهوات والذنوب وإتيان الفاحشة وارتكاب المنكر»[(١)].

فالصلاة المصحوبة بالإخلاص والخشوع مع إتمام سننها وآدابها، لابد أن تنهىٰ صاحبها عن الفحشاء والمنكر، فإن حصل خلاف ذلك بأن وُجِد مُصلٍ يفعل المعاصي فالعلة في المصلي لا في الصلاة، فصلاته قد تكون عادةٌ لا عبادة، مفقودٌ منها الإخلاص والخشوع، مفرطٌ في وضوئها وسننها وآدابها، ومع ذلك لو استمر بالمواظبة عليها فلعلها تنهاه في يومٍ من الأيام ببركة مداومته عليها.

ثالثًا: لعدم الانشغال بطلب الرزق عن أداء الصلاة والصبر عليها أثرًا في رزق المسلم، كما أن لها أثرًا في العاقبة الحسنة علىٰ من يؤديها في الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه: ١٣٢]. يقول الزمخشري عند قوله: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾: أي: وأقبل أنت مع أهلك علىٰ عبادة الله والصلاة؛ واستعينوا بها علىٰ خصاصتكم؛ ولا تهتم بأمر الرزق والمعيشة، فإنّ رزقك مكفي من عندنا، ونحن رازقوك ولا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ففرّغ بالك لأمر الآخرة. وفي معناه قول الناس: من دان -ذُل- في عمل الله كان الله في عمله، وعن عروة ابن الزبير أنه كان إذا رأىٰ ما عند السلاطين قرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ [طه: ١٣١] ثم ينادي الصلاة الصلاة رحمكم الله، وعن بكر بن عبد الله المزني كان إذا أصابت أهله خصاصةٌ قال: قوموا فصلوا بهذا أمر الله رسوله، ثم يتلو هذه الآية»[(٢)].

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٢٠٩).

(٢) الكشاف (٣/ ٩٩).

رابعًا: للصلاة أثرٌ في حياة المسلم، إذا ادلهمت عليه الكروب، ونزلت عليه البلايا والخطوب، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣]، فهاهو ذا النبي ﷺ إذا نزل به أمرٌ مهمٌ، أو أصابه غمٌ، فزع إلىٰ الصلاة، كما ورد عن حذيفة رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا حزبَهُ أمرٌ فزع إلىٰ الصلاة»[(١)]، وعن عبد الله بن محمد بن الحنفية قال: دخلت مع أبي علىٰ صهرٍ لنا من الأنصار فحضرت الصلاة فقال: يا جارية ائتيني بوضوء لعلي أصلي فاستريح، فرآنا أنكرنا ذاك عليه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قم يا بلال فأرحنا بالصلاة**»[(٢)].

«وأمر تعالىٰ بالاستعانة بالصلاة؛ لأن الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاةً كاملةً مجتمعًا فيها ما يلزم فيها وما يسن وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله علىٰ ربه، ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضرًا لكل ما يقوله وما يفعله مستغرقًا بمناجاة ربه ودعائه، لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة علىٰ جميع الأمور»[(٣)].

فلا بد للإنسان المسكين الضعيف المحدود القدرة أن يتصل بالله القوي العزيز، يستمد منه العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة، حينما تواجهه قوىٰ الشر.

حينما يجد صعوبة في الاستقامة علىٰ الطريق المستقيم، وحينما تثقل عليه

---

(١) رواه أبو داود في سننه (ح ١٣١٩). وحسنه الألباني.

(٢) مسند أحمد بن حنبل (٥/ ٣٧١)، (ح ٢٣٢٠٢).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٧٥).

مجاهدة الشيطان وأعوانه، حينما يطول به الطريق إلىٰ الله وتبعد به الشقة في عمره المحدود، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئًا وقد أوشك علىٰ الرحيل، ولم ينل شيئًا مما يقربه للفردوس الأعلىٰ وشمس العمر تميل للغروب.

عندها تعرف قيمة الصلاة.. فهي الصلة المباشرة بين الإنسان وبين ربه، وهي الموعد المختار لالتقاء الإنسان الضعيف بالرب القوي، وهي مفتاح الكنز الذي يغني ويريح، والصلاة هي الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلىٰ مجال الواقع الكوني الفسيح الكبير، وهي اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود.. ومن هنا كان رسول الله ﷺ إذا كان في الشدة قال: «أرحنا بها يا بلال» ويكثر من الصلاة إذا حزبه أمرٌ ليكثر من اللقاء بالله.

إن هذا المنهج الإسلامي منهج عبادة، والعبادة فيه ذات أسرار. ومن أسرارها أنها زاد الطريق إلىٰ الله والدار الآخرة، وأنها مدد الروح للطمأنينة والراحة، وأنها جلاء القلب من الحزن والخوف.

خامسًا: للصلاة أثرٌ في عدم الحزن علىٰ ما يفوت من محبوباتٍ، أو الخوف من كل مكروهٍ آت، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾ [البقرة: ٢٧٧].

فمن تحقق فيه الإيمان والعمل الصالح، وحرص علىٰ إقامة الصلاة ظاهرًا وباطنًا، وقام بأداء فريضة الزكاة، فأجره محفوظ عند ربه، ولا خوف عليه من مكروهٍ يأتي، سواءً في الدنيا أو في الآخرة، ولا يحزن علىٰ محبوب فات سواءً في الدنيا أو في الآخرة، إن الله - سبحانه - يعد الذين يقيمون حياتهم علىٰ الإيمان والصلاح والعبادة والتعاون، أن يحتفظ لهم بأجرهم عنده، ويعدهم بالأمن فلا يخافون وبالسعادة فلا يحزنون.

❑ ثالثًا: التفكير في حِكَم وفوائد الزكاة:

المتتبع للنصوص الواردة في الزكاة يجد أن لها فوائد عديدةً، من أهمها تحقيق العبودية لله وحده، ومنها أنها تطهر النفوس من رذائل الشح والبخل والطمع، ومن المعاصي والذنوب، وتزكي القلوب من الأخلاق الذميمة، والعادات القبيحة، ويكون بدلًا عنها الأخلاق الحسنة، والعادات الطيبة، وتنمي الأموال والحسنات.

والطهارة والتزكية تكون بقدر الإخلاص والمتابعة للسنة، والفرح والسخاء بإخراج المال في مصالح الأمة الإسلامية.

فالزكاة تطهر النفوس وتزكي القلوب كما قال تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال السعدي: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ وهي الزكاة المفروضة، ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة. «وتزكيهم» أي: تنميهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم»[(١)].

وللزكاة أثرٌ في حصول البر في النفوس كما قال تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٩٢]. و«هذا حث من الله لعباده على الإنفاق في طرق الخيرات، فقال: ﴿لَن تَنَالُوا۟﴾ أي: تدركوا وتبلغوا البر الذي هو كل خيرٍ من أنواع الطاعات وأنواع المثوبات الموصل لصاحبه إلىٰ الجنة، ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: من أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنكم إذا قدمتم محبة الله علىٰ محبة الأموال فبذلتموها في مرضاته، دل ذلك علىٰ إيمانكم

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٥٠).

الصادق وبر قلوبكم ويقين تقواكم، فيدخل في ذلك إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المنفق إلىٰ ما أنفقه، والإنفاق في حال الصحة، ودلت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحبوبات يكون بره، وأنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك، ولما كان الإنفاق علىٰ أي وجهٍ كان مثابًا عليه العبد، سواء كان قليلًا أو كثيرًا، محبوبًا للنفس أم لا، وكان قوله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ مما يوهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع، احترز تعالىٰ عن هذا الوهم بقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ فلا يضيق عليكم، بل يثيبكم عليه علىٰ حسب نياتكم ونفعه»(١).

❑ رابعًا: التفكير في حِكَم وفوائد الصيام:

لقد تحدث العلماء قديمًا وحديثًا عن حِكم وفوائد الصيام، فبيّن البعض أثر الصيام في زيادة الإيمان، وتحقيق العبودية لله، وصفاء القلب ورقته، كما تحدث البعض عن فوائده الصحية والاجتماعية والاقتصادية، وتتبين هذه الأمور لمن يفكر في حِكم الصيام وفوائده.

ووردت الآيات الآمرة بالصيام في سورة البقرة، وفيها بيان لأهم حِكَمة فيه وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣]. ففي الصيام «زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة... وفيه تزكيةٌ للبدن، وتضييقٌ لمسالك الشيطان»(٢).

و«الصيام من أكبر أسباب التقوىٰ لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه، فمما

---

(١) تفسير السعدي (١/ ١٣٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٤).

اشتمل عليه من التقوىٰ: أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها التي تميل إليها نفسه، متقربًا بذلك إلىٰ الله، راجيًا بتركها ثوابه فهذا من التقوىٰ. ومنها: أن الصائم يدرب نفسه علىٰ مراقبة الله تعالىٰ فيترك ما تهوىٰ نفسه مع قدرته عليه لعلمه باطلاع الله عليه. ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان فإنه يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم فبالصيام يضعف نفوذه وتقل منه المعاصي. ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته والطاعات من خصال التقوىٰ. ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين وهذا من خصال التقوىٰ»(١).

و«حكم الصيام حكمٌ عظيمٌ من الأحكام التي شرعها الله تعالىٰ للأمة، وهو من العبادات الرامية إلىٰ تزكية النفس ورياضتها، وفي ذلك صلاح حال الأفراد فردًا فردًا... والتقوىٰ الشرعية هي اتقاء المعاصي، وإنما كان الصيام موجبًا لاتقاء المعاصي؛ لأن المعاصي قسمان، قسمٌ ينجع في تركه التفكر كالخمر والميسر والسرقة والغصْب فتركُه يحصل بالوعد علىٰ تركه والوعيد علىٰ فعله والموعظة بأحوال الغير، وقسمٌ ينشأ من دواعٍ طبيعية كالأمور الناشئة عن الغضب وعن الشهوة الطبيعية التي قد يصعب تركها بمجرد التفكر، فجعل الصيام وسيلةً لاتقائها؛ لأنه يُعَدِّل القوىٰ الطبيعية التي هي داعيةٌ تلك المعاصي، ليرتقي المسلم به عن حضيض الانغماس في المادة إلىٰ أَوج العالَم الرُّوحاني، فهو وسيلةٌ للارتياض بالصفات الملكية والانتفاض من غبار الكدرات الحيوانية»(٢).

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٨٦).

(٢)التحرير والتنوير (٢/ ١٥٨).

و«الصيام وسيلةٌ فعالةٌ لتربية الإرادة الحرة: حيث لا توجد عبادةٌ من العبادات تكف المسلم عن شهواته وملذاته مدةً متصلةً من الزمان كهذه العبادة، فهي تدريبٌ لإرادة المسلم علىٰ مقاومة الأهواء والملذات ومغريات الحياة. والمتأمل فيما يتفاوت فيه الناس في هذا الوجود يجد أن محور التفاوت هو الإرادة لا القدرة، فالقدرات الفطرية لدىٰ الناس متقاربةٌ، لكن تفاوتهم الأساس يكون في مدىٰ صلابة الإرادة التي تُسخّر القدرة وتوجهها والتي تعين علىٰ ضبط الوقت، وتكبح جماح الهوىٰ والركون إلىٰ الدعة وسفاسف الأمور، ومن هنا فإن الصيام جاء لينمي تلك الإرادة وليُعَودها التوجه إلىٰ الخير ومقاومة نزوات النفس؛ ولذا فإن تفريط المسلم في أداء هذه الشعيرة صار لدىٰ العامة من المسلمين مؤشرًا إلىٰ نقص في رجولته»[(١)].

«وأما الصوم فناهيك به من عبادة تكف النفس عن شهواتها وتخرجها عن شبه البهائم إلىٰ شبه الملائكة المقربين، فإن النفس إذا خليت ودواعي شهواتها التحقت بعالم البهائم، فإذا كفت شهواتها لله ضيقت مجاري الشيطان وصارت قريبةً من الله بترك عادتها وشهواتها محبةً له وإيثارًا لمرضاته وتقربًا إليه، فيدع الصائم أحب الأشياء إليه وأعظمها لصوقًا بنفسه من الطعام والشراب والجماع من أجل ربه، فهو عبادةٌ ولا تتصور حقيقتها إلا بترك الشهوة لله فالصائم يدع طعامه وشرابه وشهواته من أجل ربه.. وبالجملة فعون الصوم علىٰ تقوىٰ الله أمرٌ مشهور فما استعان أحدٌ علىٰ تقوىٰ الله وحفظ حدوده واجتناب محارمه بمثل الصوم، فهو شاهدٌ لمن شرعه وأمر به بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، وأنه إنما شرعه إحسانًا إلىٰ عباده ورحمةً بهم ولطفًا بهم لا بخلًا عليهم برزقه، ولا مجرد تكليفٍ وتعذيبٍ خالٍ من

(١)مجلة البيان العدد ٧٣، فبراير ١٩٩٤، ص ٨.

الحكمة والمصلحة، بل هو غاية الحكمة والرحمة والمصلحة وإن شرع هذه العبادات لهم من تمام نعمته عليهم ورحمته بهم»[(١)].

«والصوم يورث التقوىٰ لما فيه من انكسار الشهوة وانقماع الهوىٰ، فإنه يردع عن الأشر والبطر والفواحش ويهون لذات الدنيا ورياستها، وذلك لأن الصوم يكسر شهوة البطن والفرج، وإنما يسعىٰ الناس لهذين، كما قيل في المثل السائر: المرء يسعىٰ لعارية بطنه وفرجه؛ فمن أكثر الصوم هان عليه أمر هذين وخفت عليه مؤنتهما، فكان ذلك رادعًا له عن ارتكاب المحارم والفواحش»[(٢)].

والصوم «من أقوىٰ العبادات علىٰ تهذيب النفوس والسمو بالأرواح، إذ فيه إعدادٌ للنفوس، وتهيئةٌ لها علىٰ تقوىٰ الله ومراقبته، وفيه تربيةٌ لقوة الإرادة علىٰ كبح جماح الشهوات وأنانية النفوس، ليقوىٰ صاحبها علىٰ ترك مألوفاته أكلًا أوشربًا أو متاعًا، فيكون قوي الإرادة في الصبر عما حرم الله وما يضره في بدنه أو ماله، وقوي الإرادة في الإقدام علىٰ امتثال أوامر الله التي من أعظمها حمل الرسالة المحمدية والدفع بها إلىٰ الأمام، ساخرًا بما أمامه من كل مشقةٍ وصعوبة.. والصوم يمثل ضربًا من ضروب الصبر، الذي هو الثبات في القيام بالواجب في كل شأنٍ من شؤون الحياة»[(٣)].

❑ خامسًا: التفكير في حِكَم وفوائد الحج:

ربنا جل جلاله نهىٰ في الحج عن أمورٍ منهي عنها في غيره لكن يتأكد النهي عنها في الحج أكثر، ومن ذلك الرفث والفسوق والجدال، فضبط النفس عن هذه الأمور مدة الحج سبب بإذن الله للبعد عنها بعد الحج.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣ – ٤).

(٢) التفسير الكبير (٥/ ٦٠).

(٣) صفوة الآثار والمفاهيم (٣/ ٧٩– ٨٠).

والنصوص الواردة في القرآن الكريم حول فريضة الحج تبين بعضًا من حكمه وفوائده، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧]. فقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج وخصوصًا الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه من الرفث، وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية خصوصًا عند النساء بحضرتهن.

والفسوق وهو: جميع المعاصي ومنها محظورات الإحرام. والجدال وهو: المماراة والمنازعة والمخاصمة لكونها تثير الشر وتوقع العداوة.

والمقصود من الحج: الذل والانكسار لله والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتنزه عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبرورًا، والمبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعةً في كل مكانٍ وزمانٍ فإنها يتغلظ المنع عنها في الحج»(١).

يقول ابن القيم: «وأما أسرار ما في هذه العبادة من الإحرام واجتناب العوائد وكشف الرأس ونزع الثياب المعتادة والطواف والوقوف بعرفة ورمىٰ الجمار وسائر شعائر الحج فمما شهدت بحسنه العقول السليمة والفطر المستقيمة، وعلمت بأن الذي شرع هذه لا حكمة فوق حكمته»(٢).

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٩١– ٩٢).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٤).

❑ سادسًا: التفكير في الفوائد المترتبة على ترك المحرمات:

ما من شيءٍ حرمه الله تعالىٰ إلا وفيه ضررٌ علىٰ الأفراد والمجتمعات، يتبين ذلك لمن يتأمل ويفكر في النصوص الواردة في ذلك، مع التأمل في واقع المجتمعات قديمًا وحديثًا، بل وتم حديثًا اكتشاف كثيرٍ من الأضرار المترتبة علىٰ الوقوع في بعض الأمور التي ورد النهي عنها في القرآن والسنة، وفي هذا المطلب سيتم تناول بعض المحرمات، وبيان الفوائد المترتبة علىٰ تركها، والأضرار المترتبة علىٰ ارتكابها.

لتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير حكمٌ وفوائد، ومما ورد في تحريمها ما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣]. وقال تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]. ففي هذه الآيات بيان لتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، وما حرمت هذه الأمور إلا لضررها علىٰ الفرد، مما قد يترتب عليه ضرر علىٰ المجتمع.

والميتة تأباها النفس السليمة وكذلك الدم المسفوح، فضلًا علىٰ ما أثبته الطب الحديث - بعد فترةٍ طويلةٍ من تحريم القرآن - من تجمع الميكروبات والمواد الضارة في الميتة وفي الدم، ولا ندري إن كان الطب الحديث قد استقصىٰ ما فيهما من الأضرار؟ أم أن هناك أسبابًا أخرىٰ للتحريم لم يكشف عنها بعد للناس؟

فأما الخنزير فهو بذاته منفرٌ للطبع النظيف القويم.. ومع هذا فقد حرمه الله منذ ذلك الأمد الطويل، ليكشف علم الناس في الوقت الحاضر أن في لحمه ودمه وأمعائه دودةً شديدة الخطورة هي الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة.

ويقول الآن قوم: إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت، فلم تعد هذه الديدان

وبويضاتها مصدر خطرٍ لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التي توفرها وسائل الطهو الحديثة.. وينسىٰ هؤلاء أن علمهم قد احتاج إلىٰ قرونٍ طويلةٍ ليكشف آفةً واحدةً، فمن ذا الذي يجزم بأن ليس هناك أضرار أخرىٰ في لحم الخنزير لم يكشف بعد عنها؟ أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشري بعشرات القرون أن نثق بها، وندع كلمة الفصل لها، ونحرم ما حرمت، ونحلل ما حللت، وهي من لدن حكيمٍ خبيرٍ!

ويقول ابن عاشور: «واعلم أن حكمة تحريم الميتة فيما أرىٰ هي أن الحيوان لا يموت غالبًا إلاّ وقد أصيب بعلة، والعلل مختلفةٌ وهي تترك في لحم الحيوان أجزاء منها، فإذا أكلها الإنسان قد يخالط جزءًا من دمه جراثيم الأمراض، مع أن الدم الذي في الحيوان إذا وقفت دورته غلبت فيه الأجزاء الضارة علىٰ الأجزاء النافعة، ولذلك شرعت الذكاة، لأن المذكىٰ مات من غير علةٍ غالبًا، ولأن إراقة الدم الذي فيه تجعل لحمه نقيًا مما يخشىٰ منه أضرار...

وحكمة تحريم الدم أن شربه يورث ضراوة في الإنسان فتغلظ طباعه ويصير كالحيوان المفترس، وهذا مناف لمقصد الشريعة؛ لأنها جاءت لإتمام مكارم الأخلاق وإبعاد الإنسان عن التهور والهمجية، ولذلك قيد في بعض الآيات بالمسفوح أي المهراق؛ لأنه كثيرٌ لو تناوله الإنسان اعتاده ولو اعتاده أورثه ضراوة.

وحكمة تحريم لحم الخنزير أنه يتناول القاذورات بإفراط فتنشأ في لحمه دودةٌ مما يقتاته لا تهضمها معدته فإذا أصيب بها آكله قتلته»[(١)].

و«الخنزير وصفه القرآن الكريم في أكثر من مقام بأنه رجس، وهذه كلمةٌ جامعةٌ لكل معاني القذارة والقبح، والنجاسة، والإثم، وذلك لأن الخنزير حيوانٌ كسولٌ،

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١١٩).

جشعٌ، قذرٌ، رمامٌ، يأكل النبات والحيوان والجيف، والقمامة، كما يأكل فضلاته هو وفضلات غيره من الحيوانات، وهذه من أسباب قيامه بدور كبير في نقل العديد من الأمراض الخطيرة للإنسان»(١).

ووردت آيات قرآنية تبين تحريم الخمر منها ما ورد في قوله تعالىٰ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩ – ٢٢٠]. وفي تحريم الخمر بين الرب جل جلاله الحكمة من ذلك فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١].

«فمن الحِكم في تحريم الخمر ما يترتب عليه من المفاسد الدنيوية وهي وقوع العداوة والبغضاء بين شاربيها، وكذلك لحصول المفاسد الدينية من الصد عن ذكر الله عمومًا وعن أعظم الذكر ألا وهي الصلاة»(٢).

و«لقد دعت الشريعة الإسلامية العالم إلىٰ ترك الخمر وحرمتها علىٰ الناس من القرن السابع، ولكن لم يستجب لهذه الدعوة ويأخذ نفسه بتحريم الخمر إلا البلاد الإسلامية، أما ما عداها من البلاد فقد بقيت تحت سلطان الخمر حتىٰ أثبت العلم المادي أخيرًا أن الخمر مفسدةٌ عظمىٰ، وأنها تهدم الصحة وتضيع المال وتضعف النسل والعقل وتضر بالإنتاج ضررًا بليغًا، هنالك بدأت الدعوة لتحريم الخمر تظهر

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي الحيوان في القرآن الكريم، ص ٣٥٩.

(٢) تفسير أبي السعود (٣/ ٧٦)، فتح القدير (٢/ ٧٤).

وتشتد، وتؤلف لها الجماعات وتجمع لها الأموال وتنشر الصحف، وقد نجحت الدعوة لتحريم الخمر نجاحًا ملحوظًا فلا يكاد يوجد اليوم بلدٌ ليس فيه جماعةٌ قويةٌ تدعو لتحريم الخمر، وتجد كل تعضيدٍ ومساعدةٍ من المفكرين والمصلحين بحيث يمكن أن يقال: إن الدعوة إلىٰ تحريم الخمر أصبحت اليوم عامة»[(١)]. «ومن المسلَّم به من الناحيتين الطبية والاجتماعية في عصرنا الحاضر أن الخمر لا فائدة فيها وأن أضرارها لا تحصىٰ، فهي تفسد العقل، وتفسد الصحة، وتؤدي إلىٰ العقم أحيانًا، وإلىٰ ضعف النسل غالبًا، كما تؤدي إلىٰ ضياع المال، وضياع الكرامة»[(٢)].

❑ سابعًا: التفكير في حكم وفوائد تطبيق الحدود الشرعية:

ومن يتأمل ويفكر في تطبيق الحدود الشرعية يجد أن لها حِكَمًا وفوائد عدة مع تحقيق العبودية لله وحده، ومن هذه الحدود القصاص بقتل القاتل، ويكفي من الحكم والفوائد ما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩]. «وليس في العالم كله قديمه وحديثه عقوبةٌ تفضل عقوبة القصاص، فهي أعدل العقوبات، إذ لا يجازىٰ المجرم إلا بمثل فعله، وهي أفضل العقوبات للأمن والنظام؛ لأن المجرم حينما يعلم أنه سيجزىٰ بمثل فعله لا يرتكب الجريمة غالبًا... فكل دافعٍ نفسيٍّ يدعو إلىٰ الجريمة يواجه من عقوبة القصاص دافعًا نفسيًا مضادًا يصرف عن الجريمة، وذلك ما يتفق تمام الاتفاق مع علم النفس الحديث»[(٣)].

---

(١) التشريع الجنائي في الإسلام (١/ ٥٨).

(٢) التشريع الجنائي في الإسلام (٢/ ٢١٠).

(٣) التشريع الجنائي في الإسلام (٢/ ٢٢٥- ٢٢٦).

❑ حِكم وفوائد تطبيق القصاص على القاتل:

«في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ بيانٌ لمحاسن الحكم المذكور علىٰ وجهٍ بديعٍ لا تناله غايته، حيث جعل الشيء محلًا لضده، وعرّف القصاص ونكّر الحياة ليدل علىٰ أن في هذا الجنس نوعًا من الحياة عظيمًا لا يبلغه الوصف، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل فيتسبب لحياة نفسين، ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل والجماعة بالواحد فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقتُص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سببا لحياتهم... ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ؛ أي: ذوي العقول الخالصة عن شوب الأوهام خوطبوا بذلك بعد ما خوطبوا بعنوان الإيمان تنشيطًا لهم إلىٰ التأمل في حكمة القصاص»[(١)].

ويقول الشوكاني عند قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾: «أي لكم في هذا الحكم الذي شرعه الله لكم حياة؛ لأن الرجل إذا علم أنه يُقتل قصاصًا إذا قتل آخر كف عن القتل وانزجر عن التسرع إليه والوقوع فيه، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية، وهذا نوعٌ من البلاغة بليغٌ، وجنسٌ من الفصاحة رفيعٌ، فإنه جعل القصاص الذي هو موتٌ حياةً، باعتبار ما يؤول إليه من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضًا إبقاءً علىٰ أنفسهم واستدامةً لحياتهم، وجعل هذا الخطاب موجهًا إلىٰ أولي الألباب؛ لأنهم هم الذين ينظرون في العواقب ويتحامون ما فيه الضرر الآجل، وأما من كان مصابًا بالحمق والطيش والخفة فإنه لا ينظر عند سورة غضبه وغليان مراجل طيشه إلىٰ عاقبة ولا يفكر في أمرٍ مستقبل»[(٢)].

---

(١) تفسير أبي السعود (١/ ١٩٦).

(٢) فتح القدير (١/ ١٧٦).

«وكم من رجلٍ قد هم بداهيةٍ لولا مخافة القصاص لوقع بها، ولكن الله حجز بالقصاص بعضهم عن بعض.

وما أمر الله بأمرٍ قط إلا وهو أمر صلاحٍ في الدنيا والآخرة، ولا نهىٰ الله عن أمرٍ قط إلا وهو أمر فسادٍ في الدنيا والدين، والله أعلم بالذي يصلح خلقه»[١].

فمن «حكمته العظيمة في مشروعية القصاص قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ أي: تنحقن بذلك الدماء وتنقمع به الأشقياء؛ لأن من عرف أنه مقتولٌ إذا قتل لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رؤي القاتل مقتولًا انذعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل لم يحصل انكفاف الشر الذي يحصل بالقتل. وهكذا سائر الحدود الشرعية فيها من النكاية والانزجار ما يدل علىٰ حكمة الحكيم الغفار، ونكر الحياة لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل علىٰ أن الله تعالىٰ يحب من عباده أن يعملوا أفكارهم وعقولهم في تدبر ما في أحكامه من الحكم والمصالح الدالة علىٰ كماله وكمال حكمته وحمده وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب وناداهم رب الأرباب، وكفىٰ بذلك فضلًا وشرفًا لقوم يعقلون.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله ويعظم معاصيه فيتركها فيستحق بذلك أن يكون من المتقين»[٢].

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ١١٤).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٨٥).

«فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس؛ لأن أشدَّ ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت، فلو علم القاتل أنه يَسلم من الموت لأقدم علىٰ القتل مستخفًا بالعقوبات... وحكمة القصاص لا يدركها إلاّ أهل النظر الصحيح؛ إذ هو في بادئ الرأي كأنه عقوبةٌ بمثل الجناية؛ لأن في القصاص رزيةٌ ثانية لكنه عند التأمل هو حياةٌ لا رزية»(١).

والمتأمل لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة:١٧٩] يعلم أن القصاص ليس للإنتقام، ولا لإرواء الأحقاد، إنما هو أجل من ذلك وأعلىٰ، إنه سبب لدوام الحياة وفي سبيل بقاء الحياة، بل هو في ذاته حياة.. ثم إنه للتعقل والتدبر في حكمة الفريضة ولاستحياء القلوب واستجاشتها لتقوىٰ الله.

والحياة المرادة في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء، فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمنًا لحياة من يقتُل.. جديرٌ به أن يتروىٰ ويفكر ويتردد، كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل، شفاؤها من الحقد والرغبة في الثأر، الثأر الذي لم يكن يقف عند حدٍ في القبائل العربية، حتىٰ لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عامًا كما في حرب البسوس المعروفة عندهم، وكما نرىٰ نحن في واقع حياتنا اليوم، حيث تسيل الحياة علىٰ مذابح الأحقاد العائلية جيلًا بعد جيل، ولا تكف عن المسيل.

وفي القصاص حياةٌ علىٰ معناها الأشمل الأعم. فالاعتداء علىٰ حياة فردٍ اعتداءٌ علىٰ الحياة كلها، واعتداءٌ علىٰ كل إنسانٍ حي، يشترك مع القتيل في سمة الحياة، فإذا

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٤٥).

كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة، فقد كفه عن الاعتداء علىٰ الحياة كلها، وكان في هذا الكف حياةٌ مطلقةٌ. لا حياة فردٍ ولا حياة أسرةٍ، ولا حياة جماعةٍ.. بل حياة.. ثم - وهو الأهم والعامل المؤثر الأول في حفظ الحياة - استجاشة شعور التدبر لحكمة الله، ولتقواه: «لعلكم تتقون».

❑ حِكم وفوائد تطبيق حد السرقة:

ومن الأحكام الشرعية التي تحتاج إلىٰ تأملٍ وتفكيرٍ حد السرقة حيث قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المائدة: ٣٨]. «والحكمة في قطع اليد في السرقة، أن ذلك حفظٌ للأموال، واحتياطٌ لها، وليقطع العضو الذي صدرت منه الجناية»(١).

والدين الإسلامي يوفر لأهل دار الإسلام - علىٰ اختلاف عقائدهم - ما يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية.. إنه يوفر لهم ضمانات العيش والكفاية، وضمانات التربية والتقويم، وضمانات العدالة في التوزيع، وفي الوقت ذاته يجعل كل ملكيةٍ فرديةٍ فيه تنبت من حلال؛ ويجعل الملكية الفردية وظيفةً اجتماعيةً تنفع المجتمع ولا تؤذيه.. ومن أجل هذا كله يدفع خاطر السرقة عن كل نفسٍ سوية.. فمن حقه إذن أن يشدد في عقوبة السرقة، والاعتداء علىٰ الملكية الفردية، والاعتداء علىٰ أمن الجماعة.. ومع تشديده فهو يدرأ الحد بالشبهة؛ ويوفر الضمانات كاملةً للمتهم حتىٰ لا يؤخذ بغير الدليل الثابت.

إن أساس عقوبة القطع هو دراسةُ نفسيةِ الإنسان وعقليته، فهي إذن عقوبةٌ ملائمةٌ للأفراد، وهي في الوقت ذات صالحةٌ للجماعة؛ لأنها تؤدي إلىٰ تقليل الجرائم

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٢٣١).

وتأمين المجتمع، وما دامت العقوبة ملائمةً للفرد وصالحةً للجماعة، فهي أفضل العقوبات وأعدلها.

«ذلك هو الأساس الذي قامت عليه عقوبة السرقة في الشريعة الإسلامية، وإنه لعمري خير أساسٍ قامت عليه عقوبة السرقة من يوم نشأة عالمنا حتىٰ الآن، وإنه السر في نجاح عقوبة السرقة في الشريعة الإسلامية قديمًا، وهو السر الذي جعلها تنجح نجاحًا باهرًا في الحجاز في عصرنا هذا، فتحوله من بلدٍ كله فسادٌ واضطرابٌ ونهبٌ وسرقاتٌ إلىٰ بلدٍ كله نظامٌ وسلامٌ وأمنٌ وأمان. لقد كان الحجاز قبل أن تطبق فيه الشريعة الإسلامية أخيرًا أسوأ بلاد العالم أمنًا، فكان المسافر إليه أو المقيم فيه لا يأمن علىٰ نفسه وماله وعياله ساعةً من ليل بل ساعةً من نهار بالرغم مما له من قوةٍ وما معه من عدة، وكان معظم السكان لصوصًا وقطاعًا للطرق، فلما طبقت الشريعة أصبح الحجاز خير بلاد العالم كله أمنًا، يأمن فيه المسافر والمقيم، وتترك فيه الأموال علىٰ الطريق حتىٰ تأتي الشرطة فيحملونها إلىٰ حيث يقيم صاحبها»(١).

و«عن عائشة أن قريشًا أهمهم شأن المرأة التي سُرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فأتىٰ بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ، فقال: أتشفع في حدٍ من حدود الله عز وجل؟ فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب، فأثنىٰ علىٰ الله بما هو أهله، ثم قال أما بعد: فإنما أُهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن

(١) التشريع الجنائي في الإسلام (٢/ ٢١٠).

فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقُطعت يدها، قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد وتزوجت، وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلىٰ رسول الله ﷺ» رواه البخاري(١).

❑ حكم وفوائد حد الزنا:

ومن الأحكام التي تحتاج إلىٰ تأمل وتفكير حد رجم الزناة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢].

والقرآن يحذر من مجرد القرب من الزنا، وهي مبالغةٌ في التحرز؛ لأن الزنا تدفع إليه شهوةٌ عنيفةٌ، فالتحرز من القرب أضمن، فعند القرب من أسبابه لا يكون هناك ضمان.

ومن ثم يأخذ الإسلام الطريق علىٰ أسبابه الدافعة، توقيًا للوقوع فيه... يكره الاختلاط في غير ضرورة، ويحرم الخلوة، وينهىٰ عن التبرج بالزينة، ويحض علىٰ الزواج لمن استطاع، ويوصي بالصوم لمن لا يستطيع، ويكره الحواجز التي تمنع من الزواج كالمغالاة في المهور، وينفي الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد، ويحض علىٰ مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم، ويوقع أشد العقوبة علىٰ الجريمة حين تقع، وعلىٰ رمي المحصنات الغافلات دون برهان.. إلىٰ آخر وسائل الوقاية والعلاج، ليحفظ المجتمع المسلم من التردي والانحلال.

«والنهي عن قربان الزنا أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن: «من حام حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيه»، خصوصًا هذا الأمر، الذي في كثيرٍ من النفوس أقوىٰ داعٍ إليه. ووصف الله الزنا وقبحه

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٢٨٢)، (ح ٣٢٨٨).

بأنه: «كان فاحشةً» أي: إثمًا يستفحش في الشرع والعقل والفطر، لتضمنه التجري علىٰ الحرمة في حق الله، وحق المرأة وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد»(١).

«وعناية الإسلام بتحريم الزنا لأن فيه إضاعة النسب، وتعريض النسل للإهمال إن كان الزنا بغير متزوجة، وهو خللٌ عظيم في المجتمع، ولأن فيه إفساد النساء علىٰ أزواجهن، والأبكار علىٰ أوليائهن، ولأن فيه تعريضَ المرأة إلىٰ الإهمال بإعراض الناس عن تزوجها، وطلاق زوجها إياها، ولما ينشأ عن الغيرة من الهرج والتقاتل... فالزنا مئنةٌ لإضاعة الأنساب، ومَظنّةٌ للتقاتل والتهارج، فكان جديرًا بتغليظ التحريم قصدًا وتوسلًا. ومن تأمل ونظر جزم بما يشتمل عليه الزنا من المفاسد، ولو كان المتأمل ممن يفعله في الجاهلية فقبحه ثابتٌ لذاته، ولكن العقلاء متفاوتون في إدراكه وفي مقدار إدراكه، فلما أيقظهم التحريم لم يبق للناس عذر»(٢).

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ [النساء: ١٥]. والإسلام يمضي كما في هذه الآيات إلىٰ تطهير المجتمع وتنظيفه؛ وقد اختار - في أول الأمر - عزل الفاحشات من النسوة، وإبعادهن عن المجتمع متىٰ ثبت عليهن ارتكاب الفاحشة، وإيذاء الرجال الذين يأتون الفاحشة الشاذة، ولم يحدد نوع الإيذاء ومداه، ثم اختار - فيما بعد - عقاب هؤلاء النسوة وعقاب الرجال أيضًا عقوبةً واحدةً هي حد الزنا كما ورد في آية

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٥٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٩١).

سورة النور وهي الجلد؛ وكما جاءت بها السنة المطهرة أيضًا وهي الرجم، والهدف الأخير من هذه أو تلك هو صيانة المجتمع من التلوث والمحافظة عليه نظيفًا عفيفًا شريفًا.

وفي كل حالةٍ وفي كل عقوبةٍ توفر الشريعة الإسلامية الضمانات التي يتعذر معها الظلم والخطأ والأخذ بالظن والشبهة؛ في عقوباتٍ خطيرةٍ تؤثر في حياة الناس تأثيرًا خطيرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ [النساء: ١٥].. وفي النص دقةٌ واحتياطٌ بالغان، فهو يحدد النساء اللواتي ينطبق عليهن الحد: «من نسائكم» - أي المسلمات - ويحدد نوع الرجال الذين يستشهدون علىٰ وقوع الفعل: «من رجالكم» - أي المسلمين - فحسب هذا النص يتعين من توقع عليهن العقوبة إذا ثبت الفعل، ويتعين من تطلب إليهم الشهادة علىٰ وقوعه... ولا عجب في هذه العناية الظاهرة بتطهير المجتمع من هذه الفاحشة؛ والتشدد الظاهر في مكافحتها بكل وسيلة. فالسمة الأولىٰ للجاهلية هي الفوضىٰ الجنسية والانطلاق البهيمي بلا ضابطٍ من خلقٍ أو دين.

واعتبار هذه الاتصالات الجنسية الفوضوية مظهرًا من مظاهر «الحرية الشخصية» لا يقف في وجهها إلا متعنت! ولا يخرج عليها إلا متزمت! ولقد يتسامح الجاهليون في حرياتهم «الإنسانية» كلها ولا يتسامحون في حريتهم «البهيمية» هذه! وقد يتنازلون عن حرياتهم تلك كلها ولكنهم يهبون في وجه من يريد أن ينظم لهم حريتهم البهيمية ويطهرها!

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي

دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور: ٢].

«هذا الحكم، في الزاني والزانية البكرين، أنهما يجلد كل منهما مائة جلدة، وأما الثيب فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حده الرجم. ونهانا تعالىٰ أن تأخذنا رأفةٌ بهما في دين الله، تمنعنا من إقامة الحد عليهما، سواءً رأفةً طبيعيةً أو لأجل قرابةٍ أو صداقةٍ أو غير ذلك، وأن الإيمان موجبٌ لانتفاء هذه الرأفة المانعة، من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة بإقامة الحد عليه. فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب. وأمر تعالىٰ أن يحضر عذاب الزانيين طائفةٌ، أو جماعةٌ من المؤمنين ليشتهر، ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشاهدوا الحد فعلًا، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل مما يقوىٰ به العلم، ويستقر به الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب، فلا يزاد فيه، ولا ينقص»(١).

«وقد وضعت عقوبة الجلد علىٰ أساس محاربة الدوافع التي تدعو للجريمة بالدوافع التي تصرف عن الجريمة، وهذا هو الذي يهدينا إليه التأمل والتفكير في الجريمة وعقوبتها.

فالدافع الذي يدعو الزاني للزنا هو اشتهاء اللذة والاستمتاع بالنشوة التي تصحبها، والدافع الوحيد الذي يصرف الإنسان عن اللذة هو الألم، ولا يمكن أن يستمتع الإنسان بنشوة اللذة إذا تذوق مس العذاب، وأي شيءٍ يحقق الألم ويذيق مس العذاب أكثر من الجلد مائة جلدة؟

فالشريعة حينما وضعت عقوبة الجلد للزنا لم تضعها اعتباطًا، وإنما وضعتها علىٰ أساسٍ من طبيعة الإنسان وفهمٍ لنفسيته وعقليته، والشريعة حينما قررت عقوبة

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٥٦١).

الجلد للزنا دفعت العوامل النفسية التي تدعو للزنا بعوامل نفسيةٍ مضادةٍ تصرف عن الزنا، فإذا تغلبت العوامل الداعية علىٰ العوامل الصارفة وارتكب الزاني جريمته مرةً، كان فيما يصيبه من ألم العقوبة وعذابها ما ينسيه اللذة ويحمله علىٰ عدم التفكير فيها. وتمتاز الشريعة الإسلامية بأنها حين جعلت الجلد عقوبةً للزنا قد حاربت الجريمة في النفس قبل أن تحاربها في الحس وعالجتها بالعلاج الوحيد الذي لا ينفعها غيره، أما العقوبة التي قررها القانون فإنها لا تمس دواعي الجريمة في نفس المجرم ولا حسه، إذ الحبس علاج إن صلح لأية جريمةٍ أخرىٰ فهو لا يصلح بحالٍ لجريمة الزنا»[1].

وأما عقوبة رجم الزاني المحصن «وهو المتزوج» فلحكمةٍ إلهيةٍ قررت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. يقول عبد القادر عودة: «وقد وضعت عقوبة الرجم علىٰ نفس الأساس الذي وضعت عليه عقوبة الجلد للزاني غير المحصن، ولكن شددت عقوبة المحصن للإحصان، لأن الإحصان يصرف الشخص عادةً عن التفكير في الزنا، فإن فكر فيه بعد ذلك فإنما يدل تفكيره فيه علىٰ قوة اشتهائه للذة المحرمة وشدة اندفاعه للاستمتاع بما يصحبها من نشوة، فوجب أن توضع له عقوبةٌ فيها من قوة الألم وشدة العذاب ما فيها، بحيث إذا فكر في هذه اللذة المحرمة وذكر معها العقوبة المقررة تغلب التفكير في الألم الذي يصيبه من العقوبة علىٰ التفكير في اللذة التي يصيبها من الجريمة، ولو أن هؤلاء الذين يجزعون من قتل الزاني رجعوا إلىٰ الواقع لاستقام لهم الأمر، ولعلموا أن الشريعة الإسلامية حين أوجبت قتل الزاني المحصن لم تأت بشيءٍ يخالف مألوف الناس، فنحن الآن تحت حكم القانون وهو يعاقب علىٰ الزنا بالحبس إذا كان أحد الزانيين محصنًا، فإذا لم يكن أحدهما محصنًا

---

(١) التشريع الجنائي في الإسلام (٢/ ١٨٠- ١٩٧).

فلا عقاب ما لم يكن إكراه، هذا هو حكم القانون، فهل رضي الناس حكم القانون؟ إنهم لم يرضوه ولن يرضوه بل إنهم حين رفضوا حكم القانون القائم مرغمين أقبلوا علىٰ عقوبة الشريعة المعطلة مختارين، فهم يقتصون من الزاني محصنًا وغير محصن بالقتل، وهم ينفذون القتل بوسائل لا يبلغ الرجم بعض ما يصاحبها من العذاب، فهم يغرقون الزاني ويحرقونه ويقطعون أوصاله ويهشمون عظامه ويمثلون به أبشع تمثيل، وأقلهم جرأةً علىٰ القتل يكتفي بالسم يدسه لمن أوجب عليه زناه، ولو أحصينا جرائم القتل التي تقع بسبب الزنا لبلغت نصف جرائم القتل جميعًا، فإذا كان هذا هو الواقع فما الذي نخشاه من عقوبة الرجم؟

إن الأخذ بها لن يكون إلا اعترافًا بالواقع، والاعتراف بالواقع شجاعةٌ وفضيلة، ولا أظننا بالرغم مما وصلنا إليه من تدهورٍ نكره الإقرار بالحق، أو نخشىٰ الاعتراف بالواقع المحسوس. هذه هي عقوبات الزنا في الشريعة الإسلامية، لم تجئ ارتجالًا ولم توضع اعتباطًا وإنما جاءت بعد فهمٍ صحيحٍ لتكوين الإنسان وعقليته، وتقديرٍ دقيقٍ لغرائزه وميوله وعواطفه ووضعت لتحفظ مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، فهي عقوباتٌ علميةٌ تشريعيةٌ؛ لأنها شرعت لمحاربة الجريمة، وهذه ميزةٌ تمتاز بها العقوبات التي وضعتها الشريعة لجرائم الحدود وجرائم القصاص والدية، ولا تكاد هذه الميزة توجد في عقوبةٍ من العقوبات التي تطبقها القوانين الوضعية»[١].

---

(١) التشريع الجنائي في الإسلام (٢/ ١٩٩- ٢٠٣).



المبحث السادس
التفكير في الموت والبعث، وفي حقيقة الدنيا والآخرة

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢] ففي هذه الآية بيانٌ لنوع من أنواع قدرة الله البالغة، وصنعته العجيبة، فهو الذي يتوفىٰ ويمسك ويرسل النفوس، فهو تعالىٰ يتوفىٰ الأنفس وفاتين، كبرىٰ وصغرىٰ، أما الكبرىٰ فهي وفاة الموت، وهي قبض النفس من البدن ظاهرًا وباطنًا، وانتهاء الحياة من الدنيا، والوفاة الصغرىٰ قبض النفس عند النوم، ظاهرًا لا باطنًا، ثم رجوعها إلىٰ الحياة بعد الاستيقاظ من النوم إلىٰ أجلٍ محددٍ ثم تحصل الوفاة الكبرىٰ، فالنوم مثل الموت، واليقظة مثل البعث، فمن تفكر في ذلك علم أن القادر علىٰ ذلك قادرٌ علىٰ البعث، كما أن له أثرًا في زيادة الإيمان، وقوة اليقين، وارتفعت الهمة، والرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أَوَىٰ أَحَدُكُم إلىٰ فِراشِهِ، فَلْيَنْفُض فِراشَهُ بداخِلَةِ إِزَارِهِ فإِنَّهُ لاَ يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْها، وإِنْ أَرْسَلْتَهَا، فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصَّالِحِينَ**»(١). «ففي قبض الله نفس النائم

(١) صحيح البخاري ٦٣٢٠.

والميت وإرساله بعدُ نَفس هذا ترجع إلىٰ جسمها، وحبسه لغيرها عن جسمها لعبرةٌ وعظةٌ لمن تفكر وتدبر، وبيانًا له أن الله يحيي من يشاء من خلقه إذا شاء، ويميت من شاء إذا شاء»[(١)].

«فجملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ مستأنفةٌ كما تذكر النتيجة عقب الدليل أي أن في حالة الإماتةِ والإنامةِ دلائِلَ علىٰ انفراد الله تعالىٰ بالتصرف، وأنه المستحق للعبادة دون غيره، وأن ليس المقصود من هذا الخبر الإخبار باختلاف حالتي الموت والنوم بل المقصود التفكر والنظر في مضرب المثل، وفي دقائق صنع الله والتذكير بما تنطوي عليه من دقائق الحكمة التي تمر علىٰ كل إنسانٍ كلَّ يوم في نفسه، وتمرّ علىٰ كثيرٍ من الناس في آلهم وفي عشائرهم وهم معرضون عما في ذلك من الحكَم وبديع الصنع»[(٢)].

«والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلىٰ ما تقدم من التوفي والإمساك والإرسال للنفوس، ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: لآياتٍ عجيبةٍ بديعةٍ دالةٍ علىٰ القدرة الباهرة، ولكن ليس كون ذلك آياتٍ يفهمه كل أحدٍ بل ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك ويتدبرونه، ويستدلون به علىٰ توحيد الله وكمال قدرته، فإن في هذا التوفي والإمساك والإرسال، موعظةً للمتعظين وتذكرةً للمتذكرين»[(٣)]. «فإن في توفي الأنفس مائتةً ونائمةً، وإمساكها وإرسالها إلىٰ أجل لآياتٌ علىٰ قدرة الله وعلمه، لقوم يجيلون فيه أفكارهم ويعتبرون»[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٦).
(٣) فتح القدير (٤/ ٤٦٦).
(٤) الكشاف (٤/ ١٣٤).

والتفكير في الموت يجب أن يكون بحدودٍ معينة، بحيث يكون سببًا دافعًا للمسلم إلىٰ فعل الطاعات، وترك المنكرات، كما يكون سببًا دافعًا إلىٰ الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، كما أن له أثرًا في تهوين مصائب الدنيا وهمومها، وهو دواء القلوب القاسية.

«قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات»(١).

وذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضىٰ الاستعداد للآخرة والغفلة عن الموت تدعو إلىٰ الانهماك في شهوات الدنيا. «قال كعب: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها، وقالت صفية رضي الله تعالىٰ عنها: إن امرأةً اشتكت إلىٰ عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها، فقالت: أكثري ذكر الموت، يرق قلبك، ففعلت فرق قلبها، فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها»(٢). «ومن أكثر ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة النفس، ونشاط العبادة، ومن نسي ذكره عوقب بثلاثة: أشياء تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة»(٣).

والموت حقيقةٌ لا ينكرها عاقل، لكن الكثير من الناس في غفلةٍ عنه، لقلة ذكره ولقلة التفكير فيه، ولو سلم أحدٌ من الموت لسلم منه خير البشر رسول الله ﷺ، ولذلك قال تعالىٰ: لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: ٣٠].

والموت لن يسلم منه أحد من البشر كما قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ

---

(١) الزهد – ابن أبي الدنيا – (١/ ٣٨)، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا.
(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٥٠ – ٤٥١).
(٣) نزهة المجالس (١/ ٧١).

ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وسيأتي الإنسان حتىٰ ولو تحصن عنه بكل ما أوتي من قوة كما قال تعالىٰ: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ [النساء:٧٨]. ومهما حاول الفرار منه فلن يسلم منه كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة:٨] وكما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ١٩].

ولقد حث النبي ﷺ علىٰ الإكثار من ذكر الموت، كما ورد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ**». يَعْنِي الْمَوْتَ(١). «وقال ابن مسعود: كفىٰ بالموت واعظًا، وكفىٰ باليقين غناءً، وكفىٰ بالعبادة شغلًا، وقال أبو الدرداء: من أكثر ذكر الموت قل فرحه وقل حسده»(٢). «وقال عنبسة بن سعيد: دخلت علىٰ عمر بن عبد العزيز أودِّعُه، فلما ودعتُه وانصرفت، نادىٰ: يا عنبسة. مرتين، فأقبلت عليه، فقال: أكثر من ذكر الموت، فإنك لا تكون في واسعٍ من الأمر إلا ضيقه عليك، ولا تكون في ضيقٍ من الأمر إلا وسعه عليك»(٣).

وعن الحسن قال: «ما أكثر عبدٌ ذكر الموت إلا رأىٰ ذلك في عمله، ولا طال أمل عبدٍ قط إلا أساء العمل»(٤). وعن رجاء بن حيوة قال: «ما أكثر رجل ذكر الموت إلا ترك الفرح والحسد»(٥). وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَىٰ

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٥٥٣) (ح ٢٣٠٧).

(٢) الزهد لابن المبارك (٢/ ٣٧).

(٣) الفرج بعد الشدة (١/ ٨٦).

(٤) الزهد لأحمد بن حنبل (٤/ ٩٤).

(٥) الزهد لأحمد بن حنبل (٥/ ٤٠٧).

وَأَبْكَىٰ مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ»[(١)].

وزيارة القبور تبعث علىٰ التفكير في حقيقة الحياة الدنيا، وفي مصير الإنسان ومآله.

وزيارة القبور يجب أن تكون بالقلوب قبل الأقدام والأجسام، فلا قيمة لزيارةٍ بقلبٍ غافلٍ ساه، لا عبرة فيها ولا عظة، ولا تكفي زيارة القبور بحضور جنازةِ قريبٍ أو صديق، ولذلك «كان مغيث الأسود يقول: زوروا القبور كل يومٍ بفكركم، وتوهموا جوامع الخير كل يومٍ في الجنة بعقولكم، وانظروا إلىٰ المنصرف بالفريقين إلىٰ الجنة أو النار بهممكم، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها»[(٢)]. ومن الأمور المفيدة والتي تذكر بالموت وما بعده اتباع الجنازة، مع التفكير والاعتبار بنهاية هذا الميت والتي هي مصير من يتبع الجنازة، بل ومصير كل حيٍ علىٰ وجه الأرض، قال في المغني: «يستحب لمتبع الجنازة أن يكون متخشعًا متفكرًا في مآله، متعظًا بالموت وبما يصير إليه الميت، ولا يتحدث بأحاديث الدنيا ولا يضحك. قال سعد بن معاذ: ما تبعتُ جنازةً فحدثت نفسي بغير ما هو مفعولٌ بها»[(٣)]. «وقال القرطبي: قال علماؤنا: والموت وإن كان مصيبةً عظمىٰ ورزيةً كبرىٰ فأعظم منه الغفلة عنه والإعراض عن ذكره وترك التفكر فيه وترك العمل له، وإن فيه وحده لعبرةً لمن اعتبر وفكرةً لمن تفكر»[(٤)].

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ٦٧١).
(٢) حلية الأولياء (١٠/ ١٤٣).
(٣) المغني (٢/ ١٧٤).
(٤) تفسير القرطبي (٦/ ٣٥٢).

وأما البعث فمن يتأمل ويتفكر في القرآن الكريم يجد أن هناك مجموعةً من النصوص القرآنية تخاطب العقل، ليستدل بها على إمكانية البعث، وأنه حقٌّ واقعٌ لا محالة، ومن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾ [مريم: ٦٦ – ٦٧]. «والمراد بالذكر هنا إعمال الفكر، أي: ألا يتفكر هذا الجاحد في أول خلقه فيستدل بالابتداء على الإعادة، والابتداء أعجب وأغرب من الإعادة؛ لأن النشأة الأولى هي إخراج لهذه المخلوقات من العدم إلى الوجود ابتداعًا واختراعًا لم يتقدم عليه ما يكون كالمثال له، وأما النشأة الآخرة فقد تقدم عليها النشأة الأولى فكانت كالمثال لها»[(١)].

و«المراد بالإنسان هاهنا، كل منكرٍ للبعث، مستبعدٍ لوقوعه. فيقول مستفهمًا على وجه النفي والعناد والكفر: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾. أي: كيف يعيدني الله حيًا بعد الموت، وبعد ما كنت رميمًا؟ هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيء، وعناده لرسل الله وكتبه، فلو نظر أدنى نظر، وتأمل أدنى تأمل، لرأى استبعاده للبعث، في غاية السخافة، ولهذا ذكر تعالى برهانًا قاطعًا، ودليلًا واضحًا، يعرفه كل أحدٍ على إمكان البعث فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ أي: أو لا يلفت نظره، ويستذكر حالته الأولى، وأن الله خلقه أول مرة ولم يكُ شيئًا. فمن قدر على خلقه من العدم، ولم يكُ شيئًا مذكورًا، أليس بقادرٍ على إنشائه بعد ما تمزق وجمعه بعد ما تفرق؟ وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

---

(١) فتح القدير (٣/ ٣٤٣).

وفي قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعوةٌ للنظر، بالدليل العقلي، بألطف خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك، مبني علىٰ غفلةٍ منه عن حاله الأولىٰ، وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك»[١].

ومن أدلة البعث العقلية قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٧٧ - ٨٣].

«وهذه الآيات الكريمات فيها ذكر شبهة منكري البعث، والجواب عنها بأتم جواب وأحسنه وأوضحه»[٢].

ومن أدلة البعث العقلية بيان أن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادرٌ علىٰ إحياء الموتىٰ بعد موتهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

«فكما لم تعجز قدرته عن إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتىٰ»[٣].

«فالذي أحيا هذه الأرض الدارسة فأخرج منها النبات وجعلها تهتز بالزرع من بعد يبسها ودثورها بالمطر الذي أنزل عليها لقادرٌ أن يحيي أموات بني آدم من بعد مماتهم بالماء الذي ينزل من السماء لإحيائهم»[٤].

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٩٨).
(٢) تفسير السعدي (١/ ٦٩٩).
(٣) تفسير السعدي (١/ ٧٥٠).
(٤) تفسير الطبري (٢٤/ ١٢٢).

ويتكرر في القرآن عرض مثل هذا المشهد واتخاذه نموذجًا للإحياء في الآخرة، ودليلًا كذلك علىٰ القدرة الإلهية. ومشهد الحياة في الأرض قريبٌ من كل قلب؛ لأنه يلمس القلوب السليمة، والحياة حين تنبض من بين الموات، توحي بالقدرة المنشئة إيحاءً خفيًا ينبض في أعماق الشعور. والقرآن يخاطب الفطرة بلُغتِها من أقرب طريق.

ومن أدلة البعث العقلية بيان أن الذي خلق السموات والأرض قادرٌ علىٰ إحياء الموتىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ففي هذه الآية توبيخٌ للكفار علىٰ جهلهم وانطماس بصائرهم، وعدم رؤيتهم بقلوبهم قبل أبصارهم أن الذي خلق السماوات والأرض، بل وخلق الكون كله، بلا تعبٍ ولا نصبٍ، أنه قادرٌ علىٰ إحياء الموتىٰ بعد موتهم.

«والرؤية قلبية أي: ألم يتفكروا ولم يعلموا علمًا جازمًا متاخمًا للمشاهدة والعيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ابتداءً من غير مثالٍ يحتذيه ولا قانونٍ ينتحيه ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: لم يتعب ولم ينصب بذلك أصلًا، أولم يعجز عنه يقال: عييت بالأمر إذا لم يعرف وجهه، وقوله تعالىٰ: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ولذلك أجيب عنه بقوله تعالىٰ:﴿بَلَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقريرا للقدرة علىٰ وجهٍ عامٍ يكون كالبرهان علىٰ المقصود»[(١)].

ووردت بعض النصوص التي تحث علىٰ التفكير في حقيقة الدنيا والآخرة، فالدنيا زائلةٌ لا تصفو لأحد، والآخرة باقيةٌ وفيها السعادة الأبدية، ومن عرف حقيقتهما زهد في الدنيا وحرص علىٰ الآخرة وعمل لها واستعد للقاء ربه. ومن هذه

(١) تفسير أبي السعود (٨/ ٨٩).

النصوص قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٩– ٢٢٠].

وفي هذا بيان لاستجاشة التفكر والتدبر في أمر الدنيا والآخرة، فالتفكر في الدنيا وحدها لا يعطي العقل البشري صورةً كاملةً عن حقيقة الوجود الإنساني، وحقيقة الحياة وتكاليفها وارتباطاتها، ولا ينشئ تصورًا صحيحًا للأوضاع والقيم والموازين، فالدنيا شطر الحياة الأدنىٰ والأقصر، وبناء الشعور والسلوك علىٰ حساب الشطر القصير لا ينتهي أبدًا إلىٰ تصورٍ صحيحٍ ولا إلىٰ سلوكٍ صحيح.

قال ابن كثير في تفسيره: «أي كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده ووعيده لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة... وعن الحسن أنه قرأ هذه الآية من البقرة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ قال: هي والله لمن تفكر فيها ليعلم أن الدنيا دار بلاءٍ ثم دار فناءٍ، وليعلم أن الآخرة دار جزاءٍ ثم دار بقاء»(١).

والتفكر يكون «في أموركم المتعلقة بالدنيا والآخرة وتأخذون بما يصلح لكم وينفعكم فيهما، وتذرون ما يضركم حسبما تقتضيه تلك الآيات المبينة»(٢).

فقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي: «لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضًا لكي تتفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها فترفضوها وفي الآخرة وبقائها وأنها دار الجزاء فتعمروها»(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٧).

(٢) تفسير أبي السعود (١/ ٢٢٠).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٩٩).

فالإنسان لم يُخلق للدنيا إنما خُلق للآخرة، فالدنيا دار ممرٍ وليست دار مستقر، والدنيا لا تبقىٰ ولا تدوم، ولا يدوم إلا العمل الصالح، والآخرة تبقىٰ وتدوم ولا تزول. «قال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ قال: يعني في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها، وعن قتادة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ فتعرفون فضل الآخرة علىٰ الدنيا، وقال: «ومن تفكر في الدنيا والآخرة عرف فضل إحداهما علىٰ الأخرىٰ، وعرف أن الدنيا دار بلاءٍ ثم دار فناءٍ، وأن الآخرة دار بقاءٍ ثم دار جزاءٍ، فكونوا ممن يصرم حاجة الدنيا لحاجة الآخرة»[(١)].

ويقول القرطبي في تفسيره: «ومما يتفكر فيه مخاوف الآخرة من الحشر والنشر والجنة ونعيمها والنار وعذابها»[(٢)].

والآيات الواردة في حقيقة الدنيا وزوالها وأنها دار فناءٍ وليست دار بقاءٍ كثيرة منها:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ [يونس: ٢٤]. «وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابقٌ لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها، ونحو ذلك يزهو لصاحبه إنْ زها

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣٦٩).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٣١٤).

وقتًا قصيرًا، فإذا استكمل وتمّ، اضمحل وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها»[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: ٢٠].

«يخبر تعالىٰ عن حقيقة الدنيا، وما هي عليه، ويبين غايتها، وغاية أهلها، بأنها لعبٌ ولهو تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجودٌ وواقعٌ من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات عمرهم بلهو قلوبهم، وغفلتهم عن ذكر الله، وعما أمامهم من الوعد والوعيد، تراهم قد اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، بخلاف أهل اليقظة وعمال الآخرة، فإن قلوبهم معمورةٌ بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد شغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلىٰ الله، من النفع القاصر والمتعدي»[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف: ٤٥].

«يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ - أصلًا - ولمن قام بوراثته بعده - تبعًا -: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا، ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولىٰ بالإيثار، وأن مثل هذه الحياة الدنيا كمثل المطر، ينزل علىٰ الأرض، فيختلط نباتها، أو تنبت من كل زوجٍ بهيج. فبينا زهرتها،

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٦١).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٨٤١).

وزخرفها تسر الناظرين وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين، إذ أصبحت هشيمًا، تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء ترابًا، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب. كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها، قد أعجب بشبابه، وفاق فيها علىٰ أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه، إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته، وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته، وماله وانفرد بصالح أو سيء أعماله، هنالك يعض الظالم علىٰ يديه حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنىٰ العود إلىٰ الدنيا، لا ليستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات، بالتوبة والأعمال الصالحات، فالعاقل الجازم الموفق يعرض علىٰ نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: «قدري أنك قد مت، ولا بد أن تموتي، فأي الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة؟ أم العمل لدار أكلها دائمٌ وظلها ظليلٌ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين؟»، فبهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وربحه من خسرانه، ولهذا أخبر تعالىٰ أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيءٌ، وأن الذي يبقىٰ للإنسان وينفعه ويسره الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات، الواجبة والمستحبة، من حقوق الله، وحقوق عباده من صلاةٍ، وزكاةٍ، وصدقةٍ، وحجٍ، وعمرةٍ، وتسبيحٍ، وتحميدٍ، وتهليلٍ، وقراءةٍ، وطلب علمٍ نافع، وأمرٍ بمعروف، ونهيٍ عن منكر، وصلة رحم، وبر الوالدين، وقيامٍ بحق الزوجات والمماليك، والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلىٰ الخلق، كل هذا من الباقيات

الصالحات فهذه خير عند الله ثوابًا وخير أملًا، فثوابها يبقىٰ ويتضاعف علىٰ الآباد، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون ويجد في تحصيلها المجتهدون»(١).

«وقالت الحكماء: إنما شبه تعالىٰ الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع كذلك الدنيا لا تبقىٰ علىٰ واحد، ولأن الماء لا يستقيم علىٰ حالةٍ واحدةٍ كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقىٰ ويذهب كذلك الدنيا تفنىٰ، ولأن الماء لا يقدر أحدٌ أن يدخله ولا يَبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحدٌ دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعًا منبتًا وإذا جاوز المقدار كان ضارًا مهلكًا وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر»(٢).

وبين ربنا جل جلاله أن ما في الدنيا متاعٌ وزينةٌ لكنه زائلٌ عما قريب، وأما ما في الآخرة فهو خيرٌ مما في الدنيا وأبقىٰ، فالدنيا دار ممر والآخرة دار مستقر كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠﴾ [القصص:٦٠]. وكما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٣٢﴾ [الأنعام: ٣٢].

«هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة أما حقيقة الدنيا: فإنها لعبٌ ولهوٌ؛ لعبٌ في الأبدان، ولهوٌ في القلوب، فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهموم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان»(٣).

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٧٨- ٤٧٩).
(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ٤١٢).
(٣) تفسير السعدي (١/ ٢٥٤).

وحقيقة الحياة الدنيا في الإسلام لا ينشئ إهمالًا للحياة الدنيا ولا سلبيةً فيها ولا انعزالًا عنها.. وما وقع من هذا الإهمال والسلبية والانعزال وبخاصة في بعض حركات «التصوف» بنابعٍ من التصور الإسلامي أصلًا، إنما هو عدوىٰ من التصورات الكنسية الرهبانية؛ بعد انتقالها للمجتمع الإسلامي!

والنماذج الكبيرة التي تمثل الإسلام في أكمل صورة، لم تكن سلبيةً ولا انعزالية. فهذا جيل الصحابة كله الذين قهروا الشيطان في نفوسهم، كما قهروه في حياتهم الإجتماعية والإقتصادية والسياسية.

هذا الجيل الذي كان يدرك قيمة الحياة الدنيا كما وردت في القرآن والسنة، جعلهم يعملون للآخرة بتلك الآثار الإيجابية الضخمة في واقع الحياة، وجعلهم يزاولون الحياة بحيويةٍ ضخمة، وطاقةٍ فائضة، في كل جانبٍ من جوانبها الحية الكثيرة.

إنما أفادهم معرفتهم بحقيقة الحياة الدنيا والدار الآخرة أنهم لم يصبحوا عبيدًا للدنيا، لقد ركبوها ولم تركبهم! وعبّدُوها فذللوها لله ولم تستعبدهم!

ولقد قاموا بالخلافة عن الله فيها بكل ما تقتضيه الخلافة عن الله من تعميرٍ وإصلاحٍ، ولكنهم كانوا يبتغون في هذه الخلافة وجه الله ويرجون الدار الآخرة. فسبقوا أهل الدنيا في الدنيا، ثم سبقوهم كذلك في الآخرة!.

وكما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤]. وفي هذه الآية تزهيدٌ في الدنيا، وتشويقٌ للآخرة.

والقرآن لا يعني بهذا الزهد في متاع الدنيا الفرار منه وإلقائه بعيدًا، إن هذا ليس من الإسلام في شيء ولا في اتجاهه، إنما يعني مراعاة الآخرة في هذا المتاع، والوقوف فيه عند حدود الله، كما يقصد الاستعلاء عليه فلا تصبح النفس أسيرةً للدنيا وما فيها، يكلفها

ما يكلفها فلا تتأبىٰ عليه! والمسألة قيمٌ يزنها بميزانها الصحيح. فهذه قيمة الدنيا وهذه قيمة الآخرة كما ينبغي أن يستشعرها المؤمن؛ ثم يسير في متاع الحياة الدنيا علىٰ ضوئها، مالكًا لحريته معتدلًا في نظرته: الدنيا لهو ولعب، والآخرة حياة مليئة بالحياة.

والدنيا تغر من يشتغل بها عن الآخرة وتخدعه كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: ١٨٥]. «عن سعيد بن جبير: أن هذا في حق من آثر الدنيا علىٰ الآخرة وأما من طلب الآخرة بها فإنها نعم المتاع والله أعلم»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠﴾ [القصص: ٦٠]. وهذه الآية «حضٌ منه تعالىٰ لعباده علىٰ الزهد في الدنيا، وعدم الاغترار بها، وعلىٰ الرغبة في الأخرىٰ، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق من الذهب، والفضة، والحيوانات والأمتعة، والنساء، والبنين، والمآكل والمشارب، واللذات، كلها متاع الحياة الدنيا وزينتها، أي: يتمتع به وقتًا قصيرًا، متاعًا قاصرًا، محشوًا بالمنغصات، ممزوجًا بالغصص، ويتزين به زمانًا يسيرًا، للفخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعًا، وينقضي جميعًا، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم والخيبة والحرمان»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾ [الزمر: ٢١]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ «أي فيما تقدم ذكره تذكيرٌ لأهل العقول الصحيحة، فإنهم الذين يتعقلون الأشياء علىٰ

---

(١) التفسير الكبير (٩/ ١٠٣).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٦٢١).

حقيقتها، فيتفكرون ويعتبرون، ويعلمون بأن الحياة الدنيا حالها كحال هذا الزرع في سرعة التصرم وقرب التقضي وذهاب بهجتها وزوال رونقها ونضارتها، فإذا أنتج لهم التفكر والاعتبار العلم بذلك لم يحصل منهم الاغترار بها، والميل إليها وإيثارها علىٰ دار النعيم الدائم، والحياة المستمرة واللذة الخالصة، ولم يبق معهم شكٌ في أن الله قادرٌ علىٰ البعث والحشر؛ لأن من قدر علىٰ هذا قدر علىٰ ذلك»(١).

كما ورد في القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ في بيان حقيقة الآخرة، وما أعد الله فيها للمتقين من الثواب، وما أعد للمجرمين من العقاب، ودخول بالجنة والخلود فيها، هي الحياة الحقيقية الباقية السرمدية، الحياة التي فيها السعادة الأبدية، فلا غم فيها ولا هم، ولا حزن ولا خوف، وفي الجنة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، ومن هذه النصوص قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢].

فقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حثٌ علىٰ التفكير والموازنة بين لذات الدنيا العاجلة الفانية، وبين لذات الآخرة الباقية الحقيقية. فحقيقة الآخرة أنها ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: «في ذاتها وصفاتها، وبقائها ودوامها، وفيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح، ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هي للمتقين، الذين يفعلون أوامر الله، ويتركون نواهيه وزواجره. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقولٌ بها تدركون أي الدارين أحق بالإيثار»(٢).

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٥٨).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٢٥٤).

ومن الأدلة التي تبين حقيقة الآخرة قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤]. وطرح الرازي في تفسيره سؤالًا وأجاب عنه فقال: «كيف أطلق الحيوان علىٰ الدار الآخرة مع أن الحيوان نامٍ مدرك؟ فنقول: الحيوان مصدر حي كالحياة، لكن فيها مبالغةٌ ليست في الحياة، والمراد بالدار الآخرة هي الحياة الثانية، فكأنه قال الحياة الثانية هي الحياة المعتبرة»[(١)].

فالحياة الآخرة هي الحياة الفائضة بالحيوية. هي «الحيوان» لشدة ما فيها من الحيوية والامتلاء.

والحياة الآخرة هي «دار الحياة الحقيقية لامتناع طريان الموت والفناء عليها، أوهي في ذاتها حياةٌ للمبالغة»[(٢)]. فحقيقة الآخرة أنها: «الحياة الكاملة، التي من لوازمها أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة؛ لأنها أبدانٌ وقوىً خلقت للحياة، وأن يكون موجودًا فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذة، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المآكل، والمشارب، والمناكح وغير ذلك، مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر»[(٣)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩].

ولأن قضية الآخرة وقضية التقوىٰ قضيتان أساسيتان في العقيدة وفي الحياة، يحيل السياق القرآني المخاطبين الذين يتسابقون علىٰ عرض الحياة الدنيا إلىٰ

(١) التفسير الكبير (٢٥/ ٨١).
(٢) تفسير أبي السعود (٧/ ٤٧).
(٣) تفسير السعدي (١/ ٦٣٥).

العقل: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾؟. ولو كان العقل هو الذي يحكم لا الهوىٰ، ولو كان العلم الحق لا الجهالة التي تسمىٰ العلم هو الذي يقضي.. لكانت الدار الآخرة خيرًا من عرض هذا الأدنىٰ. ولكانت التقوىٰ زادًا للدين والدنيا جميعًا.

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ [التوبة: ٣٨]. «فقوله: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ التي مالت بكم، وقدمتموها علىٰ الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أفليس قد جعل الله لكم عقولًا تزِنون بها الأمور، وأيها أحق بالإيثار؟ أفليست الدنيا من أولها إلىٰ آخرها لا نسبة لها في الآخرة، فما مقدار عمر الإنسان القصير جدًا من الدنيا، حتىٰ يجعله الغاية، التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه، وكدّه، وهمّه، وإرادته، لا يتعدىٰ الحياة الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار، المشحونة بالأخطار، فبأي رأيٍ رأيتم إيثارها علىٰ الدار الآخرة، الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون، فوالله ما آثر الدنيا علىٰ الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عُدَّ من أولي الألباب»(١).

وقال تعالىٰ: مبينًا أن الحياة الحقيقية هي الحياة الأخرىٰ لا الحياة الدنيا: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ [الفجر: ٢٤]. ﴿يَقُولُ﴾ متحسرًا علىٰ ما فرط في جنب الله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ الباقية الدائمة عملًا صالحًا... وفي هذا دليلٌ علىٰ أن الحياة التي ينبغي السعي في كمالها وتحصيلها، وفي تتميم لذاتها، هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء»(٢).

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٣٧).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٩٢٤).

وحين تتضح له هذه الحقيقة: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ يا ليتني قدمت شيئًا لحياتي هنا، فهي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة، وهي التي تستحق الاستعداد والتقدمة والادخار لها. يا ليتني.. أمنيةٌ فيها الحسرة الظاهرة، وهي أقسىٰ ما يملكه الإنسان في الآخرة!

الفصل الرابع
أمور نُهِيَ العقلُ عن التفكير فيها

وفيه ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول:** النهي عن التفكير في الذات الإلهية.
- **المبحث الثاني:** النهي عن التفكير في مفاتيح الغيب.
- **المبحث الثالث:** النهي عن التفكير في الروح.



المبحث الأول
النهي عن التفكير في الذات الإلهية

«يبدأ الإسلام التربية العقلية بتحديد مجال النظر العقلي، فيصون الطاقة العقلية أن تتبد وراء الغيبيات التي لا سبيل للعقل البشري أن يحكم فيها»(١).

فربنا جل جلاله نهىٰ عن التفكير في أمورٍ عدة، هي من أمور الغيب التي يجب الإيمان بها، وجاء النهي عن التفكير فيها، لقصور العقل عنها، ولعدم قدرته عليها، ولأن فيها إضاعةً للوقت والجهد بلا فائدةٍ ترجىٰ، بل أن التفكير فيها مضرٌ بالإنسان، مضرٌ بعقله، مضرٌ بإيمانه، مضرٌ بحياته عمومًا.

ومن هذه الأمور التي ورد النهي عن التفكير فيها في القرآن الكريم والسنة المطهرة التفكير في الذات الإلهية، لعدم الوصول لكنه ذاته وصفاته جل شأنه وعز سلطانه.

و«التفكر عبادةٌ حرةٌ طليقةٌ من كل قيدٍ إلا قيدًا واحدًا هو التفكر في ذات الله تبارك وتعالىٰ، فهو جل وعلا: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورىٰ:١١]... والإنسان لا يعرف إلا القليل القليل عن دماغه وجهازه العصبي الذي صار به إنسانًا، أما حقيقة عقله وروحه ونفسه فأسرارٌ مغلقةٌ وكنوزٌ مخفية.

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ص٩١.

فإن كانت هذه حدود الإنسان في دنياه الفانية فكيف به يجرؤ علىٰ التفكر فيمن: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ومن لا يحده الزمان وهو الذي خلق المكان»[(١)].

فمن الأدلة التي جاءت في النهي عن التفكير في الذات الإلهية مع الحث علىٰ التفكير في عظمة الله وآلائه، ما ورد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**تفكروا في آلاء**[(٢)] **الله، ولا تتفكروا في الله**»[(٣)]. وفي بعض الروايات: «**تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله** ﷻ»[(٤)]. قال السخاوي: «وأسانيدها ضعيفة، لكن اجتماعها يكتسب قوة، والمعنىٰ صحيح»[(٥)]. وقال الألباني في السلسلة الصحيحة بعد أن ذكر طرق الحديث: «وبالجملة فالحديث بمجموع طرقه حسنٌ عندي. و الله أعلم»[(٦)].

ففي هذا الحديث بمجموع طرقه حثٌ علىٰ التفكير في خلق الله، التفكير الذي يوصل الإنسان إلىٰ معرفة الله حق المعرفة، ومعرفة عظمته، وكمال قدرته، مع تحقق عجز الخلق وضعفهم مهما بلغوا من قوة، وحاجتهم إلىٰ خالقٍ مدبرٍ، موصوفٍ بأوصاف الكمال، وأما من أعمل عقله في التفكير في الخالق فسيقوده هذا التفكير إلىٰ ما لا يحمد عقباه، من إلحادٍ في أسمائه وصفاته، ووقوعٍ في التشبيه أو التعطيل، أو إنكارٍ لوجود الخالق بالكلية. «قال بعض العلماء: المتفكر في ذات الله تعالىٰ كالناظر

---

(١) التفكر من المشاهدة إلىٰ الشهود، د/ مالك بدري، ص ٧٥.
(٢) آلاء: نعم الله تعالىٰ وفضله علىٰ خلقه.
(٣) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٣١).
(٤) الإبانة الكبرىٰ لابن بطة (٥/ ٣٨٣).
(٥) المقاصد الحسنة (١/ ٨٨)، المؤلف: السخاوي.
(٦) السلسلة الصحيحة (٤/ ٢٨٧).

في عين الشمس؛ لأنه تعالىٰ ليس كمثله شيءٌ وإنما التفكير وانبساط الذهن في المخلوقات وفي مخاوف الآخرة»[(١)].

«والذي عليه أئمة التفسير أنه سبحانه إنما خصص التفكر بالخلق للنهي عن التفكر في الخالق، لعدم الوصول إلىٰ كنه ذاته وصفاته جل شأنه وعز سلطانه، وقد ورد هذا النهي في غير ما حديث، وعن ابن عباس تفكروا في كل شيءٍ ولا تفكروا في ذات الله تعالىٰ»[(٢)].

«وقال القاضي أبو محمد: لأن الأفهام تقف دون ذلك حسيرة، والمؤمنون يعرفون الله تعالىٰ بواجب وجوده وافتقار كل شيء إليه واستغنائه عن كل شيء، وينفي العقل عنه كل ما لا يليق به تبارك وتعالىٰ وأن ليس كمثله شيءٌ، وكل ما ذكرته فهو في ضمن هذه السورة الوجيزة البليغة»[(٣)].

ويقول محمد قطب: «سبحان الله، وهل يطيق بشرٌ أن يفكر في ذاته؟ هل تطيق الذرة الهائمة التائهة الفانية المحدودة أن تحيط بحقيقة الأزل والأبد، التي لا آخر لها ولا حدود؟! وإن اهتدت - إن وصلت واتصلت بالله - فما حاجتها إلىٰ «التفكير» في ذات الله وهي واصلة إلىٰ حماه؟! وهل فرغ الإنسان من تدبر أسرار الكون، ليفكر في ذات الخالق سبحانه، ليس كمثله شيء؟...

الأشياء الموجودة في الكون لا يعرف الإنسان «ذاتها»، لا يعرف جوهرها، وإنما يعرف من صفاتها ومظاهرها. فأي قفزةٍ في الفضاء مجنونةٍ تلك التي تدفعه أن يترك

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٥٥٥).

(٢) روح المعاني (٤/ ١٥٩).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٣٧).

الأشياء المخلوقة المحدودة الصغيرة، التي يعجز عن معرفة ذاتها، فيحاول أن يحيط بالذات الإلهية، ويصل إلىٰ «حقيقتها»؟! خبلٌ لا يستقيم مع التفكير السليم...

وحين نهىٰ الرسول الكريم أتباعه أن يفكروا في ذات الله كيلا يهلكوا، لم يكن ﷺ «يحجر» علىٰ تفكيرهم أو يضع عليه القيود. كلا! إنما يوفر جهدهم للنافع من الأعمال، كان يصون هذا الجهد أن يتبدد سدىً، ويؤدي إلىٰ الضلال، كان يريد للناس أن ينفقوا طاقاتهم - بعد أن يقضوا حظهم من تدبر آيات الله في الكون والاهتداء إليه - في تعمير الأرض وزيادة «الإنتاج» - الإنتاج بمعناه الواسع الشامل العميق - الإنتاج الروحي والفكري والمادي - في ميدان العقيدة وميدان الجهاد وميدان العمل بمعناه الاصطلاحي المفهوم...

إن أوربا لم تتقدم في ميدان العلم والعمل إلا حين أخذت بشق من نصيحة الرسول الكريم، فانتبذت التفكير في ذات الله، ووجهت طاقاتها لتعمير الأرض في واقع الحياة.. وخطت خطواتٍ جبارةً في هذا السبيل، ولكنها - مع الأسف - لم تأخذ نصيحة الرسول كاملةً، ولم تهتد بهديه السليم، لم تأخذ منها عبادة الله، والتوجه إلىٰ الله»(١).

ومن السور التي كان فيها إجابةٌ لمن فكر في الله وسأل عنه سورة الإخلاص، حيث قال الله بعد بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص: ١ – ٤]. «وعن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك. فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص: ١ – ٤](٢). «وقد دلت الآية الكريمة، علىٰ أن الله ﷻ أحدٌ، أي في ذاته

---

(١) قبسات من الرسول، محمد قطب، ص ٦٣– ٧٨.

(٢)تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦٦).

وصفاته لا شبيه ولا شريك ولا نظير ولا ند له، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد فسره ضمنًا قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، أما المعنىٰ العام فإن القرآن كله، والرسالة المحمدية كلها، بل وجميع الرسالات: إنما جاءت لتقرير هذا المعنىٰ، بأن الله سبحانه واحدٌ أحد، بل كل ما في الوجود شاهدٌ علىٰ ذلك»(١).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ: ١١]، دليلٌ علىٰ أن الإنسان لا يمكن له التفكير في الذات الإلهية، فليس كمثله شيءٌ حتىٰ يفكر المخلوق في الخالق. «والحكم علىٰ الشيء فرعٌ عن تصوره، فإذا كانت الذات الإلهية لا تدركها العقول والأبصار، فإن الواجب ألا توصف تلك الذات إلا بما تصف به نفسها أو بما يصفها به من وُكّل إليه شيءٌ من ذلك، وهم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥](٢).

«وليس للفكر حكمٌ ولا مجالٌ في ذات الحق لا عقلًا ولا شرعًا، فإن الشرع قد منع من التفكير في ذات الله وإلىٰ ذلك الإشارة بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي لا تتفكروا فيها وسبب ذلك ارتفاع المناسبة بين ذات الحق وذات الخلق»(٣).

وفي كتاب أبي نعيم بن حماد قال: «حقٌّ علىٰ كل مؤمنٍ أن يؤمن بجميع ما

---

(١) أضواء البيان (٩/ ١٤٨).

(٢) العقيدة (١/ ٣٦).

(٣) الفتوحات المكية (٢/ ٢٢٧).

وصف الله به نفسه، ويترك التفكر في الرب تبارك وتعالىٰ، ويتبع حديث النبي أنه قال: تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق»[(١)].

ومن الآيات الدالة علىٰ أن الإنسان لا ينبغي له أن يتفكر في الخالق قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠]. قال صاحب فتح القدير: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه:١١٠] «أي بالله سبحانه لا تحيط علومهم بذاته ولا بصفاته ولا بمعلوماته»[(٢)].

---

(١) اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٢٧).

(٢) فتح القدير (٣/ ٣٨٧).



المبحث الثاني
النهي عن التفكير في مفاتيح الغيب

«**والغيب في الإسلام هو**: كل ما غاب عن حس الإنسان سواءً بقي سرًّا مكتومًا يعجز الإنسان عن إدراكه بحيث لا يعلمه إلا اللطيف الخبير، أو كان مما يعلمه الإنسان بالخبر اليقين عن الله ورسوله ﷺ، وقد يعلم الإنسان بعض الغيب بتحليله الفكري أو نحو ذلك من الوسائل. - وذلك في بعض ما يمكن الوصول إليه بالوسائل المساعدة علىٰ توسيع مدىٰ الحواس مثل المناظير وغيرها من الأجهزة وهذا مما يدخل في الغيب النسبي -.

والإيمان بالغيب من الخصائص المميزة للإنسان عن غيره من الكائنات، ذلك أن الحيوان يشترك مع الإنسان في إدراك المحسوس، أما الغيب فإن الإنسان وحده المؤهل للإيمان به بخلاف الحيوان. لذا كان الإيمان بالغيب ركيزةً أساسيةً من ركائز الإيمان في الديانات السماوية كلها، فقد جاءت الشرائع بكثيرٍ من الأمور الغيبية التي لا سبيل للإنسان إلىٰ العلم بها إلا بطريق الوحي الثابت في الكتاب والسنة، كالحديث عن الله تعالىٰ وصفاته وأفعاله، وعن السماوات السبع وما فيهن، وعن الملائكة، والنبيين، والجنة والنار، والشياطين والجن، وغير ذلك من الحقائق الإيمانية الغيبية التي لا سبيل لإدراكها والعلم بها إلا بالخبر الصادق عن الله ورسوله.

وأما أقسام الغيب فهي:

١- **الغيب المطلق**: وهو الذي ليس للإنسان سبيلٌ إلىٰ العلم به عبر وسائل إدراكه أو حواسه وهو نوعان:

النوع الأول: ما أعلم الله تعالىٰ الناس به أو ببعضه عن طريق الوحي إلىٰ الرسل الذين يبلغونه إلىٰ الناس، ومن أمثلة ذلك الشياطين والجن وما جاء من أخبارهم نحو قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن: ١].

النوع الثاني: ما استأثر الله تعالىٰ بعلمه فلم يَطَّلِعْ عليه أحدٌ من خلقه، لا نبيٌ مرسل ولا ملكٌ مقرب، وذلك هو المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] ومن أمثلته العلم بوقت قيام الساعة، والموت من حيث زمانه ومكانه وسببه، وبعض ما سمىٰ الله تعالىٰ به نفسه. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤] وقال ﷺ في بعض دعائه: «**اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك**».

٢- **الغيب المقيد النسبي**: وهو ما كان غائبًا عن البعض مثل الحوادث التاريخية، فإنها غيبٌ بالنسبة لمن لم يعلم بها، لذلك قال الله تعالىٰ للنبي ﷺ بعد أن ذكر قصة آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٤﴾ [آل عمران: ٤٤].

٣- **الغيب المقيد غير النسبي**: وهو كل ما غاب عن الحس بسبب بعد الزمان

«المستقبل» أو المكان أو غير ذلك حتىٰ ينكشف ذلك الحجاب الزماني أو المكاني كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤]، وذلك في موت سيدنا سليمان عليه السلام. ومن الأمثلة علىٰ الأمور الغيبية:

١- الروح: قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

٢- علامات الساعة الصغرىٰ والكبرىٰ: التي أخبر عنها النبي ﷺ في حديث جبريل: «**وأن ترىٰ الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان**» وهذه من الأمور الغيبية التي أخبر عنها ﷺ ووقعت، ومن العلامات الكبرىٰ حديث المسيح الدجال، وأنه سوف يخرج في آخر الزمان، وحديث الدابة وأنها ستخرج في آخر الزمان»[(١)].

وينقسم الغيب من حيث علم المخلوقين به إلىٰ قسمين: غيب حقيقي، وغيب إضافي. قال صاحب المنار: «والغيب قسمان: غيب حقيقي مطلق؛ وهو ما غاب علمه عن جميع الخلق حتىٰ الملائكة، وفيه يقول الله عز وجل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. وغيب إضافي وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض؛ كالذي يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره ولا يعلمه البشر، وأما ما يعلمه البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها، ولا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الأسباب أو عجزهم عن استعمالها، فلا يدخل في عموم معنىٰ الغيب الوارد في كتاب الله»[(٢)].

---

(١) العقيدة (١/ ٤٠ - ٤٤).

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (٧/ ٤٢٢ - ٤٢٥).

فالأمور الغيبية تنقسم إلىٰ قسمين: القسم الأول: ما كان غيبًا في وقتٍ محدد، فيطلع الله عليها من ارتضىٰ من رسله، فيخبر بها الرسل فلا تكون غيبًا بعد إخبارهم، والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ۝٢٨﴾ [الجن: ٢٦ – ٢٨]. «قال العلماء رحمة الله عليهم: لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه كان فيه دليلٌ علىٰ أنه لا يعلم الغيب أحدٌ سواه، ثم استثنىٰ من ارتضاه من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم وجعله معجزةً لهم ودلالةً صادقةً علىٰ نبوتهم»(١).

فقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي «من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار، والغيوب. ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ أي: فإنه يخبره بما اقتضت حكمته، أن يخبره به. وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم، فإن الله أيدهم بتأييدٍ ما أيده أحدًا من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتىٰ يبلغوه علىٰ حقيقته، من غير أن تقربه الشياطين، فيزيدوا فيه أو ينقصوا»(٢).

القسم الثاني: ما اختص الله بعلمه، ولم يعلمه أحدٌ لا ملكٌ مقرب ولا نبيٌ مرسل، كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝٦٥﴾ [النمل:٦٥]. «يخبر تعالىٰ أنه المنفرد بعلم غيب السموات والأرض، كقوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٨).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٨٩١ – ٨٩٢).

يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩] وكقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤] إلىٰ آخر السورة. فهذه الغيوب ونحوها اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملكٌ مقرب، ولا نبيٌ مرسل. وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك المحيط علمه بالسرائر، والبواطن، والخفايا، فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له»[1].

ولقد وقف الإنسان منذ بدء الخليقة أمام ستر الغيب المحجوب، لا ينفذ إليه علمه ولا يعرف مما وراء الستر المسدل، إلا بقدر ما يكشف له منه علام الغيوب، وكان الخير في هذا الذي أراده الله، فلو علم الله أن في كشف هذا الستر المسبل خيرًا لكشفه للإنسان المتطلع الشديد إلىٰ ما وراءه!

وليس الإنسان وحده هو المحجوب عن غيب الله، ولكن كل من في السماوات والأرض من خلق الله، من ملائكةٍ وجنٍ وغيرهم ممن علمهم عند الله، فكلهم موكلون بأمورٍ لا تستدعي انكشاف ستر الغيب لهم، فيبقي سره عند الله دون سواه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩]. «وهذه الآية الكريمة تدل علىٰ أن الغيب لا يعلمه إلا الله، وهو كذلك لأن الخلق لا يعلمون إلا ما علمهم خالقهم جل وعلا»[2].

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ «المفاتح جمع مفتح بالفتح وهو المخزن أي عنده مخازن الغيب، جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها علىٰ طريق

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٦٠٨).

(٢) أضواء البيان (١/ ٤٨١).

الاستعارة، أو جمع مفتح بكسر الميم وهو المفتاح، جعل للأمور الغيبية مفاتح يتوصل بها إلىٰ ما في المخازن منها علىٰ طريق الاستعارة أيضًا، ويؤيد أنها جمع مفتح بالكسر قراءة ابن السميفع ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ فإن المفاتيح جمع مفتاح، والمعنىٰ إن عنده سبحانه، خاصة مخازن الغيب أو المفاتح التي يتوصل بها إلىٰ المخازن»(١).

فمخازن الغيب ومفاتيحها هي مما استأثر الخالق سبحانه بعلمه. «والمفاتح... هي خزائن العذاب والرزق، أو ما غاب عن العباد من الثواب والعقاب والآجال والأحوال، جعل للغيب مفاتح علىٰ طريق الاستعارة؛ لأن المفاتح يتوصل بها إلىٰ ما في الخزائن المستوثق منها بالإغلاق والإقفال، ومن علم مفاتحها وكيفية فتحها توصل إليها، فأراد أنه هو المتوصل إلىٰ المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره، كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحها فهو المتوصل إلىٰ ما في المخازن قيل عنده مفاتح الغيب وعندك مفاتح الغيب»(٢).

ومفاتيح الغيب الواردة في هذه الآية هي ما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]. «فهذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالىٰ بعلمها فلا يعلمها أحدٌ إلا بعد إعلامه تعالىٰ بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبيٌ مرسل ولا ملكٌ مقرب ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالىٰ سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكرًا أو أنثىٰ أو شقيًا أو سعيدًا علم الملائكة

(١) فتح القدير (٢/ ١٢٣).
(٢) تفسير النسفي (١/ ٣٢٦).

الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه، وكذا لا تدري نفسٌ ماذا تكسب غدًا في دنياها وأخراها، وما تدري نفس بأي أرضٍ تموت في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان لا علم لأحدٍ بذلك، وهذه شبيهةٌ بقوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب... فعن أبي بريدة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خمسٌ لا يعلمهن إلا الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝٣٤﴾ [لقمان: ٣٤]»(١).

وفي حديثٍ آخر أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتح الغيب خمس**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝٣٤﴾ [لقمان: ٣٤]»(٢). فالآية ٣٤ من سورة لقمان، هي تفسير لمطلع الآية ٥٩ من سورة الأنعام كما ورد في الحديث السابق.

وهذه الخمس إما أن تكون مفاتيح توصل إلىٰ الغيوب وتَفتحُ عن المُغيَّبات، وإما أن تكون هي مخازن للغيوب، والمعنىٰ الأول هو الظاهر.

والمقصود بمفاتح الغيب الأمور التي عندها تظهر الأمور المُقدّرة في عالم الغيب، أي الأمور التي تكون المفاتيح لظهور عالم القَدَر بعد أن كان غيبًا في عالم القضاء. و«هذه الآية العظيمة، من أعظم الآيات تفصيلًا، لعلمه المحيط، وأنه شاملٌ للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه. وكثيرٌ منها طوىٰ علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين فضلًا عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصىٰ، والتراب. وما في البحار، من

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٤).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٦٩٣).

حيوانات، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها. ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ من أشجار البر والبحر والبلدان والقفر، والدنيا والآخرة، إلا يعلمها. ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ من حبوب الثمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق؛ وبذور النباتات البرية التي ينشيء منها أصناف النباتات. ﴿وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ هذا عمومٌ بعد خصوص ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ قد حواها واشتمل عليها.

وبعض هذا المذكور يبهر عقول العقلاء ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته، في أوصافه كلها، وأن الخلق من أولهم إلى آخرهم لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرةٌ، ولا وسعٌ في ذلك. فتبارك الرب العظيم، الواسع العليم، الحميد المجيد، الشهيد المحيط. وجل من إلهٍ، لا يحصي أحدٌ ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده فهذه الآية دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث»(١).

«وليست المغيبات محصورةً بهذه الخمس، وإنما خصت بالذكر لوقوع السؤال عنها أو لأنها كثيرًا ما تشتاق النفوس إلى العلم بها، وقال القسطلاني: ذكر ﷺ خمسًا وإن كان الغيب لا يتناهى؛ لأن العدد لا ينفي زائدًا عليه، ولأن هذه الخمسة هي التي كانوا يدعون علمها. وفي التعليل الأخير نظرٌ لا يخفى، وأنه يجوز أن يطلع الله تعالى بعض أصفيائه على إحدى هذه الخمس، ويرزقه عز وجل العلم بذلك في الجملة، وعلمها الخاص به جل وعلا ما كان على وجه الإحاطة والشمول لأحوال كلٍ منها وتفصيله على الوجه الأتم، وفي شرح المناوي الكبير للجامع الصغير في الكلام على

(١) تفسير السعدي (١/ ٢٥٩).

حديث بريدة السابق خمس لا يعلمهن إلا الله علىٰ وجه الإحاطة والشمول كليًا وجزئيًا فلا ينافيه إطلاع الله تعالىٰ بعض خواصه علىٰ بعض المغيبات حتىٰ من هذه الخمس لأنها جزئياتٌ معدودة، وإنكار المعتزلة لذلك مكابرة.

ويعلم مما ذكرنا وجه الجمع بين الأخبار الدالة علىٰ استئثار الله تعالىٰ بعلم ذلك وبين ما يدل علىٰ خلافه كبعض إخباراته عليه الصلاة والسلام بالمغيبات التي هي من هذا القبيل، يعلم ذلك من راجع نحو الشفاء والمواهب اللدنية مما ذكر فيه معجزاته ﷺ وإخباره عليه الصلاة والسلام بالمغيبات، وذكر القسطلاني أنه عَزَّوَجَلَّ إذا أمر بالغيث وسوقه إلىٰ ما شاء من الأماكن علمته الملائكة الموكلون به ومن شاء سبحانه من خلقه عَزَّوَجَلَّ، وكذا إذا أراد تبارك وتعالىٰ خلق شخصٍ في رحم يُعِلمُ سبحانه الملك الموكل بالرحم بما يريد جل وعلا، كما يدل عليه ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: إن الله تعالىٰ وكل بالرحم ملكًا يقول: يا رب نطفة، يا رب علقة، يا رب مضغة. فإذا أراد الله تعالىٰ أن يقضي خلقه قال: أذكرٌ أم أنثىٰ؟ شقيٌ أم سعيدٌ؟ فما الرزق والأجل؟ فيكتب في بطن أمه، فحينئذ يعلم بذلك الملك ومن شاء الله تعالىٰ من خلقه عَزَّوَجَلَّ، وهذا لا ينافي الاختصاص والاستئثار بعلم المذكورات بناءً علىٰ ما سمعت منا من أن المراد بالعلم الذي أستأثر سبحانه به العلم الكامل بأحوال كلٍ علىٰ التفصيل، فمما يعلم به الملك ويطلع عليه بعض الخواص يجوز أن يكون دون ذلك العلم بل هو كذلك في الواقع بلا شبهة، وقد يقال فيما يحصل للأولياء من العلم بشيءٍ مما ذكر إنه ليس بعلم يقيني، قال علي القارئ في شرح الشفا الأولياء: وإن كان قد ينكشف لهم بعض الأشياء، لكن علمهم لا يكون يقينيًا وإلهامهم لا يفيد إلا أمرا ظنيًا، ومثل هذا

عندي، بل هو دونه بمراحل علم النجومي ونحوه بواسطة أمارات عنده بنزول الغيث، وذكورة الحمل أو أنوثته أو نحو ذلك، ولا أرىٰ كفر من يدعي مثل هذا العلم فإنه ظنٌّ عن أمرٍ عادي، وقد نقل العسقلاني في فتح الباري عن القرطبي أنه قال: من ادعىٰ علم شيءٍ من الخمس غير مسندةٍ إلىٰ رسول الله ﷺ كان كاذبًا في دعواه، وأما ظن الغيب فقد يجوز من المنجم وغيره إذا كان عن أمرٍ عادي وليس ذلك بعلم، وعليه فقول القسطلاني: من ادعىٰ علم شيءٍ منها فقد كفر بالقرآن العظيم، ينبغي أن يحمل العلم فيه علىٰ نحو العلم الذي أستأثر الله تعالىٰ به دون مطلق العلم الشامل للظن وما يشبهه، وبعد هذا كله أن أمر الساعة أخفىٰ الأمور المذكورة، وأن ما أطلع الله تعالىٰ عليه نبيه ﷺ من وقت قيامها في غاية الإجمال، وإن كان أتم من علم غيره من البشر ﷺ.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» لا يدل علىٰ أكثر من العلم الإجمالي بوقتها.

وأخرج أحمد وجماعة عن أبي غرة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله تعالىٰ قبض عبدٍ بأرض جعل له إليها حاجةً، فلم ينته حتىٰ يقدمها**»، ثم قرأ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن خيثمة: أن ملك الموت مر علىٰ سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلىٰ رجلٍ من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل: من هذا؟ قال ملك الموت، فقال: كأنه يريدني فَمُرِ الرِّيح أن تحملني وتلقيني بالهند، ففعل، فقال الملك: كان دوام نظري إليه تعجبًا منه، إذ أُمرتُ أن أقبض روحه بالهند وهو عندك»(١).

(١) روح المعاني (٢١/ ١١٢ – ١١٣).

مما سبق يتبين أن مفاتح الغيب خمسةٌ ينبغي علىٰ المسلم ألا ينشغل بالتفكير فيها وهي:

١- **علم الساعة، ومتىٰ تقع**، فهذا من الأمور الغيبية لنا ولمن قبلنا ولمن بعدنا، فلا يعلمها نبيٌ مرسلٌ ولا ملكٌ مقربٌ، ومهما رأينا من أشراطها وعلاماتها ومهما ظننا واستشعرنا سيبقىٰ علمها عند علام الغيوب لا يعلمها إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، أما علمنا فمقتصر علىٰ اليقين بأنها قادمةٌ لا محالة، فلا يفكر المسلم متىٰ ستقوم الساعة بل يفكر بالعمل الذي ينجيه في ذلك اليوم.

وعند قيام الساعة تتجلىٰ للناس أسرارٌ وأمورٌ غيبيةٌ عن هذه الحياة الجديدة ألا هي الحياة الأخروية، فوقوع الساعة هو المفتاح الذي لا بد منه لتجلّي هذه الغيوب، فالساعة فاتحةٌ للآخرة التي هي النهاية.

ومن الأدلة علىٰ أن علم الساعة غيبٌ لا يعلمه إلا الله قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب:٦٣]، ومن السنة يقول عليه الصلاة والسلام حين سأله جبريل عليه السلام: «**مَتَىٰ السَّاعَةُ؟ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الْأَمَةُ رَبَّهَا وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا الله» ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ** ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤](١).

٢- **نزول الغيث**: ومهما تطور العلم وتقدم، ووجدت الأرصدة الفلكية، إلا أن

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٨٧).

ما يقوله أصحاب الفلك لا يقع دومًا، ثم لو قالوا بأن غدًا سينزل مطر، فلا يمكن أن يحددوا بدقة البقع التي سيقع عليها المطر، وكميات الأمطار التي ستنزل، أضف إلىٰ ذلك أن هذه الأرصدة لم تنفع في كثيرٍ من الأمور، فكم من أرواحٍ ذهبت، وحرائق اندلعت، بسبب أمطارٍ ورياحٍ وأعاصير.

ولو استطاع العلم أن يعلم ما هو كائنٌ في علم الغيب لما رأينا الأرض تنشق وتبتلع من عليها ومن فيها، ولما رأينا البحار تهيج وتموج وتجعل البعض رزقًا سهلًا سائغًا ينزل في بطن الحوت. قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: ٤٨ - ٥٠].

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[يونس: ٢٢- ٢٣].

يقول الشيخ محمد بن عثيمين: «لكن يرد علينا أننا نسمع في الإذاعات، يقولون: سينزل غدًا مطرٌ في جهاتٍ معينةٍ، فهل هذا ينافي أن علم نزول الغيث خاصٌ بالله؟

فالجواب: أن هذا يشكل علىٰ كثيرٍ من الناس، فيظن أن هذه التوقعات - التي تذاع في الإذاعات - يظن أنها تعارض قول الله - تعالىٰ -: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩]، والحقيقة أنها لا تعارض ذلك؛ لأن علمهم بهذا علمٌ مستندٌ إلىٰ

محسوسٍ لا إلىٰ غيب، وهذا المحسوس هو أن الله عَزَّوَجَلَّ حكيمٌ، كل شيءٍ يقع له سبب، فالأشياء مربوطةٌ بأسبابها، فقد تكون الأسباب معلومةٌ لكل أحد، وقد تكون معلومةً لبعض الناس، وقد تكون غير معلومةٍ لأحد فإننا لا نعلم سبب كل شيءٍ وحكمة كل شيء، المطر إذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ إنزاله، فإن الجو يتغير تغيرًا خاصًا، يتكون معه السحاب، ثم نزول المطر، كما أن الحامل عندما يريد الله عَزَّوَجَلَّ أن يخرج منها الولد فإن الجنين ينشأ في بطنها شيئًا فشيئًا حتىٰ يصل إلىٰ الغاية فهؤلاء عندهم مراصد دقيقة، تلامس الجو، ويعرف بها تكيف الجو، فيقولون إنه سيكون مطرًا، ولهذا نجدهم لا يتجاوز علمهم أكثر من ثمان وأربعين ساعة هذا أكثر ما سمعت.

وإن كان قد قيل: إنهم وصلوا إلىٰ أن يعلموا مدىٰ ثلاثة أيام، علىٰ كل حالٍ فعلمهم محدود؛ لأنه مبنيٌ علىٰ أسبابٍ حسيةٍ لا تدرك إلا بواسطة هذه الآلات، ونحن مثلًا بحسنا القاصر إذا رأينا السماء ملبدةً بالغيوم، ورأينا هذا السحاب يرعد ويبرق، فإننا نتوقع أن يكون ذلك مطرًا، هم كذلك يتوقعون إذا رأوا في الجو تكيفًا معينًا يصلح معه أن يكون المطر، وحينئذٍ لا معارضة بين الآية وبين الواقع، علىٰ أنهم أيضًا يتوقعون توقعًا فربما يخطئون وربما يصيبون»[(١)].

ونزول الغيث مفتاحٌ لأمورٍ غيبيةٍ تتعلق بعالم الحياة، منها إحياء الأرض بعد موتها، وظهور النبات وبقاء كثيرٍ من الكائنات الحية والتي يتعلق بقاؤها بوجود المطر.

٣- **ما في الأرحام**: وما في الأرحام ليس غيبًا علىٰ الإطلاق، بل هو غيبٌ في وقتٍ محدد، وبأمورٍ محددة، فمنذ أن يكون نطفةً إلىٰ أن يبلغ أربعة أشهر يكون أمره

---

(١) مجموع فتاوىٰ الشيخ محمد بن عثيمين المجلد ٥، ص ٢٧١ – ٢٧٢.

غيبًا علىٰ جميع الخلق، وبعد ذلك ينكشف شيء من الغيب، فبعد أن يرسل الملك يؤمر بكتب أجله ورزقه وشقيٌ أو سعيدٌ، كما ورد بذلك الحديث عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**وكَّل الله بالرحم ملكًا فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب ذكرٌ أم أنثىٰ؟ أشقيٌ أم سعيدٌ؟ فما الرزق فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه**»(١). وفي رواية أخرىٰ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح**»(٢)، فبهذه الأحاديث يتبين أن بعض الغيب قد انكشف للملَك، فأصبح يعلم عن هذا الجنين هل هو ذكرٌ أو أنثىٰ، شقيٌ أو سعيدٌ، وعن أجله ورزقه، ولا يكون ذلك إلا بعد أربعة أشهر.

والعلم الحديث يستطيع أن يعرف ما في رحم المرأة بعد أربعة أشهر، هل هو ذكرٌ أو أنثىٰ فقط؟ وتخفىٰ عليه بقية الأمور، هل سيكتمل هذا الجنين أم لا؟ وهل سيولد حيًا أو يموت في بطن أمه أو بعد ولادته؟ وإن ولد حيًا فما لونه؟ وكم طوله ووزنه؟ وما مقدار بقائه في الدنيا؟ وهل هو من أهل السعادة أو من أهل الشقاوة؟ وما مقدار رزقه في حياته؟ وماذا قدر لهذا الجنين من صحةٍ وعافيةٍ؟ إلىٰ غير ذلك من الأسئلة.

ومن هنا يتبين أن علم الله لما في الأرحام شاملٌ لكل شيء، بخلاف الخلق ومنهم المَلَك الموكَّل بالرحم، فعلمهم بأشياء معينةٍ فقط مرّ ذكرها. فما يستقر في عالم

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ٢٤٣٣).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١١٧٤).

الأرحام بكل تفاصيله واحتمالاته وظروفه ونتائجه، لا يلمّ بشموله إلا علام الغيوب. قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ٨ – ٩]. فهناك غيوبٌ تتعلق بعالم الأحياء مفتاحها ما يستقر في الأرحام.

٤- **لا تدري نفس ماذا تكسب غدًا:** فمهما عمل الإنسان ورتب أموره، فلا يدري عن كسبه من جميع نواحي الحياة المجهولة، وعما سيجري له في غده ومستقبل أمره، من أقوالٍ وأفعالٍ حتىٰ يتوفاه الله، فما بين غمضة عينٍ وانتباهها يغير الله من حالٍ إلىٰ حال، فعلىٰ المسلم أن ينوي فعل الخير والنافع له في دينه ودنياه وآخرته، ويسعىٰ لتحقيقه في حاضره ومستقبل أمره، ومع ذلك يقيد ذلك بمشيئة الله، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ۝٢٤﴾ [الكهف: ٢٣ – ٢٤]. فهناك غيوبٌ لا تظهر حتىٰ يمر الزمن، فكل زمنٍ يكون مفتاحًا لغيوب مقدّرة.

٥- **لا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت:** وهذه من الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا الله فلا داعي لإشغال النفس بالتفكير فيها، بل علىٰ المسلم أن يستعد للموت بالأعمال الصالحة التي تنفعه في حياته وبعد مماته، فكم من إنسانٍ ولد في بلدٍ أو مدينةٍ وعاش وترعرع فيها وتوفي في مكانٍ آخر، وصدق الله حين قال: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان: ٣٤]. فموت الإنسان متىٰ سيكون؟ وكيف سيكون؟ وأين سيكون؟ كل ذلك علمه عند الله علاّم الغيوب. ومهما حاول الإنسان الهروب من الموت إلا أنه حاصلٌ لا محالة كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن

دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣].

والموت مفتاحٌ لما بعده من الغيوب في عالم البرزخ حتىٰ تقوم الساعة، فقوله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤] فاتحة لقيامة كل إنسانٍ بحسبه، فمن مات فقد قامت قيامته.

وما يَتَحصّلُ للبشر من علمٍ جُزئيٍّ ببعض هذه المُغيّبات؛ فإما أن يكون بإخبار الوحي، أو بالرؤيا الصادقة، أو بالإلهام، أو بمقدماتٍ تُشير وتُعلِن فتصدق أو لا تصدق.



المبحث الثالث
النهي عن التفكير في الروح

كلمة «الروح» وردت في القرآن الكريم في مواضع عدة، فأحيانًا يُراد به جبريل عليه السلام، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥]. فقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ هو جبريل عليه السلام، قاله غير واحد من السلف؛ ابن عباس، ومحمد بن كعب، وقتادة، وعطية العوفي، والسدي، والضحاك، والزهري، وابن جريح، وهذا مما لا نزاع فيه. قال الزهري: وهذه كقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة: ٩٧][(١)].

وأحيانًا يراد به الوحي كما في قوله تعالىٰ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: ١٥]. وقوله تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢]. فقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ أي الوحي كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٨).

صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢][١]. «المراد بالروح، الوحي لأن الوحي به حياة الأرواح، كما أن الغذاء به حياة الأجسام... ومما يدل علىٰ أن المراد بالروح الوحي إتيانه بعد قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ بقوله: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ لأن الإنذار إنما يكون بالوحي، بدليل قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، وكذلك إتيانه بعد قوله: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ بقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ الآية. لأن الإنذار إنما يكون بالوحي أيضًا[٢].

ومن جملة الوحي القرآن الكريم وهو نازلٌ من الدين منزلة الروح من الجسد، ولذلك يراد أحيانًا لفظ الروح ويراد به القرآن الكريم خاصة، إذا كان المخاطَب النبي محمد ﷺ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وأحيانًا يراد به ما تقوم به حياة الإنسان، فإذا خرجت مات الإنسان، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]. و «صرف الجواب عن ماهيتها لأنه ليس من شؤون العقل ولا من مداركه توجيه وشفقة هما التوجيه السديد حتىٰ لا يتيه العقل فيما ليس من دركه وليس من طاقته، وهما لا شك تكريمٌ وأي تكريم»[٣].

والروح سرّ الحياة في الإنسان قد اختصّ الله - سبحانه - بعلمها، وصارت

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٦٢).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٣٢٨).

(٣) إتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، د/ فهد الرومي، (٢/ ٧١٣).

معرفتها أمرًا محيّرًا للبشرية منذ أقدم العصور؛ فلم يستطع أحدٌ ولن يستطيع أن يعرف كنهها أو يجلو سرًا من أسرارها؛ لأنها من أمر الله.

وكلمة الروح في هذه الآية المراد بها الروح الإنسانية التي بوجودها حياته، وبخروجها مماته، كما هو قول كثيرٍ من المفسرين. ويبين ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧﴾ [الواقعة: ٨٣ – ٨٧]. وكما في قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [القيامة: ٢٦ – ٣٠].

وعقول البشر قاصرةٌ عن معرفة حقيقة الروح، ولذلك أحال الرب جل جلاله علمها إليه فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، ولذلك فالمسلم لا ينبغي له أن يفكر في هذا الأمر الذي لا فائدة من التفكير فيه.

«فإن الروح التي في الإنسان تتعدىٰ ما يفهمه البعض من أنها الفارق بين الحي والميت، بحيث تفهم أنها النفس أو نبض القلب فقط، وإنما الروح أمرٌ نورانيٌ علويٌ عجيبٌ نعلم وجوده ولكن نجهله كثيرًا»(١).

«والمعنىٰ العلمي لهذه الآية أن الروح أمرٌ يصعب علىٰ البشر أن يفهموه؛ لأنها أكبر من علمهم وعقولهم، ومهما أوتي الإنسان من العلم لن يفهم حقيقة الروح، وهذا هو السر في هذا الرد المقتضب، حتىٰ لا يقع الناس في البلبلة والظنون، وينشغلوا عن الدعوة الجديدة بأمورٍ فلسفية»(٢).

---

(١) عبادة القلب، د/ عبدالرحمن المحمود، ص ١٠.

(٢) آفاق الروح، تأليف البرفسور عبدالباسط محمد السيد، ص ٩٩ – ١٠٠.

«وورد أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا ما الروح؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد؟ وإنما الروح من الله عَزَّوَجَلَّ، ولم يكن نزل عليه فيه شيءٌ فلم يحر إليهم شيئًا، فأتاه جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال له: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فأخبرهم النبي ﷺ بذلك، قالوا له من جاءك بهذا؟ فقال لهم النبي ﷺ: جاءني به جبريل من عند الله، فقالوا: والله ما قاله لك إلا عدوٌ لنا. فأنزل الله تبارك اسمه: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ »(١).

«وورد في روايةٍ أخرىٰ أن اليهود قالوا لقريش: سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فإن أجاب عنها جميعًا أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعضٍ وسكت عن بعضٍ فهو نبي، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهمٌ في التوراة ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ أظهر في مقام الإضمار إظهارًا لكمال الاعتناء بشأنه ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ كلمةٌ بيانيةٌ والأمر بمعنىٰ الشأن، والإضافة للاختصاص العلمي لا الإيجادي لاشتراك الكل فيه، وفيها من تشريف المضاف مالا يخفىٰ كما في الإضافة الثانية من تشريف المضاف إليه، أي هو من جنس ما استأثر الله تعالىٰ بعلمه من الأسرار الخفية التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر»(٢).

قال القرطبي: «وذهب أكثر أهل التأويل إلىٰ أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد، وقال أهل النظر منهم: إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه في بدن الإنسان وكيف امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به، وهذا شيءٌ لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ. وقال أبو صالح: الروح خلقٌ كخلق بني آدم، وليسوا ببني آدم، لهم أيدٍ وأرجل،

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ١٥٦).

(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ١٩٢).

والصحيح الإبهام لقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أي: هو أمرٌ عظيمٌ وشأنٌ كبيرٌ من أمر الله تعالىٰ، مبهمًا له وتاركًا تفصيله، ليعرف الإنسان علىٰ القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها، وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولىٰ، وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوقٍ مجاورٍ له دلالةً علىٰ أنه عن إدراك خالقه أعجز»[1].

وقال الشوكاني: «قال الفراء: الروح الذي يعيش به الإنسان لم يخبر الله سبحانه به أحدًا من خلقه، ولم يعط علمه أحدًا من عباده فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أي إنكم لا تعلمونه... وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح المتكلفين لبيان ماهيته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر، ويردعهم أعظم ردع، وقد أطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتم له المقام، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دينٍ ولا دنيا... وقد حكىٰ بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت إلىٰ ثمانية عشر ومائة قول، فانظر إلىٰ هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع، بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه ولم يطلع عليه أنبياءه، ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته، فضلًا عن أممهم المقتدين بهم فيا لله العجب، حيث تبلغ أقوال أهل الفضول إلىٰ هذا الحد الذي لم تبلغه ولا بعضه في غير هذه المسألة مما أذن الله بالكلام فيه ولم يستأثر بعلمه. ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله سبحانه ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي أن علمكم الذي علمكم الله ليس إلا المقدار القليل بالنسبة إلىٰ علم الخالق سبحانه، وإن أوتي حظًا من العلم وافرًا بل علم الأنبياء عليهم السلام

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ٣٢٤).

ليس هو بالنسبة إلىٰ علم الله سبحانه إلا كما يأخذ الطائر في منقاره من البحر كما في حديث موسىٰ والخضر عليهما السلام»[(١)].

وقال الألوسي: «والظاهر عند المنصف أن السؤال كان عن حقيقة الروح الذي هو مدار البدن الإنساني ومبدأ حياته؛ لأن ذلك من أدق الأمور التي لا يسع أحدًا إنكارها، ويشرئب كلٌّ إلىٰ معرفتها، وتتوفر دواعي العقلاء إليها، وتكل الأذهان عنها، ولا تكاد تُعلم إلا بوحي»[(٢)].

«ففي هذه الآية ردعٌ لمن يسأل المسائل التي يقصد بها التعنت والتعجيز ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كل أحدٍ، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد، ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أي من جملة مخلوقاته التي أمرها أن تكون فكانت فليس في السؤال عنها كبير فائدةٍ مع عدم علمكم بغيرها»[(٣)].

«وقد عجزت الأوائل عن إدراك ما هيته بعد إنفاق الأعمار الطويلة علىٰ الخوض فيه، والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوقٍ مجاورٍ له، ليدل علىٰ أنه عن إدراك خالقه أعجز»[(٤)].

وقال ابن عاشور في تفسيره: «وسُؤالهم عن الروح معناه أنهم سألوا عن بيان

---

(١) فتح القدير (٣/ ٢٥٤).

(٢) روح المعاني (١٥/ ١٥١).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٤٦٦).

(٤) تفسير النسفي (٢/ ٢٩٨).

ماهية ما يعبر عنه في اللغة العربية بالروح، والتي يعرف كل أحدٍ بوجه الإجمال أنها حالّةٌ فيه.

والروح: يطلق على الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني الذي دلت عليه آثاره من الإدراك والتفكير، وهو الذي يتقوم في الجسد الإنساني حين يكون جنينًا بعد أن يمضي على نزول النطفة في الرحم مائة وعشرون يومًا، وهذا الإطلاق هو الذي في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢]. وهذا يسمى أيضًا بالنفس كقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفجر: ٢٧]. وإنما سألوا عن حقيقة الروح وبيان ماهيتها، فإنها قد شغلت الفلاسفة وحكماء المتشرعين، لظهور أن في الجسد الحي شيئًا زائدًا على الجسم، به يكون الإنسان مدركًا، وبزواله يصير الجسم مسلوبَ الإرادة والإدراك، فعلم بالضرورة أن في الجسم شيئًا زائدًا على الأعضاء الظاهرة والباطنة غير مشاهد، إذ قد ظهر بالتشريح أن جسم الميت لم يفقد شيئًا من الأعضاء الباطنة التي كانت له في حال الحياة.

وإذ قد كانت عقول الناس قاصرةً عن فهم حقيقة الروح وكيفية اتصالها بالبدن وكيفية انتزاعها منه وفي مصيرها بعد ذلك الانتزاع، أجيبوا بأن الروح من أمر الله، أي أنه كائنٌ عظيمٌ من الكائنات المشرفة عند الله، ولكنه مما استأثر الله بعلمه. فلفظ «أمر» يحتمل أن يكون مرادف الشيء. فالمعنى: الروح بعض الأشياء العظيمة التي هي لله، فإضافة «أمر» إلى اسم الجلالة على معنى لام الاختصاص، أي أمر اختص بالله اختصاص علم»(١).

و«يقرر الفلاسفة والعلماء أنه مهما بلغ اجتهادهم وتبحرهم في العلم وأكثروا

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٩٧-١٩٨).

من التأمل والتفكير في الكون فإنهم أعجز من أن يقطعوا برأيٍ حاسمٍ في حقيقة الروح، أو التعرف علىٰ أي شيء من ماهيتها، وقد حاول بعض كبار الفلاسفة القدماء أن يحلوا لغز الروح، ويكشفوا عن سرها فحاموا حول حماها، وأكثروا من التأمل والتفكير في أمرها، ولكنهم لم يصلوا إلىٰ شيءٍ يكشف عن جوهرها، وخير ما قيل في الروح ما جاء في آيات الله وأحاديث رسوله عن النفس الإنسانية ذاتها، وأنها سرٌّ مكنونٌ في كيان الإنسان مثل الروح من حيث أنها شيءٌ يحس بمختلف الأحاسيس من اطمئنانٍ وقلقٍ وسعادةٍ وشقاءٍ، وغير ذلك من تقلبٍ في شتىٰ الانفعالات والحالات الشعورية والوجدانية»(١).

و«لقد حاول الإنسان منذ القدم أن يعرف ما هي الروح وما هو الموت، ومع عصر التفجير العلمي في القرن العشرين بدأ الإنسان الاستعانة بالأجهزة العلمية الدقيقة في دراسة الروح، واعترفت الكثير من الجامعات العلمية بهذا العلم في أوربا وأمريكا، فخصصت له مقعدًا للتدريس والتعليم مع غيره من الظواهر التي تسمىٰ ما وراء الطبيعة، وكان أولها في جامعة كامبردج سنة ١٩٤٠م، ثم أكسفورد سنة ١٩٤٣م، ثم تتابعت الجامعات.

كذلك تكونت جمعياتٌ أهليةٌ كثيرةٌ في أنحاء العالم من الهواة والباحثين الجادين تتبادل التجارب العلمية، ويتبادلون آخر ما توصلوا إليه من علم.

ومن أوائل التجارب التي كانوا يجرونها أن يضعوا إنسانًا يحتضر علىٰ جهاز به ميزان لتقدير وزن الروح بعد خروجها من الجسم، ويضعون علىٰ رأسه جهاز EEG لقياس ذبذبات المخ الكهربائية أثناء الوفاة، وعلىٰ قلبه جهاز لرسم القلب EGG.

---

(١) القرآن وإعجازه العلمي (١/ ١٢٦)، المؤلف: محمد إسماعيل إبراهيم.

كذلك وضعوا كاميرات خاصة تعمل بالأشعة تحت الحمراء لتصوير الروح أثناء خروجها، حيث وجدوا أنها لا تظهر بالضوء العادي... ورغم هذه الأبحاث والإنجازات فما زالت الإنسانية في أول الطريق، وما زال موضوع الروح أحد الأسرار الغامضة على العلم، وما يزال الدين هو مصدر العلم الرئيسي عن سر الروح»[١].

ومما سبق تتبين حيرة العلماء والفلاسفة في أمر الروح، فلم يجدوا لها لونًا ولا رائحةً ولا شكلًا ولا صوتًا، ووقفوا عاجزين تمامًا عن إدراك حقيقتها.

والروح لطيفةٌ ربانيةٌ ليس لها وجودٌ ماديٌ أصلًا، فنحن لا نراها ولا نسمع صوتها، لا لأنها غير موجودة ولكن لقصورٍ في العين البشرية والأذن البشرية عن إدراكها، والقرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة فيذكر أن هناك أشياء كثيرةً حولنا لا نراها بأعيننا فيقول تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾ [الحاقة: ٣٨ – ٣٩].

---

(١) آفاق الروح، تأليف البروفسور عبدالباسط محمد السيد، ص٩٥ – ٩٨.

الفصل الخامس
عوائق التفكير السليم كما نبه عليها القرآن الكريم

وفيه أربعة مباحث:

- ❑ **المبحث الأول**: التقليد الأعمىٰ والتعصب للآراء الباطلة.
- ❑ **المبحث الثاني**: اتباع الهوىٰ.
- ❑ **المبحث الثالث**: الجهل.
- ❑ **المبحث الرابع**: الكِبْر.



المبحث الأول اتباع الهوى

معنىٰ الهوىٰ لغة: «الهوىٰ مقصور هوىٰ النفس والجمع الأهواء»[(١)]. «ويطلق علىٰ ميل النفس وانحرافها نحو الشيء، ثم استعمل في ميلٍ مذمومٍ فيقال اتبع هواه وهو من أهل «الأهواء»[(٢)].

وفي التنزيل العزيز: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ [إبراهيم: ٤٣] يقال فيه: إنه لا عقول لهم. وقال الزجاج: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾: أي منحرفة[(٣)].

«وقال اللغويون: الهوىٰ محبة الإنسان الشيء وغلبته علىٰ قلبه، ومتىٰ تكلم بالهوىٰ مطلقًا لم يكن إلا مذمومًا حتىٰ ينعت بما يخرج معناه، كقولهم هوىٰ حسن هوىٰ موافق للصواب»[(٤)].

ومن هذه التعاريف يتضح أن المراد باتباع الهوىٰ في اللغة هو: السير وراء ما تهوىٰ النفس، وما تشتهي، وما تحب وتعشق.

وأما اتباع الهوىٰ في الاصطلاح فهو: «ميل النفس إلىٰ ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع، وقال البقاعي: نزوع النفس لسفل شهواتها في مقابلة معتلىٰ

---

(١) مختار الصحاح (١/ ٢٩٣)، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي.

(٢) المصباح المنير (٢/ ٦٤٣)، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي.

(٣) لسان العرب (١٥/ ٣٧١).

(٤) لسان العرب (١٥/ ٣٧٤).

الروح المنبعث انبساطه»[١]. «وقال ابن زكريا الأنصاري: الهوىٰ ميل القلب إلىٰ ما يستلذ به»[٢].

«وسمي الهوىٰ بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلىٰ كل داهيةٍ وفي الآخرة إلىٰ الهاوية»[٣].

معناه في مراد الباحث: ميل النفس إلىٰ ما ترغب وتحب، من قولٍ أو فعلٍ، ظاهرٍ أو باطن، لايقبله الشرع، وترفضه العقول السليمة والفطر المستقيمة.

❑ أثر اتباع الهوى على التفكير السليم:

يقول ابن أبي الدنيا: «وأما الهوىٰ فهو عن الخير صادٌّ، وللعقل مضادٌّ؛ لأَنَّه ينتج من الأخلاقِ قَبائحها، ويظهِر من الأَفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكًا، ومدخل الشَّر مسلوكًا. وقَال عبد الله بن عباس: الهوىٰ إِلَهٌ يُعبَد من دونِ الله. ثُمَّ تَلَا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]»[٤].

والهوىٰ مقرون بالنفس الإنسانية المرتبطة بالضعف والقصور والخطأ، يتبين ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨]. ويقول ﷺ: «**كلُّ بني آدم خَطَّاءٌ وخيرُ الخَطَّائِينَ التوابون**»[٥]، ولذلك حذَّر ربنا جل جلاله من اتباع الهوىٰ المضل.

وعند تَتَبُّع النصوص القرآنية نجد التحذير من اتباع الهوىٰ في آيات كثيرة، منها

---

(١) نظم الدرر (١/ ١٨٩).

(٢) الحدود الأنيقة (١/ ٦٨)، المؤلف: زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيىٰ.

(٣) المفردات في غريب القرآن (١/ ٥٤٨).

(٤) أدب الدنيا والدين (١/ ٧٦).

(٥) سنن الترمذي (٤/ ٦٥٩).

تحذير الأنبياء كما قال تعالىٰ: لنبيه داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: ٢٦]، ومن هذه الآية يتبين أن اتباع الهوىٰ سببٌ لعدم الحكم بين الناس بالحق، وسبب للضلال والإضلال، وأما سبب اتباع الهوىٰ فهو نسيان يوم الحساب.

«يقول علي بن أبي طالب رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: إن أخوفَّ ما أخاف عليكم اتباع الهوىٰ وطول الأمل، فأما اتباع الهوىٰ فيصد عن الحق، وأمَا طول الأمل فيُنسي الآخرة، ألا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل واحدٍ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عملٌ ولا حساب وغدًا حسابٌ ولا عمل»(١).

كما حذر ربنا جل جلاله نبيه محمد ﷺ من اتباع أهواء الكفار فقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾ [الرعد: ٣٧]. فكان جوابه عليه الصلاة والسلام كما ذكر في القرآن: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [الأنعام: ٥٦].

والكفار بسبب اتباع الأهواء لا يفكرون التفكير السليم، فمن تبعهم في أهوائهم فقد ضل الطريق، وحاد عن الصراط المستقيم، ولذلك بين ربنا جل جلاله في القرآن الكريم أن أهل الكتاب لن يرضوا عن المسلمين حتىٰ يتبعوا ملتهم فقال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾ [البقرة: ١٢٠].

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٧٦).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩].

وحذر ربنا جل جلاله من اتباع الهوىٰ مبينًا أنه سببٌ للظلم وعدم إعطاء الناس حقوقهم، ولا يحصل ذلك إلا لعدم التفكير بعواقب الأمور الناتجة عن ظلم الناس وأكل أموالهم بالباطل، يقول الرب جل جلاله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]. وبين ربنا جل جلاله أن من خاف قيامه بين يدي ربه يوم القيامة، ونهىٰ نفسه عن الهوىٰ بأن مصيره إلىٰ الجنة، فقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

والظلمة والكفار عمومًا ضلوا الطريق ولم يستجيبوا لنداء الرحمان لعدم تفكيرهم والعمل علىٰ حسب أهوائهم، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟

أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم: ٢٩].

واتباع الهوىٰ من عوائق التفكير؛ لأنه يصد الإنسان عن الاستجابة لأمر الله، ولذلك تعددت أساليب القرآن الكريم في التحذير من الهوىٰ المضل تارةً بالنهي عنه، وتارةً بالنهي عن اتباع أهل الأهواء، وتارةً بمدح ما يجانب فعالهم، وتارةً بذم من يسير في ركابهم، وتارةً بالترهيب، وتارةً بالترغيب، وتارةً بالتنفير، إلىٰ غير ذلك. ويتبين ذلك من عدة نصوص في القرآن الكريم ومنها قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠].

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [محمد: ١٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧].

وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة:٧٠].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣].

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام: ١١٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقال تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم: ٢٩].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورىٰ: ١٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾ [القمر: ٣].

ومن أضرار اتباع الهوىٰ: «اشْتِغَالُ الْفِكْرِ فِي تَمْيِيزِ مَا اشْتَبَهَ فَيَطْلُبُ الرَّاحَةَ فِي اتِّبَاعِ مَا اسْتَسْهَلَ حَتَّىٰ يَظُنَّ أَنَّ ذَلِكَ أَوْفَقُ أَمْرَيْهِ، وَأَحْمَدُ حَالَيْهِ، اغْتِرَارًا بِأَنَّه الْأَسْهَلَ، وَحَسْمُ ذَلِكَ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالْعَقْلِ عَلَىٰ النَّفْسِ النُّفُورَةِ فَيُشْعِرُهَا مَا فِي عَوَاقِبِ الْهَوَىٰ مِنْ شِدَّةِ الضَّرَرِ، وَقُبْحِ الْأَثَرِ وَكَثْرَةِ الْإِجْرَامِ، وَتَرَاكُمِ الْآثَامِ، فَإِذَا انْقَادَتْ النَّفْسُ لِلْعَقْلِ بِمَا قَدْ أُشْعِرَتْ مِنْ عَوَاقِبِ الْهَوَىٰ لَمْ يَلْبَثْ الْهَوَىٰ أَنْ يَصِيرَ بِالْعَقْلِ مَدْحُورًا، وَبِالنَّفْسِ مَقْهُورًا، ثُمَّ لَهُ الْحَظُّ الْأَوْفَىٰ فِي ثَوَابِ الْخَالِقِ وَثَنَاءِ الْمَخْلُوقِينَ»(١).

«وإن قدّمت هواك علىٰ عقلك لم تصب رشدًا في حياتك، ولا أمنًا بعد وفاتك»(٢). «وقال مطر الداري: لنحت الجبال بالأظافير أهون من زوال الهوىٰ إذا تمكن في النفس»(٣).

«وكل هذا لما لاتباع الهوىٰ من الأثر الخطير في صد الناس عن الحق، وما يعقب ذلك من الضلال والانحراف، وما يورثه من الجهل والعدوان، وما يفرق به وحدة القلب، وما يمزق من أواصر المودة»(٤).

ولقد أجاد وأفاد ابن القيم في بيان أضرار اتباع الهوىٰ علىٰ الإنسان عمومًا

---

(١) أدب الدنيا والدين (١/ ٢٠- ٢١).

(٢) محاضرات الأدباء (١/ ٣٢)، المؤلف: أبو ألقاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني.

(٣) عيوب النفس (١/ ٢٥)، المؤلف: محمد بن الحسين بن موسىٰ السلمي أبو عبد الرحمن.

(٤) منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه غير منشورة، خليل بن عبدالله الحدري، ص٣٥٤.

وعلىٰ العقل خصوصًا، فقال في مدارج السالكين: «فإن اتباع الهوىٰ يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبتة، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره فَأَرَتْهُ نفسه الحَسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحَسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنَّىٰ له الانتفاع بالتذكر والتفكر أو بالعظة»[(١)].

وأفرد فصلًا كاملًا في أضرار اتباع الهوىٰ في كتابه روضة المحبين، ومما قاله: «أن يعلم – أي أسير الهوىٰ – أن الهوىٰ ما خالط شيئًا إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلىٰ البدعة والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلىٰ الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلىٰ الظلم وصده عن الحق، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلىٰ قسمة الجور، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلىٰ خيانة الله والمسلمين، حيث يُولي بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعةً وقربةً، فما قارن شيئًا إلا أفسده.

والشيطان ليس له مدخلٌ علىٰ ابن آدم إلا من باب هواه، فإنه يطيف به من أين يدخل عليه حتىٰ يفسد عليه قلبه وأعماله، فلا يجد مدخلًا إلا من باب الهوىٰ فيسري معه سريان السم في الأعضاء.

والله ﷻ جعل الهوىٰ مضادًا لما أنزله علىٰ رسوله، وجعل اتباعه مقابلًا لمتابعة رسله، وقسم الناس إلىٰ قسمين: أتباع الوحي وأتباع الهوىٰ، وهذا كثيرٌ في القرآن كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤٩).

والله ﷻ جعل الخطأ واتباع الهوىٰ قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوىٰ قرينين، كما قال بعض السلف إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيها أرشد فخالف أقربهما من هواك، فإن أقرب ما يكون الخطأ في متابعة الهوىٰ.

وقال: ما من يومٍ إلا والهوىٰ والعقل يعتلجان في صاحبه فأيها قوي علىٰ صاحبه طرده وتحكم وكان الحكم له. قال أبو الدرداء: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله، فإن كان عمله تبعًا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان هواه تبعًا لعمله فيومه يومٌ صالح.

ويمكن أن يُقال: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعقله، فإن كان عقله تبعًا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان هواه تبعًا لعقله فيومه يومٌ صالح.

ومن نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه، وهذا شأنه ﷻ في كل من خانه في أمرٍ من الأمور فإنه يفسده عليه. قال عطاء: من غلب هواه عقله وجزعه صبره افتضح.

والله ﷻ جعل في العبد هوىً وعقلًا، فأيهما ظهر توارىٰ الآخر. كما قال أبو علي الثقفي: من غلبه هواه توارىٰ عنه عقله، فانظر عاقبة من استتر عنه عقله وظهر عليه خلافه، وقال علي بن سهل رحمه الله: العقل والهوىٰ يتنازعان فالتوفيق قرين العقل والخذلان قرين الهوىٰ، والنفس واقفةٌ بينهما فأيهما غلب كانت النفس معه.

ولو تأملت حال كل ذي حالٍ سيئةٍ رزيةٍ لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره علىٰ عقله، ومن كانت بدايته مخالفةَ هواه وطاعةَ داعي رشده كانت نهايته العز والشرف والغنىٰ والجاه عند الله وعند الناس. قال أبو علي الدقاق: من ملك شهوته في حال شبيبته أعزه الله تعالىٰ في حال كهولته»[(١)].

---

(١) روضة المحبين (١/ ٤٧٤ – ٤٨٣).

«فمن أخطر ما يصاب به العقل البشري لوثة الهوىٰ وعدم التجرد، فَتُحكِّمَ العاطفة، وتهب العاصفة حتىٰ تختل الموازين وتنعدم الرؤية، ولقد حذر ربنا الكريم المنان من الهوىٰ، وبين خطره الذي قد يصل إلىٰ حد العبودية ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقد أثر عن أحد السلف أنه قال: «والله الذي لا إله غيره، ما تحت أديم السماء أخطر من هوىً متبع»، وكثيرًا ما تظهر الأهواء عند هبوب رياح الفتن، فيأخذ العقل إجازة، وتُبعد مقاييس الشرع إلا من رحم ربك، ولذا: سمىٰ علماء السلف هؤلاء الذين يندفعون وراء العواطف بدون مقياسٍ من نقلٍ أو عقل: أهل الأهواء. ولخطورة الهوىٰ علىٰ العقل البشري والعلم الشرعي جاءت النصوص من الوحيين ببيان ذلك؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠][1].

---

(١) مجلة البيان، العدد ٩٣، أكتوبر ١٩٩٥، ص ١٠٦.



المبحث الثاني
التقليد الأعمى والتعصب للآراء الباطلة

معنى التقليد الأعمى لغة: «اتباع الغير فيما يقول أو يفعل من غير نظرٍ ولا دليل»(١).

فالتقليد عبارة عن «اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل معتقدًا للحقيقة فيه من غير نظرٍ وتأملٍ في الدليل، كأن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادةً في عنقه، وعبارة عن قبول قول الغير بلا حجةٍ ولا دليل»(٢).

معناه اصطلاحًا: «اتباع الإنسان غيره فيما يقول بقول أو بفعل معتقدًا للحقيقة فيه من غير نظرٍ وتأملٍ في الدليل، كأن هذا المتتبع جعل قول الغير أو فعله قلادةً في عنقه»(٣). «قال أبو عبد اللهِ بن خويز مَنْدَادٍ الْبَصْرِيُّ الْمَالِكِيُّ: التَّقْلِيدُ مَعْنَاهُ فِي الشَّرْعِ: الرُّجُوعُ إِلَىٰ قَوْلٍ لَا حُجَّةَ لقائله عليه، وَذَلِكَ مَمْنُوعٌ منه فِي الشَّرِيعَةِ، والاتباع: ما ثبت عليه الحجة... والاتباع في الدين مسوغٌ والتقليد ممنوع»(٤).

«والتقليد المذموم هو قبول قول الغير بغير حجة»(٥). «أو قبول الشيء بغير

---

(١) المعجم الوسيط (٢/ ٧٥٤).

(٢) التعريفات (١/ ٩٠).

(٣) دستور العلماء (١/ ٢١٨).

(٤) إعلام الموقعين (٢/ ١٩٧).

(٥) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٩٧).

دليل»[١]. و «التقاليد»: العادات المتوارثة التي يقلد فيها الخلف السلف، مفردها تقليد»[٢].

ولم يرد في القرآن الكريم لفظ «التقليد» إنما جاء ما يعبر عن معنىٰ التقليد وهو لفظ «الاتباع»، وذكر في هذا البحث لفظ التقليد لكونه الصفة المذمومة، واللفظة المعروفة عند كثيرٍ من الناس، وهي من عوائق التفكير.

«والتقليد في عرف المتأخرين يدل علىٰ فقدان الشخصية، وانعدام الاستقلالية، والدوار في فلك الآخرين أينما داروا، والسير في ركابهم كيفما أرادوا، وأينما توجهوا»[٣].

❑ معنى التقليد فيما يظهر لي:

تعطيل العقل عن التفكير، ومتابعة الآخرين والأخذ بأرآئهم من غير برهانٍ ولا دليل.

❑ موقف القرآن الكريم من التقليد:

لم يرد في القرآن الكريم لفظ «التقليد» إنما ورد لفظٌ أخر يدل عليه ألا وهو لفظ «الاتباع»، وهذا اللفظ ورد في القرآن وقد يراد به الاتباع المحمود، أو الاتباع المذموم، وسيكون حديثنا في هذا المبحث عن الاتباع المذموم، والذي نقصده في هذا البحث التقليد غير البصير الذي يعتبر عائقًا من عوائق التفكير.

و«يميل كثيرٌ من الناس إلىٰ تبني الأفكار الشائعة أو الموروثة دون أن يتأكد من

---

(١) تفسير البحر المحيط (١/ ٥٢١)، المؤلف: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي.

(٢) المعجم الوسيط (٢/ ٧٥٤).

(٣) منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، خليل الحدري، ص ٣٢٤.

مدىٰ صحتها، وهذا مسلكٌ يعطل التفكير نفسه، أو يدخل عليه مؤثراتٍ تميل به عن الطريق السديد»[(١)].

❑ أنواع التقليد: تقليد ممدوح، وتقليد مذموم.

فالتقليد الممدوح: من العلماء من لا يسميه تقليدًا ولكن يسميه اتباعًا مشروعًا، ومن هؤلاء ابن القيم الجوزية كما مر بنا في تعريف التقليد.

وسيتم الاقتصار في هذا البحث عن الحديث عن التقليد المذموم والذي يعتبر من عوائق التفكير.

«**فالتقليد المذموم**: هو التقليد الذي لا يستند علىٰ علمٍ صحيح، أو عقلٍ صريح، وهو قبول قول الغير بغير حجةٍ ولا برهان، وقد ورد ذمه كثيرًا في القرآن الكريم، كالذين ذكر الله عنهم أنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠] وقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٦٩ – ٧٠] ونظائر هذا في القرآن كثيرٌ، فمن اتبع دين آبائه وأسلافه لأجل العادة التي تعودها وترك اتباع الحق الذي يجب اتباعه فهذا هو المقلد المذموم. وهذه حال اليهود والنصارىٰ بل أهل البدع والأهواء في هذه الأمة الذين اتبعوا شيوخهم ورؤساءهم في غير الحق كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦ – ٦٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾

---

(١) كيف ننجح في تعديل سلوكنا، عادل رشاد غنيم، ص ١٤.

يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٨] إلىٰ قوله «خذولًا». وقال تعالىٰ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦] إلىٰ قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: ٤٧] إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨] وأمثال ذلك مما فيه بيان أن من أطاع مخلوقًا في معصية الله كان له نصيبٌ من هذا الذم والعقاب»(١).

«وقد ذم الله تعالىٰ في القرآن من عدل عن اتباع الرسل إلىٰ ما نشأ عليه من دين آبائه وهذا هو التقليد الذي حرمه الله ورسوله، وهو أن يتبع غير الرسول فيما خالف فيه الرسول وهذا حرام - باتفاق المسلمين - علىٰ كل أحد، فانه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، والرسول طاعته فرض علىٰ كل أحدٍ من الخاصة والعامة في كل وقتٍ وكل مكانٍ، في سره وعلانيته وفىٰ جميع أحواله»(٢).

والقرآن الكريم ذم متابعة أقوال وأفعال السابقين واللاحقين ومن يعيش في الوقت الحاضر دون تفكيرٍ ولا رويةٍ، ودون دليلٍ ولا برهان؛ لأن له أثرًا علىٰ التفكير السليم، ويقود الإنسان كذلك إلىٰ الخطأ والضلال في العمل والاقتداء والحكم علىٰ الأشياء.

ولقد حرص القرآن الكريم علىٰ تحرير العقول وتجردها من المؤثرات السابقة القائمة علىٰ الظنون والأهواء، والتقليد الأعمىٰ الذي وُرِثَ عن الآباء والأجداد دون وعيٍ أو تمييز.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٩٧ - ١٩٨).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٢٦٠).

والتقليد غير البصير ورد ذمّه في القرآن الكريم كثيرًا، لكون المقلدين لم يستندوا في تقليدهم علىٰ علمٍ صحيحٍ أو عقلٍ صريحٍ، بل أصبح بعض التقاليد الجاهلية عند الكثير من أهلها دينًا لا يجوز المساس بها، ولا يصح الخروج عنها، حتىٰ غلا القوم في تعظيم الآباء والأجداد فحجبهم هذا التعظيم عن التفكير، فلم يقبلوا الدين الحق، فحال هذا التقليد دون إسلام أبي طالب، رغم اعتقاده بصدق ابن أخيه ﷺ وما كان عليه من هدىٰ.

«فأهل الجاهلية كان دينهم مبنيًا علىٰ أصول، أعظمها التقليد، فهو القاعدة الكبرىٰ لجميع الكفار من الأولين والآخرين... وكانوا في ربقة التقليد لا يحكمون لهم رأيًا ولا يشغلون فكرًا ولذلك تاهوا في أودية الجهالة، وعلىٰ طريقتهم كل من سلك مسلكهم في أي عصرٍ كان... وللاستفادة مما كان عليه الآباء ينبغي أن يخضع ذلك للكتاب والسنة، للعلم والهدىٰ»(١).

والتربية علىٰ متابعة الآباء والأجداد أفضل طريقةٍ لوأد العقول وإماتة البصائر، وهذه التربية هي التي تبنىٰ علىٰ ضرورة التسليم والانقياد، دون النظر والتفكير.

«إن هذا النوع من التفكير يلجأ إلىٰ المحاكاة دون تعقل، والاكتفاء بالمألوف القائم ولو كان باطلًا، وهو أيضًا حيدةٌ عن الجواب الصحيح عندما سئلوا عن سبب عبادتهم للأصنام، وقد يقع المسلم في شيءٍ من هذا القبيل عندما يتلقىٰ كلام القدماء دون ميزانٍ يزن به أقوالهم، هل هي موافقةٌ للحق والصواب أم لا، ودون أن يصفي التراث مما علق به من نُقُولٍ غير صحيحةٍ، أو تأثرٍ بالثقافات الأجنبية الغربية عن مفاهيم الإسلام»(٢).

---

(١) مجلة البيان، العدد ٩، ديسمبر ١٩٨٧، ص ٦٠.

(٢) بعض أسس التفكير كما جاءت في القرآن الكريم، ص ٢٢-٢٣.

ولقد نجحت هذه التربية في صناعة الببغاوات والقطعان الهائمة التي لا تجيد إلا فن التصفيق والإشادة والتقليد والمتابعة دون تفكيرٍ وتأمل، وهذه التربية فشلت فشلًا ذريعًا في بناء العقول الحية المبصرة، القادرة علىٰ بناء المواقف وصناعة الأحداث، وأخزىٰ الله التقليد كم قتل من طاقةٍ، وسحق من شخصية!

والتقليد المذموم يكون بمتابعة الآباء والأجداد وغيرهم، ولو كان الدليل علىٰ خلاف قولهم أو فعلهم، «ومن قلد بلا حجةٍ ولا دليلٍ فهو ملومٌ علىٰ تقليده»(١).

«وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله، ووجود من يأخذونهما عنه، ووجود آلة الفهم لديهم وملكة العقل عندهم»(٢).

والتقليد المذموم له أثرٌ كبيرٌ علىٰ التفكير، فهو يصرف عن قبول الحق كما بين ﷻ في إصرار البعض علىٰ تقليد الآباء حتىٰ ولو جاءهم ما هو أهدىٰ مما معهم كما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرف: ٢٢ – ٢٤]. وفي هذه الآية وغيرها من الآيات التي تتحدث عن التقليد المذموم، نعيٌ للكفار في استعمالهم التفكير السطحي غير المتأمل، والذي يعتمد علىٰ آراء الأجيال السابقة.

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٩١).

(٢) فتح القدير (٢/ ١٩٩).

وفي قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ «أي نهتدي بهم، وفي الآية الأخرىٰ مقتدون أي نقتدي بهم والمعنىٰ واحد. قال قتادة: مقتدون متبعون وفي هذا دليلٌ علىٰ إبطال التقليد لذمه إياهم علىٰ تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول ﷺ، وقد مضىٰ القول في هذا في البقرة مستوفىٰ»(١).

و«لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت في إبطال القول بالتقليد، وذلك لأنه تعالىٰ بيّن أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريقٍ عقلي ولا بدليلٍ نقلي، ثم بيّن أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف، وإنما ذكر تعالىٰ هذه المعاني في معرض الذم والتهجين، وذلك يدل علىٰ أن القول بالتقليد باطل، ومما يدل عليه أيضًا من حيث العقل أن التقليد أمرٌ مشتركٌ فيه بين المبطل وبين المحق، وذلك لأنه كم حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة فكذلك حصل لأضدادهم أقوام من المقلدة، فلو كان التقليد طريقًا إلىٰ الحق لوجب كون الشيء ونقيضه حقًا، ومعلوم أن ذلك باطل... أنه تعالىٰ بيّن أن الداعي إلىٰ القول بالتقليد والحامل عليه، إنما هو حب التنعم في طيبات الدنيا وحب الكسل والبطالة وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ والمترفون هم الذين أترفتهم النعمة، أي أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويبغضون تحمل المشاق في طلب الحق، وإذا عرفت هذا علمت أن رأس جميع الآفات حب الدنيا واللذات الجسمانية، ورأس جميع الخيرات حب الله والدار الآخرة»(٢).

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ٧٥).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٧٧- ١٧٨).

«وتخصيص المترفين بتلك المقالة للإيذان بأن التنعم وحب البطالة هو الذي صرفهم عن النظر إلىٰ التقليد»(١).

والتقليد الذي لا يستند إلىٰ دليلٍ نقلي، ولا برهانٍ عقلي من معوقات التفكير؛ لأن المقلد في هذه الحالة يعطل تفكيره، ولا يستخدمه كما ينبغي، فلا تأمل ولا تدبر ولا تذكر ولا تبصر ولا تفكير ولا نظر في عواقب الأمور، بل يعير عقله لغيره ليفكر عنه، فلا فرق بينه وبين الدواب في حقيقة الأمر، إلا أنه مكلف، والدواب ليست مكلفة. وينطبق علىٰ أمثال هؤلاء ما ورد في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩]. يقول الشوكاني في تفسيره: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ «فإن الذي انتفىٰ من الأعين هو إبصار ما فيه الهداية بالتفكر والاعتبار وإن كانت مبصرةً في غير ذلك، والذي انتقىٰ من الآذان هو سماع المواعظ النافعة والشرائع التي اشتملت عليها الكتب المنزلة وما جاءت به رسل الله وإن كانوا يسمعون غير ذلك، والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلىٰ هؤلاء المتصفين بهذه الأوصاف كالأنعام في انتفاء انتفاعهم بهذه المشاعر، ثم حكم عليهم بأنهم أضل منها؛ لأنها تدرك بهذه الأمور ما ينفعها ويضرها فتنتفع بما ينفع وتجتنب ما يضر، وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضر باعتبار ما طلبه الله منهم وكلفهم به ثم حكم عليهم بالغفلة الكاملة لما هم عليه من عدم التمييز الذي هو من شأن من له عقلٌ وبصرٌ وسمع»(٢).

---

(١) تفسير أبي السعود (٨/ ٤٤).

(٢) فتح القدير (٢/ ٢٦٧).

ويقول السعدي في تفسيره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: «البهائم، التي فقدت العقول، وهؤلاء آثروا ما يفنىٰ علىٰ ما يبقىٰ، فسلبوا خاصية العقل. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من البهائم، فإن الأنعام مستعملةٌ فيما خلقت له، ولها أذهانٌ تدرك بها مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالًا منهم. و﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله، وطاعته، وذكره»(١).

وفي تفسير النسفي: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحق ولا يتفكرون فيه ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الرشد ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الوعظ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتفكر ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام لأنهم كابروا العقول وعاندوا الرسول وارتكبوا الفضول، فالأنعام تطلب منافعها وتهرب عن مضارها، وهم لا يعلمون مضارهم حيث اختاروا النار، وكيف يستوي المكلف المأمور والمخلىٰ المعذور؟ فالآدمي روحانيٌ شهوانيٌ سماويٌ أرضيٌ، فإن غلب روحه هواه فاق ملائكة السموات، وإن غلب هواه روحه فاقته بهائم الأرض ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة(٢).

ويقول ﷻ في آيةٍ أخرىٰ ذامًا التقليد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧٠ – ١٧١]. إنما ذكر تعالىٰ هذه الآية بعد الزجر عن اتباع

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٠٩).

(٢) تفسير النسفي (٢/ ٤٧ – ٤٨).

خطوات الشيطان، تنبيها علىٰ أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان، وبين متابع التقليد، وفيه أقوىٰ دليلٍ علىٰ وجوب النظر والاستدلال والبحث عن الحق، وترك التعويل علىٰ ما يقع في الخاطر من غير دليل ولا بينة. والآية فيها تنديد بتلقي شيءٍ في أمر العقيدة من غير الله؛ وتنديد بالتقليد في هذا الشأن والنقل بلا تعقلٍ ولا إدراك.

«والكفرة لانهماكهم في التقليد لا يلقون أذهانهم إلىٰ ما يتلىٰ عليهم ولا يتأملون فيما يقرر معهم فهم في ذلك كالبهائم التي ينعق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه وتحس بالنداء ولا تفهم معناه»(١).

فهذه الآية تدعوهم إلىٰ اتباع ما جاء من عند الله فيرفضون ذلك ويصرون علىٰ متابعة ما كان عليه آباؤهم وإن كان باطلًا مخالفًا للصواب، حتىٰ ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون.

ومن حججهم في رفضهم الحق الذي جاءت به الرسل من عند الله، أنهم ما سمعوا بهذا في آبائهم الأولين، وأن ما جاءت به الرسل أمرٌ مختلق، فالحق والباطل عندهم ما كان عليه آباؤهم الأولون، دون نظرٍ ولا تفكيرٍ لما كان عليه هؤلاء الآباء. ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٦٩ – ٧٠]، إنهم منغمسون في الضلالة، وهم في الوقت ذاته مقلدون لمن سبقهم لا يفكرون ولا يتدبرون؛ بل يطيرون مستعجلين علىٰ خطىٰ آبائهم الضالين، غير ناظرين ولا متعقلين.

وبعد أن ذكر الرازي في تفسيره أدلة من القرآن الكريم علىٰ ذم التقليد قال: «وكل ذلك يدل علىٰ وجوب النظر والاستدلال والتفكر وذم التقليد»(٢)

---

(١) تفسير البيضاوي (١/ ٤٤٨).

(٢) التفسير الكبير (٢/ ٨٤).

وقال تعالىٰ: ذامًا التقليد ومحذرًا منه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣ – ٢٤]. ومثل هذا يقع دائمًا قديمًا وحديثًا عندما يطمس التقليد علىٰ التفكير، وحرية القلب فلا يتدبر الناس ما هو بين أيديهم من القضايا، ليهتدوا علىٰ ضوء الواقع إلىٰ حكمٍ مباشرٍ عليها إنما هم يبحثون في التاريخ الماضي عن سابقةٍ يستندون إليها؛ فإن لم يجدوا هذه السابقة رفضوا القضية وطرحوها!

وعند هذه المجموعات الجاحدة الخامدة أن ما كان مرةً يمكن أن يكون ثانيةً، فأما الذي لم يكن فإنه لا يمكن أن يكون! وهكذا تجمد الحياة، وتقف حركتها، وتتسمر خطاها، عند جيلٍ معينٍ من «آبائنا الأولين».

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [القصص: ٣٦]. فها هم قوم موسىٰ عليه السلام يقولون قولًا قاله قبلهم قوم نوح عليه السلام، قولًا يدل علىٰ إعراضهم عن الحق، وعدم قبولهم له، وعكوفهم علىٰ الباطل وما ألفوه عن آبائهم بدون تفكر أو تدبر.

وقال تعالىٰ: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٤–٧].

«إن نعي القرآن الكريم علىٰ تقليد الآباء والأجداد دليلٌ أكيدٌ علىٰ أن «القول» لا يستمد قيمته من الزمان الذي قيل فيه، ولا من مكانة قائله، ولكن من مدىٰ اقترابه

من الحق القطعي الثابت، ومن قدرته علىٰ الصمود في وجه أسئلة الفكر المتجددة وامتحانات الواقع وابتلاءاته المتعاقبة»(١).

وتقليد الآباء يأتي في صورٍ متعددة، ومن ذلك تقليد أحد العلماء أو غيرهم في قضية يكون الدليل علىٰ خلافها، فهذا يعد نوعًا من الآبائية المرفوضة، والتي يسير أصحابها علىٰ هدي الآباء وطريقتهم، ويقتفون آثارهم، بلا تفكيرٍ ولا روية، وأمثال هؤلاء لا تنفع فيهم المواعظ والتوجيهات. «يقول سفيان بن عيينة: اضطجع ربيعة مقنعًا رأسه وبكىٰ، فقيل له ما يبكيك: فقال رياءٌ ظاهر، وشهوةٌ خفية، والناس عند علمائهم كالصبيان في حجور أمهاتهم، ما نهوهم عنه انتهوا وما أمروهم به ائتمروا»(٢).

و«التقليد سلاحٌ ذو حدين، فهو يوفر من جهةٍ أسلوبًا سهلًا للتثقف، لكنه من جهةٍ أخرىٰ يحدد للعقل مجالات عملٍ ضيقة، ويحد من طلاقته حين يفتح للتكرار والاجترار أبوابًا مشرعة»(٣).

ولقد حذر السلف الصالح من التقليد غير البصير، ووصفوا صاحبه بأوصافٍ شديدة، فهذا عبدالله بن المعتز يحذر من التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل فيقول: «لا فرق بين بهيمةٍ تقاد وإنسان يقلد، وهذا كله لغير العامة فإن العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها؛ لأنها لا تتبين موقع الحجة ولا تصل بعدم الفهم إلىٰ علم ذلك؛ لأن العلم درجاتٌ لا سبيل منها إلىٰ أعلاها إلا بنيل أسفلها، وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة والله أعلم، ولم يختلف العلماء أن

---

(١) ٢٠٣ بصيرة في العقل والوعي والتفكير، ص ٩٢.
(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٤).
(٣) ١٠٦بصيرة في نقائص العقل وعيوبه الخلقية والمكتسبة، ص ٤٧.

العامة عليهم تقليد علمائهم وأنهم المرادون بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل:٤٣][1].

ومن كلام ابن المعتز يتبين الفرق في مسألة التقليد بين طالب العلم والعامي، فيجوز للعامي التقليد ما لا يجوز لغيره من طلبة العلم، فطالب العلم يبحث عن الأدلة من الكتاب والسنة ويجمع بينها أو يرجح، أما العامي فيقلد العلماء بالأدلة من الكتاب والسنة؛ لأنه ليس أهلًا للبحث والجمع والترجيح.

و«ليس التقليد لمن عجز عن الاجتهاد هو المذموم، لكن المذموم هو التعصب الممقوت الذي يبخس الناس أشياءهم، ويمنح العصمة لغير المعصوم»[2].

وذكر ابن عبد البر عن سحنون بن سعيد أنه قال: «كان مالك بن أنس وعبد العزيز ابن أبي سلمة ومحمد بن إبراهيم بن دينار وغيرهم يختلفون إلىٰ ابن هرمز فكان إذا سأله مالك وعبد العزيز أجابهما، وإذا سأله ابن دينار وذووه لا يجيبهم، فتعرض له ابن دينار يومًا فقال له: يا أبا بكر لم تستحل مني ما لا يحل لك؟ فقال له: يا ابن أخي، وما ذاك؟ قال: يسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما وأسألك أنا وذوي فلا تجيبنا؟ فقال: أوقع ذلك يا ابن أخي في قلبك؟ قال: نعم، قال: إني قد كبرت سني ودق عظمي، وأنا أخاف أن يكون خالطني في عقلي مثل الذي خالطني في بدني، ومالك وعبد العزيز عالمان فقيهان، إذا سمعا مني حقًّا قبلاه، وإن سمعا خطأً تركاه، وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه، قال ابن حارث: هذا والله الدين الكامل، والعقل الراجح، لا كمن يأتي بالهذيان، ويريد أن ينزل قوله من العقاب منزلة القرآن»[3].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٤ -١١٥).

(٢) ١٦٠ بصيرة في نقائص العقل وعيوبه الخلقية والمكتسبة، ص ٥١.

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧).

و«لن يكون لنا استغناءٌ عن القديم من الآراء والأفكار والمفاهيم والمعلومات، ولكن حاجتنا إليه يجب أن تتجسد في جعله موادًا يشتغل عليها العقل اقتباسًا وتوظيفًا وتعديلًا وتنمية ونقدًا وتزييفًا، لا أن نصبح أسرىٰ له.

والتعامل معه علىٰ أنه مجموعاتٌ من المعطيات الجاهزة الصافية سيضر بحركة التفكير، وسيبعدها عن الواقع المعيش، وهذا يجعلها جهادًا في غير عدو»[(١)].

«إن التقليد ميدانٌ واسعٌ جدًا، يشمل التقليد في قضايا العقيدة والعبادة والفكر والخلق والسلوك والهيئة واللباس، بل إنه يتعدىٰ هذه الأمور الشخصية إلىٰ أمورٍ عامةٍ في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والإعلامية والفكرية والتربوية والمدنية والعسكرية وغير ذلك.

وهو ما أشار إليه حديث رسول الله ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّىٰ لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: فَمَنْ»[(٢)].

فهو تقليدٌ عام، وتبعيةٌ مفرطة، يلغي الإنسان فيها عقلة ويسير في ركاب الآخرين من غير تبصرٍ ولا تعقل، وإن كانت هذه التبعية للآخرين مرفوضة جملةً وتفصيلًا عند أصحاب الرسالة العالمية التي ارتضاها رب العالمين للبشرية كلها شرعةً ومنهاجًا.

علىٰ أن هذا لا يتناقض مع البحث عن الحكمة التي هي ضالة المؤمن، فليس البحث عن الحكمة التي قد ينطق بها الآخرون تبعية، بل هو انفتاحٌ منضبط، وإفادةٌ

(١) خطوة نحو التفكير القويم، د/ عبدالكريم بكار، ص ٩١.
(٢) صحيح البخاري (ح ٧٣٢٠).

واعيةٌ قائمةٌ علىٰ التحليل والنقد والتمحيص، ومن ثم قبول ما يمكن قبوله»(١).

والتقليد أوهن العقل والروح عند المسلمين، أفرادًا وجماعات «فعدم الثقة بالنفس نتج عنه الخوف من الخطأ، والتردد وهذا بطبعه أدىٰ إلىٰ الجمود وإلىٰ التقليد؛ لأنه يرىٰ أن التقليد أسهل عليه، التقليد في الأفكار والتقليد في السلوك والتقليد في الشخصية، فتراه يلغي عقله ويمشي وراء من يقلده مغمض العينين مقلدًا لهم في الخطأ والصواب، في الأقوال والأفعال لا يخالفهم لأنه يعتقد أنه دائمًا علىٰ الخطأ وهم علىٰ الصواب، بينما نجد أن كبار المفكرين والمجددين كانوا يتميزون عن غيرهم بالثقة بالنفس»(٢). وأهل الجاهلية كان دينهم مبنيًا علىٰ أصول، أعظمها التقليد، فهو القاعدة الكبرىٰ لجميع الكفار من الأولين والآخرين كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠].. إلىٰ غير ذلك مما يدل علىٰ أن أهل الجاهلية كانوا في ربقة التقليد، لا يحكمون لهم رأيًا، ولا يشغلون فكرًا، ولذلك تاهوا في أودية الجهالة، وعلىٰ طريقتهم كل من سلك مسلكهم في أي عصرٍ كان»(٣).

ومن الآيات القرآنية التي تبين التقليد غير البصير وتحذر منه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ

(١) منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، ص ٣٣٥.

(٢) مجلة البيان، العدد ٢٠، ص ٨٧.

(٣) مجلة البيان، العدد ٩، ديسمبر ١٩٨٧، ص ٦٠.

لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤]. «**فإذا دعوا** ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أعرضوا، فلم يقبلوا، و﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ من الدين، ولو كان غير سديد، ولا دينًا ينجي من عذاب الله.

ولو كان في آبائهم كفايةٌ ومعرفةٌ ودرايةٌ لهان الأمر، ولكن آباءهم لا يعقلون شيئا، أي: ليس عندهم من المعقول شيءٌ، ولا من العلم والهدىٰ شيءٌ، فتبًا لمن قلد من لا علم عنده صحيح، ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله، واتباع رسله، الذي يملأ القلوب علمًا وإيمانًا وهدىً وإيقانًا»[(١)].

وفي هذه الآية: «بيانٌ لقصور عقولهم وانهماكهم في التقليد وأن لا سند لهم سواه ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾... أي أحسبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جهلة ضالين. والمعنىٰ أن الاقتداء إنما يصح بمن علم أنه عالمٌ مهتدٍ وذلك لا يعرف إلا بالحجة فلا يكفي التقليد»[(٢)].

«واستدل بالآية علىٰ أن الاقتداء إنما يصح بمن علم أنه عالمٌ مهتدٍ وذلك لا يعرف إلا بالحجة فلا يكفي التقليد من غير أن يعلم أن لمن قلده حجةٌ صحيحةٌ علىٰ ما قلده فيه حتىٰ قالوا: إن للمقلد دليلًا إجماليًا وهو دليل من قلده فتدبر»[(٣)].

وهذه حجة كل من ضل الطريق المستقيم، وقلد من سبقه بغير تعقلٍ ولا تدبرٍ ولا تفكرٍ ولا دليل، فهذا ترك معاني العزة وإعمال الفكر فيما ينفعه ليعيش أسير ذلته

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٢٤٦).

(٢) تفسير البيضاوي (٢/ ٣٧٣).

(٣) روح المعاني (٧/ ٤٥).

للأوهام التي شب عليها وسار خلفها مقلدًا غيره بدون تفكيرٍ ولا روّية، ومنقادًا له انقياد البهائم لراعيها.

وهؤلاء كانوا إذا قيل لهم: تعالوا إلىٰ ما أنزل الله وإلىٰ الرسول، قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا! فاتبعوا ما شرعه العبيد من الآباء، وتركوا ما شرعه رب العبيد، ورفضوا نداء التحرر من عبودية العباد للعباد، واختاروا عبودية العقل والضمير، للآباء والأجداد.

«والأمر في قوله: ﴿تَعَالَوْاْ﴾ مستعمل في طلب الإقبال، وفي إصغاء السمع، ونظر الفكر، وحضور مجلس الرسول ﷺ وعدم الصدّ عنه»[١].

ويقول تعالىٰ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٢٨﴾ [الأعراف: ٢٨].

«والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه علىٰ ذلك المذهب مع اعتقاده بأنه الذي أمر الله به وأنه الحق لم يبق عليه، وهذه الخصلة هي التي بنىٰ بها اليهودي علىٰ اليهودية والنصراني علىٰ النصرانية والمبتدع علىٰ بدعته، فما أبقاهم علىٰ هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية والنصرانية أو البدعية، وأحسنوا الظن بهم بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر الله به، ولا ينظروا لأنفسهم ولا طلبوا الحق كما يجب وبحثوا عن دين الله كما ينبغي، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص. فيا من نشأ علىٰ مذهبٍ من هذه المذاهب الإسلامية أنا لك النذير المبالغ في التحذير من أن تقول هذه المقالة وتستمر علىٰ الضلالة فقد اختلط الشر بالخير والصحيح بالسقيم وفاسد الرأي بصحيح الرواية، ولم يبعث الله إلىٰ هذه الأمة إلا

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٧٥).

نبيًا واحدًا أمرهم باتباعه ونهىٰ عن مخالفته فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] ولو كان محض رأي أئمة المذاهب وأتباعهم حجةً علىٰ العباد لكان لهذه الأمة رسلٌ كثيرون متعددون بعدد أهل الرأي المكلفين للناس بما لم يكلفهم الله به، وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله ووجود من يأخذونهما عنه ووجود آلة الفهم لديهم وملكة العقل عندهم»(١).

«وقد تقرر في العقول أنه «أي التقليد» طريقةٌ فاسدةٌ؛ لأن التقليد حاصلٌ في الأديان المتناقضة، فلو كان التقليد حقًا لزم القول بحقية الأديان المتناقضة وهو محال، فلما كان فساد هذا الطريق ظاهرًا لم يذكر الله تعالىٰ الجواب عنه، وذكر بعض المحققين أن الإعراض إنما هو عن التصريح برده وإلا فقوله سبحانه: «إن الله»... إلخ متضمنٌ للرد، لأنه سبحانه إذا أمر بمحاسن الأعمال كيف يترك أمره لمجرد اتباع الآباء فيما هو قبيحٌ عقلًا، والمراد بالقبح العقلي هنا نفرة الطبع السليم واستنقاص العقل المستقيم، لا كون الشيء متعلقُ الذم قبل ورود النهي عنه»(٢).

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ٧٨]. ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا﴾ إلخ «مسوق لبيان أنه ﷺ ألقمهم الحجر فانقطعوا عن الإتيان بكلامٍ له تعلقٌ بكلامه ﷺ فضلًا عن الجواب الصحيح، واضطروا إلىٰ التثبت بذيل التقليد الذي هو دأب كل عاجزٍ محجوج، وديدن كل معاندٍ لجوج»(٣).

---

(١) فتح القدير (٢/ ١٩٨- ١٩٩).
(٢) روح المعاني (٨/ ١٠٦).
(٣) تفسير أبي السعود (٤/ ١٦٩).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ – ٥٥].

ففي قول قوم إبراهيم عليه السلام له عندما أنكر عليهم عبادة الأصنام: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ دليلٌ علىٰ ضعف عقولهم وتحجرها، وانطماس بصائرهم حيث قلدوا فعل آبائهم بدون تدبرٍ أو تفكر، فرد عليهم إبراهيم بقوله: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لقد كنتم أنتم وآباؤكم الذين وجدتموهم يعبدون هذه الأصنام، في ضلالٍ عجيب، وفي فسادٍ ظاهر لا يخفىٰ أمره علىٰ عاقل؛ لأن كل عاقل يعلم أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا تستحق العبادة أو العكوف عليها، والباطل لا يصير حقًا بفعل الآباء له.

وعندما واجههم إبراهيم -عليه الصلاة السلام- بهذا الكلام الواضح الصريح، قالوا له: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾. وسؤالهم هذا يدل علىٰ اضطراب عقيدتهم، وشكهم فيما هم عليه من باطل، إلا أن التقليد لآبائهم، جعلهم يعطلون عقولهم عن التفكير، «ويستحبون العمىٰ علىٰ الهدىٰ».

وفي قصة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- التي وردت في سورة الشعراء، يتبين أثر التقليد علىٰ التفكير كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ
يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾
رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ – ٨٣].

في هذه الآيات يوجه إبراهيم عليه السلام قومه ويوقظ قلوبهم الغافلة، وينبه عقولهم المتبلدة، إلىٰ هذا التصرف الذي يزاولونه دون وعي ولا تفكير: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾؟.

فأقل ما يتوفر لربٍ يُعبد أن يكون له سمعٌ كعابده الذي يتوجه إليه بالعبادة والابتهال! وهذه الأصنام لا تسمع عبادها وهم يتوجهون إليها بالعبادة، ويدعونها للنفع والضر.

فإن كانت لا تسمع فكيف تملك النفع والضر؟

ولم يستطع قومه الإجابة بشيء؛ وهم لا يملكون حجةً لدفع ما يقول، فإذا تكلموا كشفوا عن طبيعة عقولهم المتحجرة المقلدة بلا وعيٍ ولا تفكير: ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. فهم يعلمون أن هذه الأصنام لا تسمع ولا تنفع ولا تضر، ولكنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، ففعلنا مثل فعلهم!

وهو جوابٌ مخجل، يدل علىٰ نقص العقول، والتبعية المقيتة بلا تفكير، ولكن المشركين في زمن إبراهيم عليه السلام لم يخجلوا أن يقولوه، كما لم يخجل المشركون في مكة أن يفعلوه، فقد كان فعل الآباء لأمرٍ ما كفيلًا باعتباره دون بحث عن صحته أو بطلانه؛ وهكذا تقوم مثل هذه الاعتبارات الجوفاء في وجه الحق، فيؤثرونها علىٰ الحق، في فترات التحجر العقلي والنفسي والانحراف التي تصيب الناس، فيحتاجون معها إلىٰ هزةٍ قويةٍ تردهم إلىٰ التحرر والانطلاق والتفكير.

وأمام هذه المواقف الجاهلية لم يجد إبراهيم علىٰ حلمه وأناته إلا أن يعلن عداوته للأصنام، وللعقيدة الفاسدة التي تسمح بعبادتها لمثل تلك الاعتبارات! ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾؟ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.. وهكذا لم يمنعه أن أباه وأن قومه يعبدون ما يعبدون، أن يفارقهم بعقيدته، وأن يجاهر بعدائه لآلهتهم وعقيدتهم هم وآباؤهم الأقدمون!

وكذلك يعلم القرآن المؤمنين أن لا مجاملة في العقيدة والدين لوالدٍ ولا لولد ولا لقوم؛ وأن الرابطة الأولىٰ ولأخيرة هي رابطة العقيدة والدين، وأن القيمة الأولىٰ والأخيرة هي قيمة الإيمان. وأن ما عداه تبعٌ له يكون حيث يكون، واستثنىٰ إبراهيم «رب العالمين» من عدائه لما يعبدون هم وآباؤهم الأقدمون: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والتقليد «هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجزٍ، ويمشىٰ بها كل أعرج، ويغتر بها كل مغرور، وينخدع لها كل مخدوع»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: ٢١].

فهذه هي حجتهم الوحيدة، وهذا هو دليلهم العجيب! التقليد الجامد الذي لا يقوم علىٰ علمٍ ولا دليل ولا يعتمد علىٰ تفكير وتمحيص. التقليد الذي يريد الإسلام أن يحررهم منه وهم يرفضون؛ وأن يطلق عقولهم لتتدبر ويشيع فيها اليقظة والحركة والنور وهم يحيدون، فيأبوا هم الانطلاق من قيود الماضي المنحرف، ويتمسكوا بالأغلال والقيود.

---

(١) فتح القدير (٤/ ١٠٤).

إن الإسلام حريةٌ في الضمير منضبطة بضوابط الشرع، وحركةٌ في الشعور متمسكة بالدليل، وتطلعٌ إلىٰ النور المبين، ومنهجٌ جديدٌ للحياة طليقٌ من قيود التقليد والجمود، ومع ذلك كان يأباه ذلك الفريق من الناس، ويدفعون عن أرواحهم هداه، ويجادلون في الله بغير علمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ منير.. ومن ثم يسخر منهم، ويشير من طرفٍ خفيٍ إلىٰ عاقبة هذا الموقف المريب: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].. فهذا الموقف إنما هو دعوةٌ من الشيطان لهم، لينتهي بهم إلىٰ عذاب السعير. فهل هم مصرون عليه ولو قادهم إلىٰ ذلك المصير؟... لمسةٌ موقظةٌ ومؤثرٌ مخيف، بعد ذلك الدليل الكوني العظيم اللطيف.

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧] «وفي هذا زجرٌ عن التقليد شديدٌ، وكم في الكتاب العزيز من التنبيه علىٰ هذا والتحذير منه والتنفير عنه، ولكن لمن يفهم معنىٰ كلام الله ويقتدي به وينصف من نفسه لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم ومزيد البلادة وشدة التعصب»[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١] وفي هذه الآية تقليدٌ للعلماء والعباد في تحليل الحرام وتحريم الحلال بلا تفكيرٍ ولا روية، وإلا فمن فكر وتأمل علم أن الحلال ما أحله الله ورسوله، وأن الحرام ما حرمه الله ورسوله.

وسبب نزول هذه الآية ما ذكره ابن كثير وغيره من المفسرين فيما رواه الإمام أحمد والترمذي من طرق عن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ

---

(١) فتح القدير (٤/ ٣٠٦).

فر إلىٰ الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأُسرت أخته وجماعة من قومه، ثم من رسول الله ﷺ علىٰ أخته وأعطاها، فرجعت إلىٰ أخيها، ورغبته في الإسلام وفي القدوم علىٰ رسول الله ﷺ فقدم عدي المدينة، وكان رئيسًا في قومه طيئ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل علىٰ رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: «**بلىٰ، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»(١). ويوم القيامة يندم المقلدة من الكفار عند دخولهم النار كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾ [الأحزاب: ٦٧]. «والمراد بالسادة والكبراء هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم في الدنيا ويقتدون بهم، وفي هذا زجرٌ عن التقليد شديدٌ، وكم في الكتاب العزيز من التنبيه علىٰ هذا والتحذير منه والتنفير عنه، ولكن لمن يفهم معنىٰ كلام الله ويقتدي به وينصف من نفسه، لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم ومزيد البلادة وشدة التعصب»(٢).

فيجب علىٰ المسلم ألا يفكر برأس غيره، وألا يقاد فينقاد بغير تفكيرٍ ولا تبين، بل الواجب أن يفكر وينظر ويتفقه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ [الزمر: ١٧-١٨] يقول الألوسي في تفسيره: «أي هم أصحاب العقول

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٩).

(٢) فتح القدير (٤/ ٣٠٦).

السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوىٰ المستحقون للهداية لا غيرهم، وفي الآية دلالةٌ علىٰ حط قدر التقليد المحض ولذا قيل: شمر وكن في أمور الدين مجتهدًا،ولا تكن مثل عير قيد فانقادا»[(١)].

«ولقد عظمت المحنة علىٰ الشرع وأهله بهذا الجنس من المقلدة، حتىٰ بطل كثيرٌ من الشريعة الصحيحة التي لا خلاف بين المسلمين في ثبوتها لاشتهارها بين أهل العلم، ووجودها إما في محكم الكتاب العزيز أو في ما صح من دواوين السنة المطهرة التي هي مشتهرةٌ بين الناس اشتهارًا علىٰ وجهٍ لا يخفىٰ علىٰ من ينسب إلىٰ العلم، وإن كان قليل الحظ فيه»[(٢)].

والتقليد الأعمىٰ يدفع البعض إلىٰ التعصب للآراء الباطلة وتقديمها أحيانًا علىٰ نصوص القرآن والسنة الصحيحة المخالفة لهذه الآراء والأقوال الباطلة، فالتقليد يعمي ويصم، والإسلام يرفض التعصب للآراء الباطلة، فهو يقول لأهله في كتابه العزيز: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]. والمتعصب لرأيٍ باطلٍ يعتقد أنه علىٰ الحق، وهذا الاعتقاد ليس باعتقادٍ سائغٍ شرعًا، إذ مناط الحق الكتاب والسنة، و«التعصب من أكبر المعوقات التي تشل التفكير، وتحول دون الوصول إلىٰ النتائج بشكل سليم»[(٣)].

والتعصب للآراء الباطلة يقيد العقل ويحجره ويعميه عن قبول الحق، فلا يجعله يفكر كما ينبغي، ولذلك فمن عوائق التفكير التعصب للآراء الباطلة؛ لأنه

---

(١) روح المعاني (٢٣/ ٢٥٣).
(٢) أدب الطلب (١/ ٨١)، المؤلف: محمد بن علي الشوكاني.
(٣) تربية الشباب، الأهداف والوسائل، محمد الدويش، ص ٩٥.

منهجٌ بعيدٌ عن منهج الإسلام لا يفسح المجال للعقل ليكون مرنًا يفحص الأشياء، بل إن التعصب يحمل الرجل العاقل علىٰ الكلمات المتناقضة.

والمتأمل في حال من يتعصب لرأيٍ باطل، يجد أنه عطل عقله وأسلم هواه لهذا الرأي الباطل، ولم يبحث عن الحق في الكتاب والسنة، وأقوال الراسخين في العلم. وأمثال هؤلاء ممن خذلهم الله، واتبعوا أهواءهم، وفيهم وفي أمثالهم يقول تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢﴾ [يونس: ١٢].

والتعصب للآراء الباطلة يقود إلىٰ التقليد الأعمىٰ في الأقوال والأفعال من غير دليل، وبذلك قدمت الأهواء وأقوال الرجال علىٰ القرآن والسنة الصحيحة. وبسبب البعد عن نصوص القرآن والسنة ضيق علىٰ الناس أفق الشرع الواسع، وضعف التفكير أو تلاشىٰ عند الكثير من المتعصبة للآراء الباطلة، والمقلدين تقليدًا أعمىٰ بلا دليل.

«والتعصب هو الداء العضال الذي استشرىٰ مع الأيام خطره، وأعيا دواؤه، وقد ساعد هذا الداء الخطير علىٰ إضعاف المستوىٰ التعليمي، وانحدار العلوم وجمودها وتكبيل العقول والأفهام والحجر عليها، بالإضافة إلىٰ ما تسبب فيه من تفريق كلمة المسلمين وإفساد ذات بينهم، وزرع العداء والشقاق بين أفرادهم وجماعاتهم»(١).

«ولو نظر ذلك المتعصب بعين الإنصاف ورجع إلىٰ عقله وما تقتضيه فطرته

---

(١) الانحرافات العقدية والعلمية في القرن الثالث عشر والرابع عشر وأثرهما في حياة الأمة(٢/ ٧١)، المؤلف: علي بن بخيت الزهراني.

الأصلية لكف عن فعله وأقصر عن غيه وجهله، ولكنه قد حيل بينه وبين ذاك، وفرغ الشيطان منه إلا من عصم الله وقليل ما هم»(١).

«بل التعصب مع كونه مفسدًا للحظ الأخروي يفسد عليه أيضًا الحظ الدنيوي، فإنه إذا تعصب لسلفه بالباطل فلا بد أن يعرف كل من له فهمٌ أنه متعصبٌ، وفي ذلك عليه من هدم الرفعة التي يريدها، والمزية التي يطلبها ما هو أعظم عليه وأشد من الفائدة التي يطلبها، بكون له قريب عالم فإنه لا ينفعه صلاح غيره مع فساد نفس، وإذا لم يعتقد فيه السامع التعصب اعتقد بلادة الفهمِ ونقصان الإدراك وضعف التحصيل؛ لأن الميل إلىٰ الأقوال الباطلة ليس من شأن أهل التحقيق الذين لهم كمال إدراك، وقوة فهم، وفضل درايةٍ، وصحة روايةٍ، بل ذلك دأب من ليست له بصيرةٌ نافذةٌ ولا معرفةٌ نافعة»(٢).

«ولا يبقىٰ في طبائع هؤلاء شيءٌ من نور العلم وهدىٰ أهله وأخلاقهم، بل هم أشبه شيءٍ بالجبابرة وأهل المباشرة للمظالم، ومع هذا فهم أشد خلق الله تعصبًا وتعنتًا وبعدًا من الحق، ورجوعهم إلىٰ الحق من أبعد الأمور وأصعبها؛ لأنه لم يبق في أفهامهم فضلةٌ لتعقل ذلك وتدبره، بل قد صار بعضها مستغرقًا بالرأي وبعضها مستغرقًا بالدنيا»(٣).

«واعلم أنه كما يتسبب عن التعصب محق بركة العلم وذهاب رونقه وزوال ما يترتب عليه من الثواب، كذلك يترتب عليه من الفتن المفضية إلىٰ سفك الدماء،

---

(١) أدب الطلب (١/ ٤١).
(٢) أدب الطلب (١/ ٥٩ – ٦٠).
(٣) أدب الطلب (١/ ٦٨).

وهتك الحرم، وتمزيق الأعراض، واستحلال ما هو في عصمة الشرع ما لا يخفىٰ علىٰ عاقل، وقد لا يخلو عصرٌ من العصور ولا قطرٌ من الأقطار من وقوع ذلك، لا سيما إذا اجتمع في المدينة والقرية مذهبان أو أكثر، وقد يقع من ذلك ما يفضي إلىٰ إحراق الديار وقتل النساء والصبيان»(١).

«وهكذا كان التعصب المذهبي انحرافًا عظيمًا اتسعت به دائرة الانحرافات، وزاد في عمقها من حيث حجره علىٰ العقول، وتكبيله الأفهام، وتسببه في جمود العلوم، وكذلك ما بثه من عداءٍ ونزاعٍ وانقسام، مما كان له الأثر في التدهور الذي وصل إليه المسلمون، والانحطاط الذي وقعوا فيه»(٢).

يقول محمد قطب عن التعصب المذهبي: «وفوق ذلك تحول الطلاب إلىٰ حفظه لا مفكرين، يتعالم الواحد منهم بمقدار ما يحفظ من المتون والشروح والحواشي، ولكنه لا يفكر لنفسه ولا يفكر بنفسه، ففقد «العلماء» أصالة العلم وأصبحوا مجرد نقلةٍ مقلدين، بل أضيف إلىٰ ذلك شرٌّ ثالث، هو التعصب المذهبي الذي عم الدارسين، كلٌّ يتعصب لمذهبه الذي نشأ عليه، ويجعل قصارىٰ جهاده من أجل دينه أم يثبت تفوق مذهبه وشيوخه علىٰ المذاهب الأخرىٰ وشيوخها، وأن يدخل في معارك من أجل المذهب تتجاوز في كثيرٍ من الأحيان حد الجدل باللسان، إلىٰ التدافع بالأيدي والأبدان، وفشت الفرقة والتنابز بين أصحاب المذاهب المختلفة»(٣).

---

(١) أدب الطلب (١/ ٩٢).

(٢) الانحرافات العقدية والعلمية في القرن الثالث عشر والرابع عشر وأثرهما في حياة الأمة (٢/ ٨٧ – ٨٨).

(٣) واقعنا المعاصر، محمد قطب، ص ١٧٦.

وما منع كثيرٌ من الكفار من اتباع الحق «وهو دين الإسلام» مع ظهوره إلا التعصب للكفر، والحرص علىٰ المناصب، كحال بعض كفار قريش من أشرافهم ومن أمثلة ذلك أبو جهل حين قال: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتىٰ إذا تجاثينا علىٰ الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتىٰ ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه»[(١)].

«وكما حصل من الوليد بن المغيرة في بداية البعثة حين اجتمع مع نفر من قومه، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر موسم الحج فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضا. فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأيًا نقول به. قال: بل أنتم قولوا أسمع. فقالوا: نقول كاهن. فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكاهن وسجعه. فقالوا: نقول مجنون. فقال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو تخنقه، ولا تخالجه ولا وسوسته. فقالوا: نقول شاعر.

فقال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثه، ولا عقده. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحر، فقولوا: ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين

(١) السيرة النبوية (٢/ ١٥٧)، المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري.

المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته. فأنزل الله تعالىٰ في الوليد بن المغيرة في ذلك قوله: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦﴾ [المدثر: ١١ - ١٦] «أي خصيمًا»(١).

وكحال كثيرٍ من اليهود الذين رفضوا الدخول في الإسلام تعصبًا ليهوديتهم، فقد كانوا ينتظرون في المدينة بعثة نبيٍ ورد ذكره في التوراة، وحين بعث من غيرهم ناصبوا له العداء، ولو فكروا لعلموا أن المطلوب منهم طاعة الله وطاعة رسوله كائنًا ما كان، لكن التعصب أعماهم عن التفكير.

«ورد عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلىٰ عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه. قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء، في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي، حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب، مغلسين. قالت: فلم يرجعا حتىٰ كانا مع غروب الشمس. قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينىٰ. قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحدٌ منهما، مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله؛ قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت»(٢).

وكحال كسرىٰ وقيصر وغيرهم ممن لم يدخلوا في الإسلام مع يقينهم بصحته، ولذلك قال قيصر بعد أن جاءه دحية الكلبي برسالة من النبي ﷺ يدعوه فيها إلىٰ الإسلام،

---

(١) السيرة النبوية (٢/ ١٠٥- ١٠٦).

(٢) السيرة النبوية (٣/ ٥٢).

وبعد أن سأل أبا سفيان عدة أسئلة، وكان موجودًا في الشام عند وصول الرسالة

قال قيصر: «فعلمتُ أنه نبيٌّ، وقد علمتُ أنه مبعوثٌ، ولم أظن أنه فيكم، وإن كان ما كلّمتني به حقًا فسيملك موضعَ قدميَّ هاتين، ولو أعلم أني أخلص إليه لتكلفت ذلك، قال أبو سفيان: فَعَلَتْ أصواتُ الذين عنده وكثر لَغَطُهم، فلا أدري ما قالوا، وأُمر بنا فأخرجنا، فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال: لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر.

ولما سار قيصر إلىٰ حمص أَذِن لعظماء الروم في دَسْكَرةٍ له، ثم أمر بأبوابها فأُغلقت، ثم قال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت مُلككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حُمُر الوحش إلىٰ الأبواب فوجدوها مغلقة، فلما رأىٰ قيصر نفرتهم، قال: ردّوهم عليَّ، فقال لهم: إني قلت مقالتي أختبر بها شدّتكم علىٰ دينكم، فسكتوا له ورضوا عنه. فغلبه حُبُّ مُلكه علىٰ الإسلام، فذهب بإثمه وإثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام، ولكنه ردّ دحيةَ ردًّا جميلًا»(١).

ومن الآيات التي تبين أثر التعصب علىٰ التفكير ما ورد أن كثيرًا من اليهود والنصارىٰ يرغبون في ترك المسلمين لإسلامهم حسدًا من عند أنفسهم، مع معرفتهم أن هذا الدين حقٌّ من عند الله، لكن التعصب منعهم من استخدام عقولهم للتفكير الذي ينفعهم ويقودهم للإسلام، يقول تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

(١) نور اليقين (١/ ١٦٣ – ١٦٤)، المؤلف: الشيخ محمد الخضري.

و«من شاهد هاتيك المعجزات الباهرة، والآيات الزاهرة، يبعد منه - كيفما كان - عدم تبين الحق ومعرفة مطالع الصدق، إلا أن الحظوظ النفسانية والشهوات الدنية والتسويلات الشيطانية حجبت من حجبت عن الإيمان وقيدت من قيدت في قيد الخذلان»(١).

وأهل الكتاب «ليسوا من أهل الغباوة الذين قد يغرب عليهم وضوح الحق، بل ذلك علىٰ سبيل الحسد والعناد»(٢).

والمتعصب للآراء الباطلة لم يُسلِّم عقله لنصوص القرآن والسنة ابتداءً، بل اعتقد أن هذه الآراء صحيحةٌ وتمسك بها ونافح عنها، وسعىٰ لإخضاع النصوص لهذه الآراء الباطلة.

قال الشاطبي: «ولذلك سمىٰ أهل البدع أهل الأهواء لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها حتىٰ يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا علىٰ آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورًا فيها من وراء ذلك. وأكثر هؤلاء هم أهل التحسين والتقبيح ومن مال إلىٰ الفلاسفة وغيرهم، ويدخل في غمارهم من كان منهم يخشىٰ السلاطين لنيل ما عندهم، أو طلبًا للرياسة، فلا بد أن يميل مع الناس بهواهم، ويتأول عليهم فيما أرادوا - حسبما ذكره العلماء ونقله الثقات من مصاحبىٰ السلاطين»(٣).

وقال: «وأن الشرع قد دل علىٰ أن الهوىٰ هو المتبع الأول في البدع، وهو

---

(١) روح المعاني (١/ ٣٥٧).

(٢) تفسير البحر المحيط (١/ ٥١٨).

(٣) الاعتصام (٢/ ١٧٦)، المؤلف: أبو إسحاق الشاطبي.

المقصود السابق في حقهم، ودليل الشرع كالمتبع في حقهم، ولذلك تجدهم يتأولون كل دليل خالف هواهم، ويتبعون كل شبهةٍ وافقت أغراضهم، ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] فأثبت لهم الزيغ أولًا، وهو الميل عن الصواب، ثم اتباع المتشابه وهو خلاف المحكم الواضح المعنىٰ الذي هو أم الكتاب ومعظمه، ومتشابه علىٰ هذا قليلٌ فتركوا اتباع المعظم إلىٰ اتباع الأقل المتشابه الذي لا يعطي مفهومًا واضحًا، ابتغاء تأويله وطلبًا لمعناه الذي لا يعلمه إلا الله أو يعلمه الله والراسخون في العلم»(١).

ومما ورد في التحذير من التقليد الأعمىٰ والتعصب للآراء الباطلة قول ابن القيم: «ثُمَّ خَلَفَ من بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ فَرَّقُوا دِينَهُمْ، وَكَانُوا شِيَعًا، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ، وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا، وَكُلٌّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ، جَعَلُوا التَّعَصُّبَ لِلْمَذَاهِبِ دِيَانَتَهُمْ التي بها يَدِينُونَ، ورؤوس أَمْوَالِهِمْ التي بها يَتَّجِرُونَ، وَآخَرُونَ منهم قَنَعُوا بِمَحْضِ التَّقْلِيدِ، وَقَالُوا إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا علىٰ أُمَّةٍ، وَإِنَّا علىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ، وَالْفَرِيقَانِ بِمَعْزِلٍ عَمَّا يَنْبَغِي اتِّبَاعُهُ من الصَّوَابِ، وَلِسَانُ الْحَقِّ يَتْلُو عليهم ليس بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ، قال الشَّافِعِيُّ -قَدَّسَ اللهُ تَعَالَىٰ رُوحَهُ- أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ علىٰ أَنَّ من اسْتَبَانَتْ له سُنَّةُ رسول اللهِ ﷺ لم يَكُنْ له أَنْ يَدَعَهَا لِقَوْلِ أَحَدٍ من الناس.

قال أبو عُمَرَ وَغَيْرُهُ من الْعُلَمَاءِ: أَجْمَعَ الناس علىٰ أَنَّ الْمُقَلِّدَ ليس مَعْدُودًا من أَهْلِ الْعِلْمِ، وَأَنَّ الْعِلْمَ مَعْرِفَةُ الْحَقِّ بِدَلِيلِهِ، وَهَذَا كما قال أبو عُمَرَ -رحمه الله تَعَالَىٰ- : فإن الناس لَا يَخْتَلِفُونَ أَنَّ الْعِلْمَ هو الْمَعْرِفَةُ الْحَاصِلَةُ عن الدَّلِيلِ، وَأَمَّا بِدُونِ الدَّلِيلِ فَإِنَّمَا هو تَقْلِيدٌ.

---

(١) الاعتصام (١/ ١٤٣).

فَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَانِ الْإِجْمَاعَانِ إِخْرَاجَ الْمُتَعَصِّبِ بِالْهَوَىٰ وَالْمُقَلِّدِ الْأَعْمَىٰ عن زُمْرَةِ الْعُلَمَاءِ، وَسُقُوطَهُمَا بِاسْتِكْمَالِ من فَوْقَهُمَا الْفُرُوضَ من ورثة الْأَنْبِيَاءِ، فإن الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، فإن الْأَنْبِيَاءَ لم يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ، وَكَيْفَ يَكُونُ من وَرَثَةِ الرَّسُولِ ﷺ من يَجْهَدُ وَيَكْدَحُ في رَدِّ ما جاء بِهِ إِلَىٰ قَوْلِ مُقَلِّدِهِ وَمَتْبُوعِهِ؟ وَيُضَيِّعُ سَاعَاتِ عُمْرِهِ في التَّعَصُّبِ وَالْهَوَىٰ، وَلَا يَشْعُرُ بِتَضْيِيعِهِ؟ تَاللهِ إِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمَّتْ فَأَعْمَتْ، وَرَمَتْ الْقُلُوبَ فَأَصْمَتْ، رَبَا عليها الصَّغِيرُ، وَهَرِمَ فيها الْكَبِيرُ، وَاُتُّخِذَ لِأَجْلِهَا الْقُرْآنُ مَهْجُورًا، وكان ذلك بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ في الْكِتَابِ مَسْطُورًا، وَلَمَّا عَمَّتْ بها الْبَلِيَّةُ، وَعَظُمَتْ بِسَبَبِهَا الرَّزِيَّةُ، بِحَيْثُ لَا يَعْرِفُ أَكْثَرُ الناس سِوَاهَا، وَلَا يُعِدُّونَ الْعِلْمَ إِلَّا إِيَّاهَا، فَطَالِبُ الْحَقِّ من مَظَانِّهِ لَدَيْهِمْ مَفْتُونٌ، وَمُؤْثِرُهُ علىٰ ما سِوَاهُ عِنْدَهُمْ مَغْبُونٌ، نَصَبُوا لِمَنْ خَالَفَهُمْ في طريقتهم الْحَبَائِلَ، وَبَغَوْا له الْغَوَائِلَ، وَرَمَوْهُ عن قَوْسِ الْجَهْلِ وَالْبَغْيِ وَالْعِنَادِ، وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦﴾[غافر:٢٦] فَحَقِيقٌ بِمَنْ لِنَفْسِهِ عِنْدَهُ قَدْرٌ وَقِيمَةٌ أَلَا يَلْتَفِتَ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ، وَلَا يَرْضَىٰ لها بِمَا لَدَيْهِمْ، وإذا رُفِعَ له عِلْمُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ شَمَّرَ إِلَيْهِ، ولم يَحْبِسْ نَفْسَهُ عليهم، فما هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ حتىٰ يُبَعْثَرَ ما في الْقُبُورِ، وَيُحَصَّلُ ما في الصُّدُورِ، وَتَتَسَاوَىٰ أَقْدَامُ الْخَلَائِقِ في الْقِيَامِ لِلَّهِ، وَيَنْظُرُ كُلُّ عَبْدٍ ما قَدَّمَتْ يَدَاهُ، وَيَقَعُ التَّمْيِيزُ بين الْمُحِقِّينَ وَالْمُبْطِلِينَ، وَيَعْلَمُ الْمُعْرِضُونَ عن كِتَابِ رَبِّهِمْ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾ [سبأ: ٤٦].

(١) إعلام الموقعين (١/ ٧ – ٨).

«وإنما قال: «مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ» لأن الجماعة يكون مع اجتماعهم تشويش الخاطر والمنع من التفكر، وتخليط الكلام والتعصب للمذاهب، وقلة الإنصاف، كما هو مشاهدٌ في الدروس التي يجتمع فيها الجماعة فلا يوقف فيها علىٰ تحقيق، وأما الاثنان إذا نظرا نظر إنصاف، وعرض كل واحد منهما علىٰ صاحبه ما ظهر له، فلا يكاد الحق أن يعدوهما، وأما الواحد إذا كان جيد الفكر صحيح النظر، عاريًا عن التعصب، طالبًا للحق، فبعيد أن يعدوه»(١).

«والمتعصب وإن كان بصره صحيحًا فبصيرته عمياء، وأذنه عن سماع الحق صماء، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلًا بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح، وتلقىٰ ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: ٤٢ – ٤٤]. فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ «ذكر هذا عقب ما تقدم من عدم الاهتداء بالأسماع والأبصار لبيان أن ذلك لم يكن لأجل نقصٍ فيما خلقه الله لهم من السمع، والعقل، والبصر والبصيرة، بل لأجل ما صار في طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق، والمجادلة بالباطل، والإصرار علىٰ الكفر»(٣).

---

(١) تفسير البحر المحيط (٧/ ٢٧٦ – ٢٧٧).
(٢) فتح القدير (٢/ ٢٤٣).
(٣) فتح القدير (٢/ ٤٤٨).

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٨ - ٧٠]. فقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: بل أتقولون به جنة؟ أي جنون مع أنهم قد عملوا أنه أرجح الناس عقلًا؟ ولكنه جاء بما يخالف هواهم فدفعوه وجحدوه تعصبًا وحميةً، ثم أضرب سبحانه عن ذلك كله فقال: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا في حق القرآن والرسول، بل جاءهم ملتبسًا بالحق، والحق هو الدين القويم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لما جبلوا عليه من التعصب والانحراف عن الصواب والبعد عن الحق، فلذلك كرهوا هذا الحق الواضح الظاهر»[(١)]. «وكم من جهودٍ فكريةٍ طيبةٍ أهملت بسبب التعصب؟! حتىٰ هبط الفكر إلىٰ الانغلاق والجمود»[(٢)].

وفي قول قوم نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]، دليلٌ علىٰ أن التعصب لهذه الأصنام حجرت عقولهم عن التفكير في أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، فكيف تعبد من دون الله؟

وديننا الإسلامي فيه متسعٌ للأفكار، واختلاف الأنظار، ما دام الجميع معتصمًا بحبل الله، مطبقًا لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) فتح القدير (٣/ ٤٩٢).

(٢) مجلة البيان ٣٣، نوفمبر ١٩٩٠، ص ٢٠.



المبحث الثالث
الجهل

والجهل لغة: نقيض العلم[(١)].

واصطلاحًا: «انتفاء العلم أو تصور الشيء علىٰ خلاف حقيقته»[(٢)].

فالجهل من الجهالة ضد المعرفة، والجهل من الحماقة ضد العقل، إنما تنبعث من الجهالة والحمق إلىٰ أبعد الحدود، والانحراف عن التوحيد إلىٰ الشرك إنما ينشأ من الجهل والحماقة؛ وأن العلم والتعقل يقود كلاهما إلىٰ الله الواحد؛ وأنه ما من علمٍ ولا عقلٍ يقود إلىٰ غير هذا الطريق.

❑ أثر الجهل على التفكير:

للجهل دورٌ كبيرٌ في عدم التفكير كما ينبغي، فكثيرٌ من الشرور قديمًا وحديثًا حصلت نتيجة للجهل، سواءً الجهل البسيط أم الجهل المركب، فما عبدت الأصنام التي لا تضر ولا تنفع إلا نتيجةً للجهل، وإلا الإنسان العاقل كيف يعبد صنمًا من حجرٍ أو خشبٍ أو ترابٍ أو طعام؟ لا ينفع نفسه فكيف ينفع غيره، ولا يضر أحدًا قط وإن توهموا ذلك، ولولا الجهل لما شُرب الخمر الذي يُذهب العقل، وإلا فكيف يشرب العاقل شيئًا يذهب عقله الذي يعد من نعم الله العظيمة؟ ولولا الجهل لم

---

(١) لسان العرب (١١/ ١٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٤٣٩).

تتقاتل القبائل من أجل ناقةٍ قُتلت، أو فرسٍ لُطمت، حتىٰ قُتل الكثير من البشر من أجل شيءٍ لا يساوي شيئًا أمام حياة الإنسان، ولولا الجهل لما قتل الأب ابنته وهي حيةٌ بلا ذنبٍ إلا خوف العار، أو خوف الفقر.

ولقد بُعث النبي ﷺ بالعلم الذي يدعو إلىٰ التفكير، ليحارب الجهل الذي يؤثر علىٰ التفكير تأثيرًا سلبيًا، فالعلم يدعو الإنسان ليفكر تفكيرًا سليمًا صحيحًا فيبادر إلىٰ عمل النافع، ويتجنب كل عملٍ ضار.

لقد كانت أول كلمةٍ نزلت علىٰ النبي محمد ﷺ هي: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق: ١ - ٤]، إنها القراءة التي حاربت الجهل، ودعت إلىٰ العلم والتفكير، فحددت المعارف النافعة، وبينت أهميتها، وعرفت أهدافها، واتضحت آثارها.

ولقد وردت نصوصٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم تذم الجهل والجاهلين، وتبين أنهم لم يستخدموا العقل كما ينبغي نتيجةً لجهلهم، فحصل منهم ما حصل. فمن ذلك ما ورد في قصة نوح عليه السلام كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ۝٢٦ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٢٧ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ۝٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۝٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠﴾ [هود: ٢٥ - ٣٠] فهذا نوح عليه السلام يخاطب قومه بعد أن بين لهم أنه نذيرٌ

مبين، ودعاهم إلىٰ عبادة الله، وبين خوفه عليهم من عذابه، فرد عليه الملأ وهم الأشراف والرؤساء وعلية القوم، كعادة أمثالهم، بأنك بشرٌ مثلنا، وما تبعك إلا أراذلنا «أي: ما نرىٰ اتبعك منا إلا الأراذل والسفلة بزعمهم. وهم في الحقيقة الأشراف، وأهل العقول، الذين انقادوا للحق، ولم يكونوا كالأراذل الذين يقال لهم الملأ، الذين اتبعوا كل شيطانٍ مريد، اتخذوا آلهةً من الحجر والشجر، يتقربون إليها ويسجدون، فهل ترىٰ أرذل من هؤلاء وأخس؟ وقولهم: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ أي: إنما اتبعوك من غير تفكرٍ وروية، بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك، يعنون بذلك أنهم ليسوا علىٰ بصيرةٍ من أمرهم، ولم يعلموا أن الحق المبين تدعو إليه بداهة العقول، وبمجرد ما يصل إلىٰ أولي الألباب يعرفونه ويتحققونه، لا كالأمور الخفية التي تحتاج إلىٰ تأملٍ وفكرٍ طويل.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ أي: لستم أفضل منا فننقاد لكم، ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ وكذبوا في قولهم هذا، فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيدةً لنوح، ما يوجب لهم الجزم التام علىٰ صدقه، ولهذا «قال» لهم نوح مجاوبًا ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ أي: علىٰ يقينٍ وجزم، يعني وهو الرسول الكامل القدوة، الذي ينقاد له أولو الألباب، وتضمحل في جنب عقله عقول الفحول من الرجال، وهو الصادق حقًا، فإذا قال: إني علىٰ بينةٍ من ربي، فحسبك بهذا القول، شهادةً له وتصديقًا»[١].

وفي قوله تعالىٰ عن الكفار: ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ يقول ابن كثير في تفسيره: «هذا اعتراض الكافرين علىٰ نوحٍ عليه السلام وأتباعه، وهو دليلٌ علىٰ جهلهم وقلة علمهم

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٨٠).

وعقلهم، فإنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيحٌ سواءً اتبعه الأشراف أو الأرذال... وقولهم بادي الرأي ليس بمذمةٍ ولا عيبٍ؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقي للرأي ولا للفكر مجالٌ، بل لابد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاءٍ وذكاءٍ، بل لا يفكر ها هنا إلا غبيٌ أو عيي»(١).

فرد عليهم أنه لا يريد من دعوته إيّاهم مالًا، ولن يطرد المؤمنين معه وإن كانوا ضعفاء فهم سيلاقون ربهم فيجازيهم على إيمانهم بجنات النعيم، ثم بين لهم أنهم جهلة، وإلا لو وجد لديهم العلم الذي يدعوهم إلى التفكير، لما طلبوا إبعاد أولياء الله عن نبي الله، ولما ردوا الحق لأن أتباعه من الضعفاء، أو لأن النبي بشرٌ ولم يتفضل عليهم بشيء، ولعرفوا حقيقة الوجود والغاية من خلقهم، ولحققوا ما أُمروا به، فهم جهلةٌ بعواقب الأمور، مع اغترارهم بظواهرها، ثم دعاهم إلى التذكر الذي يحصل نتيجةً للتفكير.

ومن الآيات التي تبين أثر الجهل على التفكير ما وصف الله به بني إسرائيل حين طلبوا من نبيهم موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا من الأصنام يعبدونه كما فعل غيرهم ممن مروا عليهم، فوجدوهم يعكفون على أصنامٍ لهم يعبدونها من دون الله، فوصفوا بالجهل وعدم استخدام العقل كما ينبغي، وإلا كيف يعبد من لا ينفع ولا يضر، وكيف يقلدوا أقوامًا وقعوا في الشرك الذي يتنافى مع الفطر المستقيمة، والعقول السليمة، فقال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨]. ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ «يعني تكلمتم

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٣).

بغير علمٍ وعقل، وجهلتم الأمر»(١). وفي تفسير الوسيط: «أي: إنكم يا بني إسرائيل بطلبكم هذا برهنتم علىٰ أنكم قومٌ قد ملأ الجهل قلوبكم، وغطىٰ علىٰ عقولكم، فصرتم لا تفرقون بين ما عليه هؤلاء من ضلالٍ مبين، وبين ما تستحقه الألوهية من صفاتٍ وتعظيمٍ، ولم يقيد ما يجهلونه ليفيد أنه جهلٌ كاملٌ شاملٌ يتناول فقد العالم، وسفه النفس، وفساد العقل، وسوء التقدير»(٢).

ومن الآيات التي تبين أثر الجهل علىٰ التفكير، ما ورد في ذم لوطٍ عليه السلام لقومه لفعلهم الفاحشة بإتيان الذكور من دون النساء، بسبب جهلهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النمل: ٥٤ – ٥٥]. ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ «أي: الفعلة الشنعاء، التي تستفحشها العقول والفطر، وتستقبحها الشرائع»(٣). ولو فكروا تفكيرًا صحيحًا سليمًا لعلموا قبح فعلهم، ولميزوا بين الحسن والقبيح، ولكانوا علىٰ حذرٍ من عاقبة هذه الفعلة الشنيعة. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ «إضرابٌ عن الإنكار إلىٰ الإخبار عن الأسباب التي جعلتهم يرتكبون هذه القبائح، وهىٰ أنهم قومٌ دينهم الجهل والسفاهة والمجون وانطماس البصيرة»(٤).

وقد ذمّ الرب جل جلاله قوم النبي ﷺ علىٰ لسانه، ووصفهم بالجهل، حين دعوه إلىٰ عبادة غير الله، من أصنامٍ نُحتت من حجارة، أو صُنعت من خشب، أو كُوِّنت من طعام، أصنامٌ لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا، فكيف تملك لغيرها، فقال

(١) تفسير السمرقندي (١/ ٥٦٠).
(٢) الوسيط لسيد طنطاوي (١/ ١٦٨١).
(٣) تفسير السعدي (١/ ٦٠٧).
(٤) الوسيط لسيد طنطاوي (١/ ٣٢٢٦).

تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ۝٦٤﴾ [الزمر: ٦٤]. والجهل صفةٌ ذميمةٌ يترفّع أن يتصف بها كل عاقل، فهذا الرب جل جلاله يحذر نبيه نوحًا ﷺ من هذه الصفة بعد أن دعا ربه أن يكون ابنه من الناجين من الغرق، بعد أن قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥﴾ [هود: ٤٥]، فكان الرد من الرب جل جلاله ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾ [هود: ٤٦].

وهذا نبي الله موسىٰ ﷺ حين طلب منه قومه معرفة القاتل كما ورد في سورة البقرة، أمرهم بذبح بقرة، فقالوا له: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا﴾، فرد عليهم ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٦٧﴾ [البقرة: ٦٧]، «فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرىٰ أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل استهزاءه بمن هو آدميٌ مثله، وإن كان قد فضل عليه فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه والرحمة لعباده»(١).

«وما من شكٍ أن الجهل – علىٰ الصفة التي ذمها القرآن الكريم – من أكبر معوقات التفكير العلمي، إذ كيف يبني الجاهل تفكيره من خلال خطواتٍ علميةٍ مدروسة، وهو لا يعلم ماذا يقول، وكيف يناقش قضيةً لم يعلمها، أو علىٰ أقل تقديرٍ لم يحط بها علمًا، وهو ما أنكره المولىٰ سبحانه حين قال عن المكذبين بأمر لم يطلعوا عليه، ولم يحيطوا به علمًا حين قال سبحانه: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٩﴾ [يونس: ٣٩] »(٢).

(١) تفسير السعدي (١/ ٥٥).

(٢) منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، خليل الحدري، ص ٣٢٣.

وهذا ربنا -جل جلاله- يحذر النبي محمدًا ﷺ أن يتصف بالجهل بعد أن أعرض قومه عن الدعوة التي جاءت من عند الله فقال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ «جهلًا يحول بينهم وبين درك الحق والوصول إلىٰ الصواب»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأحقاف: ٢١ – ٢٣]. ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ «أي لا تعقلون ولا تفهمون»(٢).

---

(١) فتح القدير (٢/ ١٥٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٦١).



المبحث الرابع
الكبر

معنىٰ الكبر لغة: «الكِبر بالكسر: العظمة»[(١)]، «و الاستكبار: الامتناع عن قبول الحق معاندةً وتكبرًا»[(٢)].

معنىٰ الكبر في الاصطلاح: «المكابرة هي المنازعة في المسألة العلمية، لا لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم، وقيل المكابرة هي مدافعة الحق بعد العلم به»[(٣)].

وعرفه النبي ﷺ بقوله حين قال في الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبرٍ**، قال رجلٌ: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنةً. قال: **إن الله جميلٌ يحب الجمال، الكِبْرُ: بطَر الحق، وغمط الناس**»[(٤)].

ومعنىٰ بطر الحق: «أي دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا»[(٥)].

وفي «النهاية في غريب الحديث»: «بطر الحق: أن يتجبر عند الحق فلا يراه حقًا.

---

(١) مختار الصحاح (١/ ٢٣٤).

(٢) لسان العرب (٥/ ١٢٦).

(٣) التعريفات (١/ ٢٩٢).

(٤) صحيح مسلم (١/ ٩٣).

(٥) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (٢/ ٩٠).

وقيل هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله.»[١]، «وغمط الناس احتقارهم»[٢]، وفي «النهاية في غريب الحديث» «غمط الناس: الاستهانة والاستحقار»[٣].

ومما سبق يتبين أن معنىٰ الكبر هو: رد الحق ودفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا وعنادًا، واحتقار الناس والاستهانة بهم والاستخفاف بآرائهم.

والكِبر من أشد الأمراض التي تصرف الإنسان عن التفكير السليم، فالمتكبر لا ينتفع بشيءٍ من الآيات الكونية، ولا بالآيات القرآنية، الدالة علىٰ وحدانية الله وقدرته وعظمته.

والكبر من عوائق التفكير؛ لأنه يعمي العقل عن قبول الحق الذي يعضده الدليل، ويقبل الخطأ الذي لا يقوم علىٰ دليلٍ شرعي ولا عقلي.

«والمتكبر - بترفعه وتعاليه علىٰ عباد الله - قد اعتدىٰ - من حيث يدري أو لا يدري- علىٰ مقام الألوهية، ومثل هذا لا بد له من عقوبات، وأول هذه العقوبات: الحرمان من النظر والاعتبار، فتراه يمر علىٰ آيات الله المبثوثة في النفس وفي الكون، وهو في إعراض تام عنها: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥﴾ [يوسف:١٠٥]. ومن حرم النظر والاعتبار، كانت عاقبته البوار والخسران المبين؛ لأنه يبقىٰ مقيمًا علىٰ عيوبه وأخطائه، غارقًا في أوحاله حتىٰ تنتهي الحياة»[٤].

ولعل أوضح الآيات التي تبين أثر الكبر علىٰ التفكير هي قوله تعالىٰ:

---

(١) النهاية في غريب الأثر (١/ ١٣٥)، المؤلف: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري.

(٢) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (٢/ ٩٠).

(٣) النهاية في غريب الأثر (٣/ ٣٨٧).

(٤) آفات علىٰ الطريق، د/ السيد محمد نوح، المجلد الأول، ص ١٦٠.

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ [الأعراف: ١٤٦]. فقوله: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾ المنصوبة في الأفاق والأنفس ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالطبع علىٰ قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها»(١).

وقال ابن كثير في تفسيره: «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة علىٰ عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون علىٰ الناس بغير حقٍ، كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام:١١٠] وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥] وقال بعض السلف: «لا ينال العلم حييٌ ولا مستكبر» وقال آخر: «من لم يصبر علىٰ ذل التعلم ساعةً بقي في ذل الجهل أبدًا» وقال سفيان بن عيينة في قوله: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي»(٢).

وذكر الطبري في تفسيره عن بن جريج: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾ عن خلق السماوات والأرض والآيات فيها سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا»(٣).

وذكر عند قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾

---

(١) تفسير البيضاوي (٣/ ٥٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٨).
(٣) تفسير الطبري (٩/ ٦٠).

«يقول تعالىٰ ذكره: صرفناهم عن آياتنا أن يعقلوها ويفهموها فيعتبروا بها و يذكروا فينيبوا، عقوبةً منا لهم علىٰ تكذيبهم بآياتنا، «وكانوا عنها غافلين»، يقول: وكانوا عن آياتنا وأدلتنا الشاهدة علىٰ حقيقة ما أمرناه به ونهيناهم عنه «غافلين»، لا يتفكرون فيها، لاهين عنها، لا يعتبرون بها، فحق عليهم حينئذ قول ربنا فعَطِبوا»(١).

وفي الآية تحذيرٌ من: «التكبرِ الموجبِ لعدم التفكرِ في الآيات التي هي ما كتب في ألواح التوراةِ من المواعظ والأحكامِ، أو ما يعمُّها وغيرَها من الآيات التكوينيةِ التي من جملتها ما وعد إراءَته من الفاسقين، ومعنىٰ صرفِهم عنها الطبعُ علىٰ قلوبهم بحيث لا يكادون يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بها لإصرارهم علىٰ ما هم عليه من التكبر والتجبر كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾(٢).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ﴾ أي طريق الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ عن التفكر فيها والاتعاظ بها غافلين ساهين»(٣).

فقوله: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾ «أي: عن الاعتبار في الآيات الأفقية، والنفسية، والفهم لآيات الكتاب ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾، أي: يتكبرون علىٰ عباد الله، وعلىٰ الحق، وعلىٰ من جاء به، فمن كان بهذه الصفة، حرمه الله خيرًا كثيرًا، وخذله، ولم يفقه من آيات الله، ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح»(٤).

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٦١).

(٢) تفسير أبي السعود (٣/ ٢٧١).

(٣) تفسير البغوي (٢/ ٢٠٠).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٣٠٣).

«والمتكبر محرومٌ من التفكير في الأشياء المادية أو المعنوية، وإذا حُرموا هذا فعلوا في الحياة أفعال المجانين، واستحقوا وصف الدواب البهيمية التي تعيش لشهواتها المادية فحسب، فقال تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فالآيات التي يُصرفون عن التفكير فيها هي الآيات الكونية والآيات الشرعية، فهم لا يعيرون الآيات الشرعية اهتمامًا، ولا يلقون لها بالًا، ويتعاملون مع الآيات الكونية تعامل الدواب، ووجه الشبه في ذلك هو حصر التفكير في الشهوة العاجلة ليس إلا، وإذا لم يقتنع بعض المثقفين من أبناء أمتنا بوصف الله للكفار بأنهم أنعامٌ لا تعقل، واحتج علىٰ ذلك بالتقدم المادي المذهل الذي وصلوا إليه، فليقف علىٰ وصف الخالق سبحانه العالم بأحوال كل سر، وما هو أخفىٰ، المطلع علىٰ دخائل النفوس، حين قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]. وقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد: ١٢][1].

---

(١) منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه غير منشورة، د/ خليل الحدري، ص ٣٤٧ – ٣٤٨.

❑ موقف القرآن الكريم من الكبر:

الكبر هو الذنب الذي جعل إبليس كافرًا وبسببه خرج من الجنة وكتب عليه الخلود في النار، دعاه ربه للسجود لآدم فتكبر كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤] وبين ربنا سبب كبره فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ٦١]. والكبر من ذنوب الأقوام الذين كذبوا الرسل عليهم الصلاة والسلام من لدن نوحٍ عليه السلام إلىٰ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

فهذا رب العزة والجلال يقول عن قوم نوح: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: ٧].

وعن قوم هود يقول: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥].

وعن قوم صالحٍ يقول: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأعراف: ٧٥].

وعن قوم شعيب يقول: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف: ٨٨].

وعن قوم موسىٰ يقول: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩].

وعن مشركي قريش في مكة قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ٣٥﴾ [الصافات: ٣٥].

وعن المنافقين قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ٥﴾ [المنافقون: ٥].

فالكبر منع هؤلاء الكفار من التفكير في آيات الله القرآنية وآياته الكونية، وفي صدق الرسول ﷺ، فمنعهم ذلك من قبول الحق والهدىٰ الذي جاء من رب العالمين.



نتائج مهمة

خلصت من خلال هذا الكتاب إلى بعض النتائج منها:

١- لابد من قراءة القرآن الكريم بتدبر، ليكون له الأثر البالغ في حياة المسلمين، ولابد من العمل بما فيه، وتحكيمه في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ في حياة المسلمين، فالقرآن الكريم نزل من عند الله ليكون منهج حياة في جميع الجوانب الإنسانية.

٢- التفكير من العبادات القلبية التي جاء القرآن بالتركيز والحث عليه.

٣- تقليب النظر اعتبارًا وتفكرًا في الآيات القرآنية والآيات الشرعية مطلبٌ شرعي.

٤- علىٰ المسلم أن يفكر بعقله لا بعقل غيره، ولا مانع من أن يستفيد من أفكار غيره، لكن بشرط ألا يكون لأحدٍ وصايةٌ علىٰ تفكيره.

٥- العقل في القلب وله ارتباطٌ بالدماغ، فمبدأ القوة العاقلة تكون في القلب، ثم تنتهي إلىٰ الدماغ، كما أن للعقل تعلقًا بالروح.

٦- التفكير السليم سبيل المرء إلىٰ العمل الدؤوب، وإدراك حقائق الأشياء كما ينبغي.

٧- سعادة المرء وشقاوته تبعٌ لأفكاره.

٨- التفكير النافع هو الذي يبعث علىٰ فعل الطاعات وترك المنكرات.

٩- التفكير السليم من أسباب زيادة الإيمان، وقوة اليقين، وحياة القلوب، وطريق إلىٰ السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة.

١٠- القرآن الكريم يهتم بالتربية عمومًا، وبتربية العقل علىٰ التفكير خصوصًا.

١١- القرآن الكريم يحث علىٰ التفكير ويسعىٰ لتنميته بأساليب مباشرة وغير مباشرة، وذلك من أجل الرقي بتفكير الإنسان ليكون نافعًا لنفسه ودينه وأمته.

١٢- التفكير ينمو بشكل أكبر لدىٰ الإنسان عند تنويع الأساليب التي دعا القرآن للتفكير فيها، وعند سلامته من عوائق التفكير.

١٣- القرآن الكريم يستخدم عدة أساليب للدعوة إلىٰ التفكير، ومنها حث الأنبياء أقوامهم علىٰ التفكير، والأمر بالتفكير، والثناء علىٰ من يفكر، وذم من لا يفكر.

١٤- تنوع أساليب التفكير في القرآن الكريم، مراعاةً لتفاوت عقول الناس، ولجذبهم للتفكير.

١٥- مجالات التفكير عديدةٌ، من أهمها التفكير في الآيات القرآنية والآيات الكونية وفي الأنفس، وفي الأوامر الشرعية.

١٦- القرآن نهىٰ عن التفكير في أمورٍ عدةٍ منها الذات الإلهية، ومفاتيح الغيب، والروح.

١٧- من أعظم عوائق التفكير السليم الكبر، واتباع الهوىٰ، والتقليد الأعمىٰ، والتعصب للآراء الباطلة، والإعراض، والغفلة، والجهل.



توصيات مهمة

في ضوء ما تقدم يمكن اقتراح التوصيات الآتية:

١- العناية باستخراج الكنوز التربوية المتنوعة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٢- العناية بقراءة القرآن الكريم، وتدريسه لجميع الطلاب، بتدبرٍ وتفكرٍ وفهمٍ لمعانيه في جميع المراحل التعليمية، ليكون له الأثر البالغ في التفكير السليم النافع بإذن الله تعالىٰ.

٣- وضع مقرراتٍ دراسيةٍ في مهارات التفكير لجميع المراحل التعليمية كلٌّ علىٰ حسب مستواه، وتكون هذه المهارات مستنبطةً من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

٤- إعادة صياغة المقررات الدراسية وأهدافها التربوية في مختلف المراحل التعليمية لتساعد علىٰ تنمية التفكير لدىٰ الدارسين.

٥- إقامة دورات متخصصة في مهارات التفكير لعموم الناس، وللمهتمين بالتربية خصوصًا، تُستنبط هذه المهارات من القرآن الكريم والسنة النبوية.

٦- إعداد رسالة جامعية أو تأليف كتاب في «المنهج النبوي في تربية العقل علىٰ التفكير».

٧- إفراد بعض فصول هذا الكتاب بتأليف كتب أو برسائل جامعيةٍ مستقلةٍ، ومن ذلك الفصل الثالث «أمورٌ حث القرآن علىٰ التفكير فيها».



الخاتمة

وبعد فأحمد الله علىٰ ما يسر من إتمام هذا الكتاب، والذي بينت فيه منهج القرآن الكريم في تربية العقل علىٰ التفكير، بعد أن قضيتُ معه رحلة مع كتاب الله؛ قراءةً وتدبرًا واستنباطًا وتأملًا، مع تصفح مجموعةٍ من كتب التفسير، وكتبٍ أخرىٰ في التربية، وفي التفكير وغيرها من أنواع العلوم، بقدر ما ساعدني الوقت والجهد، ولا أزعم أنني قد حويت كل ما يتعلق بهذا الموضوع، فهذا مما تفنىٰ فيه الأعمار، وتكلّ فيه الجهود، لكنه جهد المقل، والذي يبدأ ليواصل الغير المسيرة في هذا المضمار الكبير، فإن أصبتُ فمن الله وحده، بفضل منه ومنّة، فله الحمد أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، ويبقىٰ كتاب الله بريئًا من كل خطأٍ أو تقصير، والله المسؤول أن يكتب الأجر، ويتجاوز عن كل خطأٍ وتقصير.



المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت – ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي.

٣- إبراهيم بن محمد الغفيص، منهج القرآن في مخاطبة الإنسان بين العقل والعاطفة والفطرة - رسالة دكتوراه غير منشورة - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية الدعوة بالمدينة المنورة - ١٤٢٢ هـ.

٤- إبراهيم مصطفىٰ / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار، المعجم الوسيط / تأليف: دار النشر: دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.

٥- إبراهيم بن موسىٰ اللخمي الغرناطي المالكي، الموافقات في أصول الفقه، دار النشر: دار المعرفة - بيروت، تحقيق: عبد الله دراز.

٦- ابن بطة العكبري، الإبانة الكبرىٰ، مصدر الكتاب: موقع جامع الحديث - http: //www. alsunnah. com.

٧- ابن رجب الحنبلي الوفاة: ٧٩٥، القواعد، دار النشر: مكتبة نزار مصطفىٰ الباز – مكة - ١٩٩٩م، الطبعة: الثانية.

٨- أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، دار النشر: المكتبة التجارية الكبرىٰ – مصر.

٩- أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، مصدر الكتاب: موقع التفاسير http: .//www. altafsir. com

١٠- أبو بكر بن أبي شيبة، الأدب، مصدر الكتاب: موقع جامع الحديث http: .//www. alsunnah. com

١١- أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

١٢- أحمد البراء الأميري، فن التفكير، الطبعة الثانية، ١٤٢٧ هـ، مكتبة العبيكان، الرياض.

١٣- أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، المسند، دار النشر: مؤسسة قرطبة – مصر.

١٤- أحمد بن حنبل، الزهد، مصدر الكتاب: موقع جامع الحديث http: .//www. alsunnah. com

١٥- أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس الوفاة: ٧٢٨، كتب ورسائل وفتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية، دار النشر: مكتبة ابن تيمية، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي.

١٦- أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار النشر: دار المعرفة - بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب.

١٧- أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥، الطبعة: الرابعة.

١٨- أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار النشر: دار الجيل - بيروت

- لبنان - ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

١٩- أحمد فريد، التربية على منهج أهل السنة والجماعة، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى - ١٤٢٥ هـ.

٢٠- أحمد بن محمد الحوفي، القرآن والتفكير، الناشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة - ١٩٧٥م - ١٣٩٥ هـ.

٢١- أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت / لبنان - ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م، الطبعة: الثالثة.

٢٢- أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي الوفاة: ٧٧٠ هـ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، دار النشر: المكتبة العلمية - بيروت.

٢٣- أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، دار النشر: دار المعرفة - بيروت، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٢٤- أحمد مصطفى متولي، الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية، دار ابن الجوزي - القاهرة - ط ١ - ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥م.

٢٥- أسماء بنت محمد أبالخيل، أساليب تنمية التفكير المستنبطة من القرآن الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - كلية العلوم الاجتماعية - ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦م.

٢٦- إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠١ هـ.

٢٧- البغوي، تفسير البغوي، دار النشر: دار المعرفة - بيروت، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك.

٢٨- البيضاوي، تفسير البيضاوي، دار النشر: دار الفكر – بيروت.

٢٩- البيهقي، شعب الإيمان، مصدر الكتاب: موقع جامع الحديث http: //www. alsunnah. com.

٣٠- حامد عبد السلام زهران، علم نفس النمو «الطفولة والمراهقة»، ط ٥، عالم الكتب - القاهرة.

٣١- حسان عبد المنان، المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم، بيت الأفكار الدولية.

٣٢- الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، دار النشر: دار المعرفة - لبنان، تحقيق: محمد سيد كيلاني.

٣٣- الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار النشر: دار القلم - بيروت – ١٤٢٠ هـ- ١٩٩٩م، تحقيق: عمر الطباع.

٣٤- حسن مزيو، مكانة العقل في الإسلام، دار النشر: اللجنة الجمهورية الثقافية بولاية سوسة - تونس.

٣٥- خالد بن عبد الكريم الخياط، الأسلوب التربوي للدعوة إلىٰ الله في العصر الحاضر، ط١/ ١٤١٢ هـ - دار المجتمع - جدة.

٣٦- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، دار النشر: دار ومكتبة الهلال، تحقيق: د مهدي المخزومي / د إبراهيم السامرائي.

٣٧- خليل بن عبد الله الحدري، منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه غير منشورة - جامعة أم القرىٰ - كلية التربية -١٤٢٢ هـ.

٣٨- زغلول راغب محمد النجار، من آيات الإعجاز العلمي الحيوان في القرآن الكريم - ط١ - ١٤٢٧ هـ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.

٣٩- زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيىٰ، الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، دار النشر: دار الفكر المعاصر - بيروت -١٤١١، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: د. مازن المبارك.

٤٠- السخاوي، المقاصد الحسنة، مصدر الكتاب: موقع الوراق http: //www. alwarraq. com.

٤١- سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الحكمة في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، الطبعة: الأولىٰ الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية - تاريخ النشر: ١٤٢٣ هـ.

٤٢- سلمان بن عمر السنيدي، تدبر القرآن، ط ٢/ ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م.

٤٣- سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، الناشر: دار الفكر تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٤٤- السيد سابق، دعوة الإسلام، ط ١ - ١٩٧٣م - دار الكتاب العربي - بيروت.

٤٥- السيد محمد نوح - آفات علىٰ الطريق - الطبعة الخليجية الأولىٰ - ١٤١٨ هـ، دار اليقين للنشر والتوزيع - مصر.

٤٦- عادل رشاد غنيم، كيف ننجح في تعديل سلوكنا - ط ١ - ١٤٠٩ هـ - دار المجتمع للنشر والتوزيع - جدة.

٤٧- عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.

٤٨- عبد الباسط محمد السيد، آفاق الروح - ط ٣ - ١٤٢٤ هـ - الناشر شركة مكتبة ألفا للتجارة والتوزيع - مصر.

٤٩- عبد الرحمن بن أبي الحسن الجوزي، ذم الهوىٰ، ١٩٦٢، تحقيق: مصطفىٰ عبد الواحد.

٥٠- عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، الأذكياء، دار النشر: مكتبة الغزالي.

٥١- عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، دار النشر: المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٤ هـ-، الطبعة: الثالثة.

٥٢- عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، دار النشر: دار الفكر – بيروت – ١٩٩٣م.

٥٣- عبد الرحمن السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار النشر: دار الفكر – لبنان - ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦م، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: سعيد المندوب.

٥٤- عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عثمان الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، دار النشر: دار المحبة - دار آية - بيروت - دمشق - ٢٠٠١ / ٢٠٠٢ الطبعة: لا يوجد، تحقيق: عبد الرحيم مارد يني.

٥٥- عبد الرحمن بن عبد الوهاب البابطين، أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، دار النشر: دار القاسم - الرياض - الطبعة الأولىٰ ١٤١٦ هـ.

٥٦- عبد الرحمن بن محمد الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم- ط ١ ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م - دار المغني للنشر والتوزيع - الرياض.

٥٧- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، القواعد الحسان لتفسير القرآن، دار النشر: دار البصيرة الإسكندرية / مصر، الطبعة: لا يوجد.

٥٨- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الوسائل المفيدة للحياة السعيدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ، مطابع البكيرية - السعودية.

٥٩- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار النشر مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٢١ هـ- ٢٠٠٠م، تحقيق: ابن عثيمين.

٦٠- عبد العزيز بن ناصر الجليل، أفلا تتفكرون - ط ١/ ١٤٢٦ هـ - دار طيبة - الرياض - السعودية.

٦١- عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف، معالم في السلوك وتزكية النفوس، دار النشر: دار الوطن - الرياض - الطبعة الأولىٰ ١٤١٤ هـ.

٦٢- عبد الغني أحمد جبر مزهر، خطبة الجمعة ودورها في تربية الأمة، الطبعة: الأولىٰ، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، تاريخ النشر: ١٤٢٢ هـ.

٦٣- عبد الكريم بكار، خطوة نحو التفكير القويم - ط ١ - ١٤٢٣ هـ - دار الأعلام.

٦٤- عبد الكريم بكار، مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، دار النشر: دار المسلم - الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١ هـ.

٦٥- عبد الكريم بكار، بناء الأجيال - ط١ - ١٤٢٣ هـ - كتاب المنتدىٰ.

٦٦- عبد الكريم بكار - «١٦٠» بصيرة في نقائص العقل وعيوبه الخلقية والمكتسبة - استخلصها الفريق العلمي بدار الأعلام - ط ١ - ١٤٢٤ هـ - دار الأعلام - الأردن.

٦٧- عبد الكريم بكار - «٢٠٣» بصيرة في العقل والوعي والتفكير ومسائل أخرىٰ ذات صلة - استخلصها الفريق العلمي بدار الأعلام - ط ١ - ١٤٢٤ هـ - دار الأعلام - الأردن.

٦٨- عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠٥ هـ، الطبعة: الأولىٰ.

٦٩- عبد الله بن عمر الصقهان، التفكير - ط ١ - ١٤٢٣ هـ.

٧٠- عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي أبو عبد الله، الزهد، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

٧١- عبد الله قادري الأهدل، السباق إلىٰ العقول، مصدر الكتاب: موقع الإسلام http: //www. al-islam. com.

٧٢- عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا، الزهد، بدون رقم طبعة، وبدون دار نشر.

٧٣- عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا، الفرج بعد الشدة، بدون رقم طبعة، وبدون دار نشر.

٧٤- عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار دار النشر: مكتبة الرشد - الرياض - ١٤٠٩ هـ، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: كمال يوسف الحوت.

٧٥- عبد الله بن عبد المحسن التركي، مجمل اعتقاد أئمة السلف، الطبعة: الثانية الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، تاريخ النشر: ١٤١٧ هـ.

٧٦- عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني أبو محمد، العظمة، دار النشر: دار العاصمة - الرياض - ١٤٠٨، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري.

٧٧- عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت- ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص.

٧٨- عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، السيرة النبوية لابن هشام دار النشر: دار الجيل - بيروت - ١٤١١ هـ، الطبعة: الأولىٰ تحقيق: طه عبد الرءوف سعد.

٧٩- عبد الله ناصح علوان، تربية الأولاد في الإسلام - ط ٣ - ١٤٠١ هـ - دارالسلام - حلب.

٨٠- عزيز بن فرحان العنزي، البصيرة في الدعوة إلىٰ الله، الطبعة: الأولىٰ الناشر: دار الإمام مالك - أبو ظبي تاريخ النشر: ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

٨١- عبد القادر عودة، التشريع الجنائي في الإسلام، بدون رقم طبعة، وبدون دار نشر.

٨٢- عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣م، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد.

٨٣- عبد الرحمن المحمود، عبادة القلب - ط ١ - ١٤٢١ هـ - دار الفضيلة للنشر والتوزيع - الرياض.

٨٤- علي بن بخيت الزهراني، الانحرافات العقدية والعلمية في القرن الثالث عشر والرابع عشر وأثرهما في حياة الأمة - دار النشر/ دار طيبة، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م.

٨٥- علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الشهير بالماوردي، أدب الدنيا والدين.

٨٦- علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت -١٤٠٥، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: إبراهيم الأبياري.

٨٧- علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل، دار النشر: دار الفكر - بيروت / لبنان - ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م، الطبعة: بدون.

٨٨- علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار النشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت - ١٤١٥، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: صفوان عدنان داوودي.

٨٩- علي جريشة، منهج التفكير الإسلامي - الناشر مكتبة وهبة - ١٤ شارع الجمهورية - عابدين.

٩٠- فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب، المعلم الأول ﷺ، مصدر الكتاب: موقع الإسلام http: //www. al-islam. com

٩١- فهد الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر - ط٢ - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م.

٩٢- القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي «المتوفىٰ: ٢٢٤ هـ»، الأمثال - بدون تاريخ - وبدون رقم طبعة.

٩٣- محمد بن الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي - أضواء البيان إيضاح القرآن بالقرآن - دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م - تحقيق مكتب البحوث والدراسات.

٩٤- محمد بن عبد الله ابن العربي، أحكام القرآن، دار النشر: دار الفكر للطباعة والنشر - لبنان، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.

٩٥- محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار النشر: دار المعرفة - بيروت.

٩٦- محمد بن علي الشوكاني، أدب الطلب ومنتهىٰ الأرب، دار النشر: دار ابن حزم - لبنان / بيروت - ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: عبد الله يحيىٰ السريحي.

٩٧- محمد بن محمد العمادي «أبو السعود»، إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا القرآن الكريم، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٩٨- محمد بن صالح العثيمين، أصول في التفسير، دار ابن القيم - السعودية - الدمام - الطبعة الأولىٰ ١٤٠٩ هـ.

٩٩- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي «ابن الجوزية»، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار النشر: دار الجيل - بيروت - ١٩٧٣، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد.

١٠٠- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي «ابن الجوزية» الأمثال في القرآن الكريم، دار النشر: مكتبة الصحابة - طنطا - مصر - ١٤٠٦ هـ، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: إبراهيم محمد.

١٠١- محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، بدائع الفوائد، دار النشر: مكتبة نزار مصطفىٰ الباز - مكة المكرمة - ١٤١٦ - ١٩٩٦، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي.

١٠٢- محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

١٠٣- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة، دار النشر: دار العاصمة - الرياض، ١٤١٨ هـ.

١٠٤- محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٣٩٣ - ١٩٧٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد حامد الفقي.

١٠٥- محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

١٠٦- محمد بن علي الحكيم الترمذي، الأمثال من الكتاب والسنة، دار النشر: دار ابن زيدون / دار أسامة - بيروت - دمشق، تحقيق: د. السيد الجميلي.

١٠٧- محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، البرهان في علوم القرآن، دار النشر: دار المعرفة - بيروت - ١٣٩١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

١٠٨- محمد العبدة، بعض أسس التفكير كما جاءت في القرآن الكريم- دار الصفوة - القاهرة - ط ١٤٢٧ هـ.

١٠٩- محمد مرتضىٰ الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار النشر: دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين.

١١٠- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار النشر: دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧م.

١١١- محمد بن عبد الله الدويش، تربية الشباب - الأهداف والوسائل - دار النشر:

دار الوطن للنشر - الرياض - الطبعة الأولىٰ ١٤٢٣ هـ.

١١٢- محمد محمود إسماعيل، تصنيف آيات القرآن الكريم - ط١ - ١٤١٣ هـ - دار اللواء - الرياض.

١١٣- محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٢ هـ -٢٠٠١م، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود- الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق: ١» د. زكريا عبد المجيد النوقي ٢» د. أحمد النجولي الجمل.

١١٤- محمد بن الحسين بن موسىٰ الأزدي السلمي، تفسير السلمي «حقائق التفسير»، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: سيد عمران.

١١٥- محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، - ط ١، عام ١٤٢٠ هـ-١٩٩٩م - دار الكتب العلمية - بيروت.

١١٦- محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت – ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولىٰ.

١١٧- محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، مصدر الكتاب: موقع التفاسير http: //www. altafsir. com.

١١٨- محمد حسن محمد سبتان، تقويم أساليب تعليم القرآن الكريم وعلومه في وسائل الإعلام.

١١٩- محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف علىٰ مهمات التعاريف، دار النشر: دار الفكر المعاصر، دار الفكر – بيروت، دمشق - ١٤١٠ هـ، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق:

د. محمد رضوان الداية.

١٢٠- محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار النشر: دار الفكر - بيروت – ١٤٠٥ هـ.

١٢١- محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، دار النشر: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت - ١٤٠٧ – ١٩٨٧، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفىٰ ديب البغا.

١٢٢- محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار النشر: دار الشعب – القاهرة.

١٢٣- محمد بن القاسم الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٢ هـ -١٩٩٢، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن.

١٢٤- محمد ناصر الدين الألباني، السلسلة الصحيحة، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية - المجاني - من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.

١٢٥- محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجه، الناشر: دار الفكر - بيروت – تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

١٢٦- محمد بن صالح بن عثيمين، شرح رياض الصالحين - ط١- ١٤١٥ هـ، دار الوطن الرياض – السعودية.

١٢٧- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار النشر: دار الفكر - بيروت- ١٣٩٨،

تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي.

١٢٨- محمد ناصر الدين الألباني، صحيح وضعيف سنن أبي داود، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية - المجاني - من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.

١٢٩- محمد بن موسىٰ الشريف، العبادات القلبية - ط ٦ - ١٤٢٧ هـ - دار المجتمع - جدة.

١٣٠- محمد بن الحسين الفراء البغدادي الحنبلي، العدة في أصول الفقه - ط٢، ١٤١٠ هـ ١٩٩٠م.

١٣١- محمد بن الحسين بن موسىٰ السلمي أبو عبد الرحمن، عيوب النفس، دار النشر: مكتبة الصحابة - طنطا - ١٤٠٨ هـ، تحقيق: مجدي فتحي السيد.

١٣٢- محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار النشر: دار الفكر - بيروت.

١٣٣- محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٣٤- محمد قطب، قبسات من الرسول - ط ٥ - ١٣٩٨ هـ - دار الشروق - بيروت.

١٣٥- محمد إسماعيل إبراهيم، القرآن وإعجازه العلمي، مصدر الكتاب: موقع يعسوب.

١٣٦- محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار النشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولىٰ.

١٣٧- محمد الصباغ، لمحات في علوم القرآن، المكتب الإسلامي - لبنان -

بيروت، طبعة ١٣٩٤ هـ.

١٣٨- محمد مصطفىٰ محمد، الفهرس الموضوعي لآيات القرآن الكريم - ط ٣ - ١٤١٣ هـ - دار الفتح - باكستان.

١٣٩-مجموع فتاوىٰ ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين - جمع وترتيب فهد بن ناصر السليمان - ط ٢ - عام ١٤١٤ هـ - دار الثريا للنشر والتوزيع - الرياض.

١٤٠- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار النشر: مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - ١٤١٥ - ١٩٩٥، الطبعة: طبعة جديدة بدون رقم، تحقيق: محمود خاطر.

١٤١- محمد بن عبد الله الدويش، مقالات في التربية، دار النشر: دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الأولىٰ - ١٤٢٠ هـ.

١٤٢- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار النشر: دار الفكر – لبنان - ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦م، الطبعة: الأولىٰ.

١٤٣-محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، - ط٢ - دار الشروق - بيروت.

١٤٤- محمد شديد، منهج القرآن في التربية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٤٥- محمد سعيد رمضان البوطي، منهج تربوي فريد في القرآن - ط ٢ - مكتبة الفارابي.

١٤٦- محمد راتب النابلسي، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة «آيات الله في الآفاق»، ط ٢ - ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م - دار المكتبي - سوريا - دمشق.

١٤٧- محمد الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، دار النشر: مكتبة الإيمان

- المنصورة / مصر - ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: أحمد محمود خطاب.

١٤٨- محمد قطب، واقعنا المعاصر، دار النشر مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٧ هـ.

١٤٩- محمد بن عيسىٰ أبو عيسىٰ الترمذي السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.

١٥٠- مجموعة من العلماء، بحوث ندوة أثر القرآن الكريم في تحقيق الوسطية ودفع الغلو - الطبعة: الثانية - الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد- المملكة العربية السعودية - تاريخ النشر: ١٤٢٥ هـ.

١٥١- محمود عبد الوهاب فايد، التربية في كتاب الله - دار الاعتصام - ط٥ - ١٣٩٨ هـ.

١٥٢- منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تفسير القرآن، دار النشر: دار الوطن - الرياض - السعودية - ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧م، الطبعة: الأولىٰ، تحقيق: ياسر ابن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم.

١٥٣- مالك بدري، التفكر من المشاهدة إلىٰ الشهود، دار النشر: الدار العالمية للكتاب الإسلامي - الرياض - الطبعة الرابعة ١٤١٥ هـ.

١٥٤- مرتضىٰ المطهري، التفكير في التصور القرآني - دار النشر: مؤسسة الوفاء- بيروت - الطبعة الأولىٰ ١٩٨٣م.

١٥٥- محمود الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٥٦- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

١٥٧- العقيدة - مصدر الكتاب: موقع الإسلام، http: //www. al-islam. com.

١٥٨- محيي الدين بن علي بن محمد الطائي الخاتمي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار الملكية، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - لبنان - ١٤١٨ هـ- ١٩٩٨م، الطبعة: الأولىٰ.

١٥٩- مسلم محمد أحمد سوار، فلسفة التربية واتجاهاتها - ط يونيو/ ٢٠٠٨م.

١٦٠- منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، قواطع الأدلة في الأصول، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧م، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي.

١٦١- محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.

١٦٢- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، الطبعة الثامنة، ١٤٠١ هـ، مكتبة المعارف الرياض، السعودية.

١٦٣- المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، دار النشر: المكتبة العلمية - بيروت - ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوىٰ - محمود محمد الطناحي.

١٦٤- نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي، تفسير السمرقندي «بحر

العلوم»، دار النشر: دار الفكر - بيروت، تحقيق: د. محمود مطرجي.

١٦٥- عبد الله بن أحمد النسفي، تفسير النسفي، بدون رقم طبعة، وبدون دار نشر.

١٦٦-هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، دار النشر: دار طيبة - الرياض -١٤٠٢، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان.

١٦٧-وهبة الزحيلي، التفسير الوجيز ومعجم معاني القرآن العزيز - ط ١/ ١٤١٦ هـ - دار الفكر - دمشق.

١٦٨- يحي بن شرف النووي، التبيان في آداب حملة القرآن.

١٦٩-يحيىٰ بن شرف بن مري النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٩٢ هـ، الطبعة الثانية.

١٧٠- يوسف بن عبد البر النمري، جامع بيان العلم وفضله، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٩٨ هـ.

المجلات:

١-مجلة البحوث الإسلامية - مجلة دورية تصدر عن رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء السعودية.

٢- مجلة البيان - مجلة شهرية تصدر من المنتدىٰ الإسلامي بلندن.



الفهرس

الإهداء.. ٤

تمهيد.. ٥

فصل تمهيدي ٧

الإطار العام للكتاب: ٧

أهمية الكتاب:... ٧

الهدف من الكتاب:... ٨

تعريف مفردات عنوان الكتاب: ٩

❑ تعريف القرآن الكريم: ٩

❑ تعريف التربية:.. ٩

❑ تعريف العقل: ١٠

❑ تعريف التفكير:.. ١٠

الفصل الأول التربية والتفكير في القرآن الكريم ١١

تمهيد... ١٣

المبحث الأول التربية في القرآن الكريم ١٤

أمور تُبيّن عناية القرآن الكريم بالتربية: ١٤

أساليب القرآن الكريم في التربية:.. ١٥

المبحث الثاني العقل في القرآن الكريم ٢٢

الألفاظ المرادفة للعقل في القرآن الكريم:.................................. ٢٣

تعريف العقل:.. ٢٧

أهمية العقل ومنزلته في الإسلام:.. ٣٠
أسس التربية العقلية: ٣٣
موجهات التربية العقلية:.. ٣٣
مكانة العقل من الوحي: ٣٣
معاني العقل في القرآن:... ٤٠
المبحث الثالث مكان العقل من جسم الإنسان...٤٣
المبحث الرابع حث القرآن الكريم العقل علىٰ التفكير ٥٠
تعلّم التفكير:.. ٥٩
طرق التفكير:... ٧٣
طرق تحسين التفكير: ٧٤

الفصل الثاني أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى التفكير................................. ٨٩

تمهيد.. ٩١
المبحث الأول أمر الله الناس بالتفكير ٩٢
المبحث الثاني حث الأنبياء أقوامهم علىٰ التفكير ١١٦
المبحث الثالث الثناء علىٰ من يفكر.. ١٢٩
المبحث الرابع ذم من لا يفكر ١٤٠

الفصل الثالث أمورٌ حث القرآن الكريم على التفكير فيها.................................. ١٥٧

تمهيد... ١٥٩
المبحث الأول التفكير في الكون للتوصل لأسرار الوجود.............................. ١٦١
التفكير في خلق السموات والأرض: ١٦٣
التفكير في اختلاف الليل والنهار: ١٦٨
التفكير في خلق الشمس والقمر: ١٧٥
التفكير في البحار: ١٨١
التفكير في السحاب:...١٨٥

التفكير في الرياح: ١٨٩
التفكير في عالم الحيوانات والطيور والحشرات: ١٩٥
التفكير في خلق الإبل: ٢٠١
التفكير في عالم الطيور: ٢٠٣
التفكير في عالم النحل: ٢٠٥
التفكير في عالم النمل: ٢٠٨
التفكير في عالم النبات: ٢١١
التفكير في النخيل: ٢١٧
التفكير في الثمار والحبوب والفواكه: ٢٢٠
التفكير في خلق الرمان: ٢٢٢
المبحث الثاني التفكير في أحوال الإنسان نفسه لأجل أن يمارس وظائفه بصورة أفضل ٢٢٣
المبحث الثالث التفكير في التاريخ والأجيال السابقة لأجل التعرف علىٰ السنن والقوانين التي وضعها الله تعالىٰ لحياة البشرية ٢٤٦
التفكير في قصص الأنبياء: ٢٤٨
المبحث الرابع التفكير في الأمثال الدالة علىٰ وحدانية الله وقدرته ٢٦٦
المبحث الخامس التفكير في الأحكام الشرعية وحكمتها ٢٧٤
أولًا: التفكير في حِكَم الوضوء وفوائده: ٢٧٥
ثانيًا: التفكير في حِكَم الصلاة وفوائدها: ٢٧٩
ثالثًا: التفكير في حِكَم وفوائد الزكاة: ٢٨٧
رابعًا: التفكير في حِكَم وفوائد الصيام: ٢٨٨
خامسًا: التفكير في حِكَم وفوائد الحج: ٢٩١
سادسًا: التفكير في الفوائد المترتبة علىٰ ترك المحرمات: ٢٩٣
سابعًا: التفكير في حكم وفوائد تطبيق الحدود الشرعية: ٢٩٦
حِكم وفوائد تطبيق القصاص علىٰ القاتل: ٢٩٧

حِكم وفوائد تطبيق حد السرقة: ٣٠٠
حكم وفوائد حد الزنا: ٣٠٢
المبحث السادس التفكير في الموت والبعث، وفي حقيقة الدنيا والآخرة ٣٠٨
الفصل الرابع أمور نُهِيَ العقلُ عن التفكير فيها ٣٢٧
المبحث الأول النهي عن التفكير في الذات الإلهية ٣٢٩
المبحث الثاني النهي عن التفكير في مفاتيح الغيب ٣٣٥
المبحث الثالث النهي عن التفكير في الروح ٣٥١
الفصل الخامس عوائق التفكير السليم كما نبه عليها القرآن الكريم ٣٦١
المبحث الأول اتباع الهوىٰ ٣٦٣
أثر اتباع الهوىٰ علىٰ التفكير السليم: ٣٦٤
المبحث الثاني التقليد الأعمىٰ والتعصب للآراء الباطلة ٣٧٣
معنىٰ التقليد فيما يظهر لي: ٣٧٤
موقف القرآن الكريم من التقليد: ٣٧٤
أنواع التقليد: تقليد ممدوح، وتقليد مذموم. ٣٧٥
المبحث الثالث الجهل ٤٠٨
أثر الجهل علىٰ التفكير: ٤٠٨
المبحث الرابع الكبر ٤١٥
موقف القرآن الكريم من الكبر: ٤٢٠
نتائج مهمة ٤٢٢
توصيات مهمة ٤٢٤
الخاتمة ٤٢٥
المراجع ٤٢٦
الفهرس ٤٤٥